الأنساق الثقافية في نهج البلاغة

علي شفيع شبر

دار المحجة البيضاء

الأنساق الثقافية
في
خطب نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

الأنساق الثقافية في خطب نهج البلاغة

السيد علي شفيع شبّر

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م

ISBN 978-614-426-946-6

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]

الإهداء

إلى أول من آمن بالإسلام . . صغيراً

واستشهد في سبيل الله . . . كبيراً

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

الباحث

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى آله الغر الميامين.

وبعد. . . فقد اهتمت الدراسات الأدبية الحديثة - الغربية والعربية - بموضوع النقد الثقافي الذي يتخذ من انفتاح النص الأدبي على ما هو خارج عنه طريقاً للوصول إلى نظريات متطورة في الأدب، متجاوزاً حدود النقد الأدبي المعروفة. وقد ارتكز النقد الثقافي على ما صار يعرف بـ (الأنساق الثقافية) فهي مادته الأساسية التي يقوم عليها، إذ تنشأ من خلال تأثرها بعدة عوامل ثقافية واجتماعية وسياسية ودينية وعادات وتقاليد.

ولجدة هذا الموضوع ورغبتي الكبيرة في خوض غمار البحث فيه اتخذت من (الأنساق الثقافية) عنواناً لبحثي مطبقاً نظريات النقد الثقافي وإجراءاته على خطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأسميته (الأنساق الثقافية في خطب نهج البلاغة)، وقد اخترنا خطب نهج البلاغة، لأسباب منها:

1 - قابلية تلك الخطب، لأن تكون محلاً لبحث ودراسة الأنساق

الثقافية فيها فهي تحمل إمكانيات قرائية وتأويلية متعددة ومختلفة، قد تلتقي بالأدب والفكر والثقافة المعاصرة.

2 - احتواؤها على جملة من الأنساق الظاهرة والمضمرة، التي تغطي مساحات واسعة من ثقافة عصر صدر الإسلام، يمكن لأجيال متعاقبة التعرف عليها والإفادة منها.

3 - استوعبت الخطب مختلف الموضوعات والأجناس والأقوام والعوالم والديانات والثقافات.

4 - سعي الباحث في رفد المكتبة العربية بدراسات جديدة ومعاصرة تتخذ من التراث العربي الإسلامي أساساً لها.

وقد كان معيار منهجنا في اختيار الخطب انتقائياً، لا عشوائياً ولا إحصائياً، وإنما نؤشر الظاهرة، ومن ثم نتتبعها في النصوص، ثم نأخذ بأكثرها تمثيلاً للأنساق.

وقد انبنت خطة البحث على ثلاثة فصول يسبقها تمهيد تناولت فيه المقاربة بين حدود ومفاهيم كل من: الثقافة والدراسات الثقافية والنقد الثقافي ومراحل تطوره ثم ختمته بتعريف الأنساق الثقافية ومفهومها.

أما فصول البحث فجاءت كالآتي: -

الفصل الأول وجاء عنوانه (النسق الديني) وقد تناولت فيه مباحث ثلاثة، الأول: أثر القران في الخطب (الأنساق الجمالية)، والثاني: أثر القران في الخطب (نسق الموضوعات)، والثالث: أثر النبوة في النسق.

أما الفصل الثاني فكان عنوانه (النسق السياسي) وقد تناولت فيه ثلاثة مباحث أيضاً، الأول: الإمام عليه السلام والسلطة، والثاني: الرعية وأثرها في النسق، والثالث: نسق المعارضة.

أما الفصل الثالث فعنوانه (النسق الاجتماعي) وهو على ثلاثة مباحث، الأول: نسق الذات ونسق الجماعات، والثاني: ثقافة المجتمع وأثرها في النسق، والثالث: أثر البيئة في النسق.

ثم تأتي الخاتمة لتلخص أهم النتائج التي توصلت إليها تليها قائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث.

ولأن النقد الثقافي ينفتح على المعارف والفلسفات والنظريات والمناهج الأخرى، فقد استعملنا أدواته الإجرائية، وسرنا على نهجه في الكشف عن الأنساق المضمرة التي تختبئ تحت أغطية الجماليات الشكلية والبلاغية.

إن دراسة النصوص الأدبية القديمة بإجراءات حديثة، ومناهج متعددة، فضلاً عن كشف ما هو مخبوء تحتها ليس بالأمر اليسير، ولكن ليس هو بالمستحيلً فسعينا إلى تحقيق ذلك عن طريق الاستعانة بمصادر الأدب الرئيسة والتاريخ والفلسفة والاجتماع وعلم النفس وغيرها فيما يسهم في كشف الأنساق الثقافية المتعلقة بموضوع البحث.

أما نصوص خطب نهج البلاغة، فقد اعتمدت في أخذها على نسخ متعددة ومحققة لكتاب «نهج البلاغة»، للإمام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام الذي جمعه الشريف الرضي (ت404هـ)، ويأتي في مقدمة تلك الكتب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي (ت656هـ) قديماً، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وشرح نهج البلاغة للدكتور صبحي الصالح حديثاً، وفي الكشف عن الأنساق الجمالية - جمال الألفاظ - اعتمدت على كتاب (الأثر القرآني في نهج البلاغة، دراسة في الشكل والمضمون) للدكتور عباس علي حسين الفحام، ومن كتب النقد

الثقافي وبقدر تعلقها بالأنساق الثقافية اعتمدت على مؤلفات الدكتور عبد الله الغذامي عربياً، وكتاب (مدخل إلى نظرية الأنساق) للمؤلف الألماني (نيكلاس لومان).

أخيراً، استثمر هذه المقدمة لأعرب عن اعتزازي وافتخاري بأني نهلت من علم أديبنا الكبير، وأستاذنا القدير الدكتور: سعيد عدنان المحنة، الذي كان ناقداً وناصحاً وموجهاً ومتابعاً لخطواتي كلها، مع تشجيعه المستمر لي، وحرصه الكبير على مستوى البحث، فإليه أقدم شكري وامتناني، وجزاه الله خيرا، وأبقاه منارا في سبيل الخير والعلم، والحمد لله أولاً وآخراً.

الباحث

10/ 6/ 2015م

العراق - الديوانية

التمهيد

مقاربة الحد والمفهوم

- الثقافة
- الدراسات الثقافية
- النقد الثقافي
- الأنساق الثقافي

التمهيد

أولاً: الثقافة

الثقافة كلمة عريقة بمادتها في اللغة العربية، فهي وإن لم يكن لها يومئذ، ما تدل عليه في حياتنا المعاصرة من أبعاد أدبية وفكرية وفنية وحضارية شاملة، إلا أنها وردت في القرآن الكريم والمعاجم اللغوية ولها استعمالات متعددة يمكن حصرها بدلالتين رئيستين: -

أ - **دلالة حسية**: إذ دلت على الظفر بالشيء، ومصادفته، وتسوية المعوج من السيوف والرماح فيقال: «ثَقَفَ الرجل: ظفر به. وثَقَفْته ثقفا... أي صادفته، وثَقَفْنا فلانا في موضع كذا أي أخذناه، ومصدره الثَّقَفَ، في التنزيل: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[1] والثقاف والثقافة: العمل بالسيف قال: -

وكأن لمع بروقها   في الجو أسياف المثاقف

والثقاف: حديدة تكون مع القوّاس والرمّاح يقوّم بها الشيء المعوج...»[2].

ب - **دلالة معنوية**: وفيها تدل على الحذق وسرعة التعلم يقال:

(1) جزء آية من سورة النساء: 91.

(2) لسان العرب، لابن منظور (ت711هـ)، تح: أمين محمد، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط3، 28 : 3.

«ثَقِفَ الشيء ثَقْفا وثِقَافاً وثُقُوفَة: حذقه. وثَقِفُ وثَقْفٌ: حاذق فهم... ابن السكيت: رجلٌ ثَقِفٌ لَقِف إذا كان ضابطا لما يحويه قائما به. ويقال: ثَقِفَ الشيء وهو سرعة التعلم. ابن دريد: ثَقِفْتُ الشيء حذقته... وثَقَفَ الرجل ثَقَافَةً صار حاذقاً»[1].

فاللفظة قديمة في الوضع والاستعمال، إذ وردت في مؤلفات العرب القدماء بالمعنى العام، وهو: الدلالة على الإنسانيات من أدب ولغة ونحو ومنطق وفلسفة، كما عند الرومان قديماً[2]. فمثلاً: «ترد عند أبي حيان التوحيدي بمعنى تهذيب العقل»[3].

وفي هذا المعنى يقول أبو حيان: «فخادعك على عقلك الرصين، وينازلك في ثقافة فهمك المتين»[4]. ويذكر أبو حيان لفظة مثاقفة بالمعنى الاصطلاحي أي: المحاورة والمجادلة العلمية فيقول: «وليكن الحديث على تباعد أطرافه، واختلاف فنونه مشروحاً والإسناد عالياً متصلاً، والمتن تاماً بينا، واللفظ خفيفا لطيفا، وتوخ الحق في تضاعيفه وأثنائه، والصدق في إيضاحه وإثباته، واتق الحذف المخل بالمعنى، واقصد إمتاعه بجمعه نظمه ونثره، وإفادتي من أوله إلى آخره فلعل هذه المثاقفة تبقى وتروى»[5].

---

(1) المصدر السابق، 28: 3.

(2) ينظر: الحضارة (دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها)، د. حسين مؤنس، عالم المعرفة، الكويت، 1978م: 324.

(3) ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، د. طيبة صالح الشذر، مطابع الاهرام، مصر، 1989، المقدمة: ل.

(4) مثالب الوزيرين، لأبي حيان التوحيدي، تح: إبراهيم الكيلاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 2001م، : 158.

(5) الإمتاع والمؤانسة، ابو حيان التوحيدي، مكتبة الحياة، صححه وضبطه: أحمد أمين، وأحمد الزين بيروت – لبنان، 1939م، 1: 9.

ويرى بعض المختصين بالأدب العربي وعلم الاجتماع، كسلامة موسى والدكتور حسين مؤنس أن العرب عرفوا الثقافة بمعرفتهم للحضارة والتفريق بينهما، ومن أولئك ابن خلدون الذي أدرك الفرق بين الثقافة والحضارة إذ يقول: «اعلم إنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتآنس والعصبيات وأصناف الغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك عن الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والعيش والعلوم والصناع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال»[(1)].

يرى الدكتور حسين مؤنس: إن ابن خلدون يريد بلفظ (العمران) هنا، الثقافة مقابل لفظ الحضارة، فهو يريد بلفظ (العمران) هو أسلوب الحياة، أي أسلوب حياة جماعة ما، أي ثقافته[(2)]. ويقول سلامة موسى: «كنت أول من أفشى لفظ (الثقافة) في الأدب العربي الحديث ولم أكن أنا الذي سكها بنفسه، فإني انتحلتها من ابن خلدون، إذ وجدته يستعملها في معنى شبيه بلفظ كليور - culture - في الأدب الأوربي»[(3)].

أما في الاصطلاح الحديث فلقد توسع مدلول الثقافة وتنوع بحسب ميادين النشاط الإنساني خصوصا تلك التي تقتضي معرفة نظرية متخصصة وممارسة عملية مطابقة، فيقال مثلاً: «الثقافة الأدبية، والثقافة العلمية،

---

(1) مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005 م، 51 :1.

(2) ينظر الحضارة (دراسة في أصول وعوامل قيامها)، د. حسين مؤنس: 333.

(3) مقال (الثقافة والحضارة)، بقلم: سلامة موسى، نشرته مجلة الهلال، القاهرة، ديسمبر، 1927، العدد 52.

والثقافة الفنية... إلى غير ذلك من أنشطة إبداعية وحقول إنتاجية تتطلب طاقات عقلية ومؤهلات تقنية، يحقق بها الإنسان أعمالاً متخصصة، متميزة»[1].

والثقافة تختلف باختلاف الأمم والشعوب وتتأثر بعوامل عديدة جغرافية وتاريخية ودينية وسياسية واقتصادية... الخ، كما أنها تختلف من جيل إلى آخر، «فالثقافة بمعناها الشامل حالة اجتماعية مشبعة بموروثات حضارية متراكمة عبر أجيال وقرون وهي تشتمل على مجمل المنجزات العقلية في الأدب والفن والفكر ومجمل الأنماط السلوكية من عادات وتقاليد وشعائر وطقوس وسواها من ممارسات حياتية سائدة في علاقات الناس وطرائق عيشهم وسعيهم»[2]. ومع بداية الاتصال الفكري والمعرفي بين المجتمع العربي والمجتمعات الأوربية انتقل مفهوم (culture) إلى القاموس العربي، واتخذت الترجمة اتجاهين: -

أ - اتجاه ترجمة مفهوم (culture) إلى اللفظ العربي (ثقافة)، ويرجع الدكتور محمد عابد الجابري أصل الكلمة إلى الفرنسية «والتي تدل في معناها الحقيقي الأصلي على فلاحة الأرض، كما تدل ثانيا على مجموع المعارف المكتسبة التي تمكن من تنمية ملكة النقد والذوق والحكم»[3]،

---

(1) المعجم المفصل في اللغة والأدب د. اميل بديع يعقوب، د. ميشال عاصي، دار العلم للملايين، بيروت: م 477: 1.

(2) المصدر نفسه: 476.

(3) المثقفون في الحضارة العربية، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2003م: 21. وينظر: الثقافة (التفسيرالانثروبولوجي)، ادم كوبر، تر: تراجي فتحي، مراجعة: د. ليلى الموسوي، عالم المعرفة، الكويت، العدد 349، 2008م، 1: 6.

ولم يذكر المختصون تاريخا محددا لدخول الثقافة بمفهومها الأوربي إلى القاموس العربي إلا أنهم يشيرون إلى عصر النهضة الأدبية وازدهار الترجمة في أوائل القرن العشرين[1].

وقد مر إن سلامة موسى ادعى أنه أول من نشر لفظ (ثقافة) في الأدب العربي مقابل (culture) وكان ذلك سنة 1922م[2].

ب - اتجاه ترجمة (culture) إلى اللفظ العربي (حضارة)، وهو اتجاه محدود برز في كتابات علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا في ترجماتهم للمؤلفات الأوربية في هذين الحقلين[3]، كعبد الهادي الجوهري في (معجم علم الاجتماع)، ود. خليل أحمد خليل في كتابه (المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع)، وإحسان محمد الحسن مترجم (معجم علم الاجتماع) لدينكن ميتشل، فيعرب كلمة (culture) تحت عبارة (الحضارة) وأنسام محمد الأسعد في (معجم مصطلحات علم الاجتماع) التي تذكر فيه أن الثقافة (culture) مصطلح مشتق من كلمة (cultural) اللاتينية المشتقة بدورها من فعل (colure) وهو ينطوي على

(1) ينظر: الحضارة، د. حسين مؤنس: 341.

(2) (الثقافة والحضارة) مقال لسلامة موسى، نشرته مجلة (الهلال)، القاهرة، ديسمبر 1927م: 52.
- ينظر: الثقافة مفهوم ذاتي متجدد، بحث، د. نصر محمد عارف، أستاذ مشارك، جامعة جورج تاون، موقع أسطورة العرب على الانترنيت.

(3) ينظر: معجم علم الاجتماع، عبد الهادي الجوهري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2012م: 73، - ينظر المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، د. خليل أحمد خليل، دارالحداثة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط2، 2001م: 84.
- ينظر معجم مصطلحات علم الاجتماع، جيل فيريول، ترجمة: أنسام محمد الأسعد، دار ومكتبة الهلال، ، بيروت - 2011م: 66.

أعلى مستوى من التعبير عن الإنسانية، ولطالما كان ينافسه مصطلح الحضارة[1]. يقول الدكتور حسين مؤنس: «إذا شئنا أن نطبق على الثقافة معناها المحدود فهي تقابل ما يمكن أن نسميه بالحضارة»[2].

و«الثقافة من الكلمات التي يصعب تحديد معناها بدقة لأنها استعملت من قبل علماء الاجتماع وعلماء الانثروبولوجيا والاتنولوجيا بمعان متنوعة وقد أحصى لها (كروبير وكلوكهون) مائة وستين تعريفا»[3]. ويرى الدكتور سعدي ضناوي صعوبة التمييز بين مفهومي (الثقافة) و(الحضارة) وان محاولات التميز بينهما عقيمة لا جدوى منها.

فالمفهومان متداخلان لدرجة أنه يمكن عدهما مترادفين[4]. والسبب في هذا التداخل يعود إلى الغربيين أنفسهم في إيرادهم تعريفات متشابهة، فأول من استعمل اللفظ (ثقافة) هم الألمان فقالوا (kutur) وقالوا إنها هي (الحضارة)[5]، كما فعل ذلك (تايلور) الذي يقول: «إن كلمة الثقافة أو الحضارة باعتبار معناها الاتنوغرافي الأكثر اتساعا، تدل على هذا الكل المعقد الذي يضم في آن واحد العلوم والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات وسائر الملكات التي يكتسبها الإنسان في حال المجتمع»[6].

---

(1) ينظر المصدر نفسه: 66.

(2) الحضارة، د. حسين مؤنس: 326.

(3) مدخل إلى علم اجتماع الأدب، د. سعدي ضناوي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1994م: 197.

(4) ينظر: مدخل إلى علم اجتماع الأدب: 198.

(5) الحضارة، د. حسين مؤنس: 524. - ينظر: كتاب رائد الثقافة العامة، كوزيليوس هير شبرغ، ترجمة: محمد يوسف نجم، دار الكتاب العربي، بيروت، 1963 م: 33.

(6) مدخل إلى علم اجتماع الأدب، د. سعدي ضناوي: 197.

وعلى الرغم من هذا التقارب بين (الثقافة والحضارة) إلا أن هناك محاولات للتمييز بينهما كما فعل (ماك ايفر) الذي قال عن الثقافة: «إنها ترتبط بالتعبيرات عن الحياة (من إيديولوجية ودين وأدب الخ. . .)، بينما الحضارة ما يوجده المجتمع ليؤمن رقابته على ظروف حياته الخاصة من تقنيات وتنظيمات اجتماعية»[1]، وهذه النظرية الألمانية الأصل تتلاقى والتفكير الماركسي الذي يميز بين البنية التحتية والبنية الفوقية. وأصبحت المعاجم المتخصصة تفرق بين ترجمة اللفظتين فتجعل (culture) للثقافة، و(civilization) للحضارة[2]، فبعد استقراء النصوص المعنية بالتعريفات رجحوا تخصيص (الثقافة) بالجوانب النظرية والعملية من نشاطات الفكر والأدب والعلم والفن سواء كانت أصولية أكاديمية أم شعبية فولكلورية، بينما خصصوا مصطلح (الحضارة) بمجمل الأنشطة الثقافية (الذهنية) والمدنية (المادية) التي تسود المجتمع وتدفعه إلى التقدم والتطور وتطبعه بطابع إنساني وارث تاريخي مميز[3]، وهذا التفريق أنسب لحياتنا المعاصرة.

لقد ارتبط معنى الثقافة منذ أيام الرومان بمعنى الإنسانيات، وأخذ الألمان اللفظ (kultur) من اللاتينية واستعملوه زمنا طويلا، ويراد به

---

(1) المصدر السابق: 197.

(2) ينظر: قاموس المصطلحات الأدبية، د. أميل يعقوب وآخرين، دار العلم للملايين - بيروت، 1987، ط 1: 160 - 187.
- ينظر: مفاتيح اصطلاحية (معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع)، طوني بنيت وآخرون، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1، 1980 م: 298.
- ينظر: معجم المصطلحات الأدبية، نواف نصار، دار المعتز، الأردن - عمان ط1/ 2010: 87 - 103.

(3) ينظر: المعجم المفصل في اللغة والأدب، د. إميل بديع يعقوب، 478.

إصلاح الشيء وتهذيبه وإعداده للاستعمال ومن هذا قالوا (agri -culture) أي إصلاح الأرض وزراعتها، واستعملت في الأدب اللاتيني المسيحي في معنى تهذيب الروح (cultura Animi) وربما استعمل اللفظ في معنى العبادة (Due cultus) أي عبادة الله أودين الله[1].

وفي عصر النهضة الأوربية استعملت اللفظة للفنون والأدب، وعند (لوك) تستعمل في معنى تهذيب العقل أو تهذيب الإنسان[2]، ويعرف الشاعر والناقد الانكليزي (ماثيو أرنولد) 1822 - 1888 في كتابه (الثقافة والفوضى) الثقافة بأنها: «متابعة الكمال التام عن طريق الرغبة في معرفة أحسن القول والفكر في العالم فيما يختص بالأمور التي تهمنا»[3]، إلا إن (اليوت) يرى فكرة أرنولد عن الثقافة ناقصة ومبتورة إذ اكتفى بتتبع مراحل الكمال عند المرء دون أن يتعرض للمثل العليا التي تربط الجماعات بعضها ببعض[4]، ويعرف اليوت الثقافة بأنها «تجسيد لدين الشعب»[5].

ومنذ النصف الثاني من القرن العشرين استقر الغربيون على أن الثقافة تتضمن كل معاني التهذيب والوصول إلى الكمال وإنها جماع المعارف الإنسانية، وفي إطار هذا المفهوم الجديد عقدت منظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم والتربية ندوة سنة 1970 لمناقشة موضوع (الحقوق الثقافية من حيث هي حقوق إنسانية) نوقش فيها موضوع الثقافة كله من تعريفها

---

(1) ينظر: الحضارة، د. حسين مؤنس: 324.
(2) المصدر نفسه: 324.
(3) اليوت، د. فائق متى، دار المعارف، القاهرة ط2، 1991 م: 41.
(4) ينظر: المصدر نفسه: 41.
(5) الحضارة، د. حسين مؤنس: 325.

إلى ميادينها ومستقبلها ونشرت مناقشات هذه الندوة في كتاب يحمل العنوان السابق: (Cultural rights as human rights) ومما خلصت إليه من تعريفات هو: «أن الثقافة داخلة في كل مايتصل بالإنسان فكريا وأخلاقيا وبدنيا حتى تدريبه النفسي، وفي هذا المعنى الواسع جدا تشمل كل ما يقوم به الإنسان من جهود»[1].

مما تقدم نجد أن مفهوم الثقافة من المفاهيم الشاملة والتي تتطور بسرعة كبيرة، وذلك لارتباطها الوثيق بحياة الإنسان ماديا ومعنويا، لذا قامت دراسات تهدف بشكل رئيسي إلى فهم الثقافة بجميع أشكالها المركبة والمعقدة وتحليل السياق الاجتماعي والسياسي وغيرهما من العلوم ومدى تأثيرها في الممارسات الثقافية. إن تلك الدراسات دخلت تحت عنوان يعنى بها سمي بالدراسات الثقافية.

(1) الحضارة: د. حسين مؤنس، 326.

الدراسات الثقافية

ظهر مفهوم الدراسات الثقافية أكاديميا في أوربا وأمريكا في عام 1964 وذلك من خلال تشكل (مركز برمنكهام للدراسات الثقافية المعاصرة) وتطور (مدرسة فرانكفورت)النقدية بالمعنى الفلسفي، وانطلاق دراسات مابعد الحداثة. وقد مرت هاتان المدرستان بمراحل وتحولات عديدة زادت من الاهتمامات النقدية الثقافية[1]، متصاحبة مع النظريات النقدية النصوصية والألسنية وتحولات (ما بعد البنيوية)، لتتشكل من ذلك تيارات نقدية متنوعة المبادئ والاتجاهات، كان العامل المشترك فيها جميعا هو توظيف المقولات النظرية في نقد الخطاب. وشهدت هذه الحقبة تصدع الفهم النقدي الذي أشاعته المناهج النقدية الشكلية والبنيوية للأدب الأمر الذي أدى إلى تأزم أمر النسق المغلق، وتفجرعن جملة من ضروب التحليل النقدي الثقافي كالاتجاهات السيموطيقية والتفكيكية والتأويلية[2].

وقد عبرت المدرستان - برمنكهام وفرانكفورت - عن فهمهما للدراسات الثقافية من خلال اعتمادهما على مصادر رئيسة توضح ملامح

---

(1) ينظر: النقد الثقافي - قراءة في الأنساق الثقافية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، ط 4/ 2008م: 19.

(2) ينظر: النقد الثقافي - من النص الأدبي إلى الخطاب - ، د. سمير الخليل، دار الجواهري، بغداد، شارع المتنبي ط1، 201م: 22.

كل منهما، فمدرسة (برمنكهام) وعلى لسان رئيسها (هوغارت) تضع ثلاثة مصادر للدراسات الثقافية هي: -

1 - مصادر تاريخية فلسفية.

2 - مصادر سوسيولوجية.

3 - مصادر أدبية نقدية، وهي الأهم كما قال (هوغارت)[1].

أما مدرسة فرانكفورت، والتي تعرف بالنظرية النقدية وأبرز أعلامها (ماكس هور كهايمر) و(تيو دور أدرنو)، فقد اتخذت لها مرجعيات نظرية، بعد تحليلها ونقدها، وأهم تلك المرجعيات: -

1 - الفلسفة الماركسية.

2 - التحليل النفسي.

3 - فلسفة التاريخ.

4 - علم الجمال[2].

ولقد ركزت مدرسة (فرانكفورت) على التفاعل الذي يحدث في تشكيل أفعال الاستقبال - أي في صنع التلقي - بحيث تجري عمليات إنتاج الثقافة مع دمج الناس في مستوى واحد وتعميم هذا النموذج مما يحقق تسويغاً أيديولوجيا لمصلحة الهيمنة الرأسمالية، إذ كان أصل الاهتمام بالدراسات الثقافية في هذه المدرسة قائما على العوامل السياسية والاقتصادية والمادية، لذا وجهت إليها انتقادات كثيرة لاحتفائها بهذه

---

(1) ينظر النقد الثقافي للغذامي: 20.

(2) ينظر: القراءة النسقية - سلطة البنية ووهم المحايثة، أحمد يوسف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007 م: 38 - 39.

العوامل على حساب الثقافة والأدب والاجتماع[1]، الأمر الذي أدى إلى ظهور معارف ودراسات جديدة دمجت الثقافة الشعبية مع الثقافات الأكاديمية وهذه أبرز سمات الدراسات الثقافية الجديدة، يقول (أرثر ايزابرجر): «ولقد دمجت دراسة الثقافة الشعبية والجماهيرية مع دراسة الثقافة الممتازة وهو ما أدى إلى نوع جديد من المعرفة الكبرى والدراسات الثقافية»[2].

إن الدراسات الثقافية تعمل «وفق تصور متعدد التخصصات ينهل من النظرية الاجتماعية والاقتصاد والسياسة والتاريخ ودراسات الاتصالات والنظرية الأدبية والنقدية والفلسفة وغيرها من الخطابات النظرية المشتركة في مقاربتها مع مدرسة فرانكفورت والدراسات الثقافية البريطانية ونظرية ما بعد الحداثة الفرنسية»[3].

أما الجهد العربي المبذول في حقل الدراسات الثقافية، فيتمثل في محاولة بعض الدارسين الجمع بين نظرية الأدب والنظريات المعرفية الأخرى من أمثال محمد مصطفى بدوي في كتابه (قضية الحداثة ومسائل أخرى) ومؤلفات مصطفى ناصف وعز الدين إسماعيل وعبد الفتاح كيليطو وعزيز السيد جاسم ونصر حامد أبو زيد وآخرين[4]. يقول الدكتور عبد

---

(1) ينظر النقد الثقافي، د. سمير الخليل: 22 - 23.

(2) النقد الثقافي - تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، أرثر ايزابرجر، ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، القاهرة - مصر، ط1، 2003 م: 195.

(3) النظرية الثقافية - وجهات نظر كلاسيكية ومعاصرة، تيم ادواردز، ترجمة: محمود أحمد عبد الله، ط1، 2012 م: 115.

(4) ينظر: النظرية والنقد الثقافي، الكتابة في عالم متغير، محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2005 م: 37.

العزيز حمودة: «إننا جمعنا بين الماركسية الجديدة والمادية الثقافية والتاريخانية الجديدة، ننطلق من نقاط اللقاء بين تلك الاتجاهات أكبر بكثير من نقاط الاختلاف»[1].

أما الدكتور حفناوي بعلي فلا يذهب بعيدا عن فكرة ارتباط النقد الثقافي بالسياسي والإيديولوجي، والهدف من وراء ذلك الارتباط كما يقول: «تهدف الدراسات الثقافية إلى تناول موضوعات تتعلق بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة وتروم وراء ذلك إلى اختبار مدى تأثير تلك العلاقات على شكل الممارسات الثقافية»[2].

إن الاهتمام بالدراسات الثقافية في الساحة الأدبية والثقافية العربية يأتي استجابة واعية لروح العصر وتماشيا مع التغيرات الكبرى التي فرضتها الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية على الصعيدين العالمي والعربي، والتي حتمت تغييرات في القراءة والموقف، ذلك لتبدل الوعي بالذات والآخر والعالم ومن ثم تبدلت النظرة إلى التراث والتاريخ والثقافة والمجتمع، يقول الدكتور عبد الله الغذامي: «للدراسات الثقافية فضل في توجيه الاهتمام لما هو جماهيري وإمتاعي، وجرى الوقوف على ثقافة الجماهير ووسائلها وتفاعلاتها، وهذا شيء جوهري وهام»[3]، فاستدعى ذلك معالجة شاملة ونظرة نقدية متعمقة، نظرة تُسائل الموروث وتخرج النص من عزلته إلى ساحة مفهوم الخطاب، وتنتقل من سطحية

(1) الخروج من التيه، د. عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، العدد (298)، 2003م: 225.

(2) مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، أ. د. حفناوي بعلي، منشورات الاختلاف/ الجزائر، ط1، 2007م: 19.

(3) النقد الثقافي، د. الغذامي: 23.

الشكل - التي تعتمد الصور البلاغية والجمالية - إلى تفجير دلالاته المضمرة، وكشف الأنساق التي تختبئ وراء ذلك البلاغي والجمالي. إن كل الاتجاهات الجديدة (الما بعد حداثية) التي أنتجتها وتنتجها الدراسات الثقافية ذابت جميعها في الاتجاه النهائي الغالب وهو (النقد الثقافي).

النقد الثقافي

برز مفهوم النقد الثقافي بعد مرحلة الدراسات الثقافية والتي قدمت له - كما يقول أ. د. حفناوي بعلي - ما يشبه خارطة لجغرافية هذا النقد، تبين الأماكن وأسماء الأعلام الرواد للخطاب الثقافي فمثلاً ظهر في فرنسا (رولان بارت) و(ميشيل فوكو) و(جاك دريدا) وفي ألمانيا (يورجين هابرماس) و(هربرت ماركوز) وفي الولايات المتحدة (ادوارد سعيد) و(فريد ريك جيمسون) وفي كندا (ميتشل مالكون) و(نورثروب فراي) وفي انكلترا (رايموند وليامز) و(ستيوان هول) و(هوغارت) وفي ايطاليا (انطونيو غرامشي) و(امبرتو ايكو) وآخرين[1]. «لقد مهدت قراءات رولان بارت وفوكو ودريدا. . . مساحة واسعة من الاشتغالات الثقافية وعلى ميادين متعددة ومتشعبة اكسب فيما بعد النقد الثقافي صفة الامتداد والاتساع»[2]، فكانت اشتغالات - هولاء الرواد - الثقافية بموضوعات وقضايا متنوعة ومختلفة شكلت فيما بعد الهيكل الذي يقوم عليه النقد الثقافي ومن جملة تلك الموضوعات: ثقافة العلوم والثقافة الجماهيرية والتاريخانية الجديدة والاستشراق وخطاب ما بعد الاستعمار والدراسات النسوية وثقافة العولمة. . . إلخ[3].

(1) ينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، أ. د. حفناوي بعلي: 11.
(2) النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي (العراق أنموذجا)، د. عبد الرحمن عبد الله، دار الشؤون الثقافية - بغداد، ط1، 2013 م: 20.
(3) ينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي، حفناوي بعلي: 11.

وهكذا يأخذ النقد الثقافي بالانتشار قي أوربا، ويقدم (فنسنت ليتش) هذا المصطلح مسميا مشروعه الفكري بهذا الاسم تحديداً - النقد الثقافي - ويجعله رديفا لمصطلح مابعد الحداثة أو مابعد البنيوية[1]، ويعرف (آرثر ايزا برجر)النقد الثقافي بـ «أنه نشاط وليس مجالاً معرفياً خاصاً بذاته»[2]، ذلك لما يسمح به هذا النشاط من دخول معارف ونظريات وعلوم مختلفة فيه، يقول الدكتور محسن جاسم الموسوي: «النقد الثقافي فعالية تستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية لبلوغ ماتأنف المناهج الأدبية المساس به، والخوض فيه»[3]، فيتجاوز هذا النوع من النقد الحدود التي يضعها النقد الأدبي، إذ كيف يتسنى للناقد الأدبي أن يخوض في (العادي) و(المهمش) و(الجماهيري) و(الشعبي) بعد ما اعتمد كثيراً في قراءاته ونقده على النصوص المنتقاة والمنتخبة، فهو لايهتم بما حول النص من هامش.

وفي المقابل نجد أن النقد الثقافي لا يمايز بين أدب رفيع وأدب شعبي ولابين فن نخبوي راقٍ وآخر جماهيري، ولا بين ظاهرةٍ ثقافيةٍ وأخرى، لأنه يعنى بالسياقات والظواهر والبنى المختلفة التي شكلت البيئة الثقافية التي أنتجت فيها النصوص، ومن ثم يعمل على تفكيك البنى الثقافية من أجل الكشف عن مهيمنات إنتاج المعاني الإيديولوجية وتشريح الخطابات المختلفة، وبعبارة أخرى يمكن القول إن النقد الثقافي وجد منذ اللحظة التي انتقلت فيه سلطة النص الأدبي من مجال الأدب وجماليته

(1) ينظر: النقد الثقافي، الغذامي: 31. وينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، حفناوي بعلي: 43.

(2) النقد الثقافي - تمهيد مبدئي للمفاهيم الأساسية، ارثر ايزا برجر: 38.

(3) ينظر: النظرية والنقد الثقافي، محسن جاسم الموسوي: 12.

وبلاغته إلى مجال الايدولوجيا والتاريخ فهو بصورة عامة نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعا لبحثه وتفكيره ويعبر عن مواقف بإزاء تطوراتها وسماتها[1]. ويمكن معرفة أبرز سمات النقد الثقافي من خلال ما قدمه (فنسنت ليتش)، إذ عدها ثلاثا هي: -

1 - انه يتمرد على الفهم الرسمي الذي تشيعه المؤسسات للنصوص الجمالية، بل ينفتح إلى ماهو خارج عنايتها، وإلى ماهو غير جمالي.

2 - الإفادة من المناهج التي تعنى بتأويل النصوص، وكشف خلفياتها التاريخية علاوة على الأبعاد الثقافية للنصوص.

3 - التركيز على أنظمة الخطاب والكيفية التي يمكن أن تفصح بها النصوص عن نفسها وعن ما وراءها[2].

إن النقد الثقافي هو حلقة من حلقات التطورالنقدي الحديث، الذي شهد نقلات نوعية في التعامل مع (القول الأدبي)، فبعد ما كان يسميه (ريتشاردز) العمل الأدبي، جاء(رولان بارت) ليحوله إلى النص الأدبي، ثم (فوكو) لينقله من النص إلى الخطاب ليؤسس إلى وعي نظري في نقد الخطابات والأنساق الذهنية[3]. وجرى الوقوف على (فعل) الخطاب وعلى تحولاته النسقية، بدلا من الوقوف على حقيقته الجوهرية، التاريخية أو الجمالية. «إن حدوث النقلة النوعية من (العمل الأدبي) إلى (النص) أدخلنا في نقلة نوعية أخرى تمثلت في نقل (النص) واشتغالته إلى

(1) ينظر: النظرية والنقد الثقافي - الكتابة في عالم متغير، محسن جاسم الموسوي: 9.

(2) ينظر: النقد الثقافي، الغذامي: 32.

(3) ينظر: أطروحة دكتوراه، (نهج البلاغة) جمعاً وتحقيقاً في ضوء النقد الثقافي، أحمد عبيس، جامعة بابل، 2013م: 16 - 17.

الخطاب أو الممارسة الخطابية أو التمثيل كما يراها فوكو وهذه مهمة النقد الثقافي بتياراته المختلفة»[1].

أما النقد الثقافي العربي، فينظر إليه النقاد بمنظارين، الأول عام والآخر خاص، فالعام هو ما يرون فيه وجود لنقد ثقافي عربي عند رواد النهضة الأدبية، من أمثال طه حسين والعقاد وعلي الوردي وغيرهم، يقول الدكتور محسن جاسم الموسوي «لم يكن الرواد الأوائل قد تناسوا قضية النقد الثقافي، لكنهم توسعوا في أمره حتى بات فضفاضا لا ضفاف له غير التاريخ والدين في مواجهتهما الصعبة مع عالم حديث تعامل مع الاثنين بطرق متعددة وأساليب متباينة»[2]، أما المنظار الخاص فهو أكثر دقة إذ تستند فيه الرؤية إلى ما يقترحه نقاد النقد الثقافي ما بعد البنيوي من أمثال (رولان بارت، وجاك دريدا، وميشل فوكو)، وما قالت به المدرسة الأمريكية وفي مقدمتها أفكار (فنست ليتش) وغيرها من المدارس الغربية الأخرى، فيصبح من المتعذر الركون إلى وجود نقد ثقافي ما بعد بنيوي عند الرواد العرب[3].

وهناك من يرى أن إضافة كلمة (حضاري)[4] للمصطلح يكون أنسب للقول بوجود نقد ثقافي عربي عند الرواد فتصبح التسمية (النقد الثقافي الحضاري) لأن (الثقافة والحضارة) تشتغلان على المباني الفكرية والتراثية لعموم الفكر العالمي أو العربي، وبهذا المصطلح الجديد يمكن أن نعد كتابات طه حسين(في الشعر الجاهلي) و(مستقبل الثقافة في مصر)

(1) النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي، عبد الرحمن عبد الله: 19.

(2) النقد الثقافي، الغذامي: 13.

(3) ينظر: النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي، د. عبد الرحمن عبد الله: 19.

(4) ينظر: المصدر نفسه: 50.

داخلة تحت إطار النقد الثقافي، وكذلك ما قدمه العقاد وجماعة الديوان وبعض أفكار المهجريين، هي كلها خروج على سلطة المؤسسة الأدبية ومركزيتها، وكذلك كتابات د. علي الوردي في (أسطورة الأدب الرفيع)، والذي استقى منه الدكتور الغذامي مشروعه النقدي الثقافي، كما يمكن عد حركة تحرر القصيدة الشعرية - التي قادها السياب ونازك الملائكة والبياتي في الشعر الحر - من النقد الثقافي، وأيضاً كتابات أدونيس في الثابت والمتحول ومآأثاره من إشكالات الموروث وتداعياته على الحاضر[1]، وغير ما ذكر ممن تعد أفكارهم وكتاباتهم وما أنتجوه بمثابة تطبيقات عملية لنظرية النقد الثقافي.

أما النقد الثقافي المرادف لما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية، فيعد الدكتور عبد الله الغذامي هو أبرز من تبناه عربيا وأعطى صورة واضحة المعالم عنه في كتابه (النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية) وفيه يعرف النقد الثقافي بـ «انه فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء»[2]، ولقد حاول الغذامي استخلاص مبادئ نظرية النقد الثقافي من مظانها الغربية واكسابها طابعا عربيا، وبدا واضحا تأثره بأفكار (ليتش)، واستعمل أدواته الإجرائية لاستكشاف ظواهر عربية عديدة لم تستطع مناهج النقد الأدبي السابقة التصدي لها أو الكشف عن أنساقها الثقافية[3].

(1) ينظر المصدر نفسه: 50.
(2) النقد الثقافي، د. الغذامي: 83 - 84.
(3) ينظر النقد الثقافي، د. سمير الخليل: 33 - 41.

ومن النقاد العرب المهتمين بالنقد الثقافي الدكتور عبد النبي اصطيف في كتاب (نقد ثقافي أم نقد أدبي)والذي احتوى سجالاً نقدياً كشف عن التباعد بينه وبين الغذامي واختلاف وجهة نظريهما في النقد الثقافي وأهم تلك الاختلافات هي التي دارت حول موقف النقد الثقافي من النقد الأدبي إذ يرى الغذامي موت النقد الأدبي وحلول النقد الثقافي مكانه، بينما يرى اصطيف إن النقد الأدبي لا يمكن أن يموت[1]، يؤيده في ذلك جملة من النقاد كيوسف عليمات الذي يقول: «لا يمكن للنقد الثقافي أن يؤسس ولادته ومشروعيته على أنقاض النقد الأدبي. فالخطاب الثقافي لا يتحقق وجوده بانفصامه عن جماليات اللغة والمعنى، في النصوص الشعرية، وإنما يكتسب صفته الثقافية بفضل السياقات الجمالية والقيم المنصهرة فيه»[2]، وهذا الرأي أكثر دقة، وفيه إنصاف للثقافة والأدب.

ومن المهتمين أيضاً بالنقد الثقافي د. حفناوي بعلي في كتابه (مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن) و. د. صلاح قنصوة في كتابه (تمارين في النقد الثقافي)، ود. محسن جاسم الموسوي في (النظرية والنقد الثقافي) وآخرون. فمما تقدم يتضح إن النقد الثقافي هو نشاط معرفي، وليس منهجاً ثابتاً ولا محدداً بقيود كما هو النقد الأدبي، وإنما يتناول مختلف الانجازات الفكرية والمعرفية والخطابات الحاملة للأنساق[3].

(1) ينظر: نقد ثقافي أم نقد أدبي، عبد الله الغذامي وعبد النبي اصطيف، دار الفكر المعاصر، سوريا، ط1، 2004م: 167.

(2) جماليات التحليل الثقافي، يوسف عليمات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، 2004م: 35.

(3) ينظر النقد الثقافي، د. سمير الخليل: 34 - 35.

الأنساق الثقافية

إن أهم المفاهيم التي قام عليها النقد الثقافي وميزته من سائر الدراسات النقدية الحديثة هو مفهوم الأنساق الثقافية، فالنقد الثقافي «معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي»[1]، الأمرالذي دعا الدكتورعبد الله الغذامي إلى أن يعرض (النسق) مفهوما مركزيا في مشروعه النقدي[2].

والنسق لغة: «من كل شيء: ما كان على طريقة نظام واحد، عام في الأشياء، يقال: نَاسَقَ بين أمرين أي تابع بينهما، وثَغْرٌ نَسِق: إذا كانت الأسنان مستوية... والكلام إذا كان مسجعاً قيل له: نَسَقٌ حَسِن»[3].

وفي الاصطلاح لا نجد للنسق تعريفا جامعا مانعا، وقد حاول عدد من نقاد الغرب أن يضعوا له مدلولا اصطلاحيا، وسبق لعالم اللسانيات (فردينان دي سوسير) أن استخدم مصطلح النسق، وهو من أكثر اللسانيين عناية بالنسق وتردد مرارا في محاضراته وهو موطن الجدة في نظريته[4]، فاللغة في تصوره: «نظام من الإشارات التي تعبر عن الأفكار، ويمكن

(1) النقد الثقافي، الغذامي: 83.
(2) ينظر: المصدر السابق: 77.
(3) لسان العرب، ابن منظور، 14: 247.
(4) ينظر: القراءة النسقية، أحمد يوسف: 117.

تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة أو الألف باء المستخدمة عند فاقدي البصر والنطق، أو الطقوس الرمزية أو الصيغ المهذبة أو العلامات العسكرية أو غيرها من الأنظمة، ولكنه أهمها جميعًا»(1) فجاراه كثير من البنيويين في هذا الشغف بالنسق حتى أطلق فوكو على جيله اسم (جيل النسق)(2).

ويعود أمر الاهتمام بمفهوم النسق إلى الإفادة التي يقدمها في تشريح النصوص الأدبية بغية فهمها فمن خلال النسق يمكن معرفة العوامل المؤثرة في إنتاج النصوص، إذ يرى الذين استعملوه في المحيط الثقافي من نقاد وكتاب كلوتمان وايكو وليفي شتراوس، أن النسق يدل على التاريخ والثقافة والأدب والفكر بصورة عامة، إلا أن الدراسات الثقافية هي التي بلورت مفهوم النسق وجعلته مركزيا وذلك لسعة مفهومه، ففي العمل الأدبي يتجاوز النسق النص والمؤلف والقارئ إلى معان عديدة فـ «يرى (غادامير) أن معنى العمل الأدبي لا تستنفده أبدا مقاصد مؤلفه، وكلما عبر العمل من سياق ثقافي أو تاريخي إلى آخر يمكن أن تغربل منه معان جديدة ربما لم يتوقعها أبدا مؤلف العمل أو جمهور معاصريه»(3).

أما مفهوم النسق عند النقاد العرب في دراساتهم الأدبية والثقافية المعاصرة، فقد بدأت مع كتابات بعضهم من أمثال عبد الفتاح كيليطو وعبد الله الغذامي ويوسف عليمات وأحمد يوسف وآخرين فعبد الفتاح

---

(1) علم اللغة العام، فرد ينان دي سوسير، ترجمة: يؤيل يوسف عزيز، دار أفاق عربية، الأعظمية - بغداد، 1985م: 34.

(2) القراءة النسقية، أحمد يوسف: 117.

(3) نظرية الأدب، تيري ايغلتون، ترجمة: ثائر ديب، وزارة الثقافة - دمشق 1995م: 126.

كيليطو قال: «ونعني با لنسق الثقافي بكل بساطة مواضعة اجتماعية دينية أخلاقية.. تفرضها لحظة معينة من تطورها، الوضعية الاجتماعية، والتي يقبلها ضمنا المؤلف وجمهوره»(1)، أما الغذامي فقد أولى الأنساق الثقافية اهتماما كبيرا، وعليها بنى مشروعه الثقافي ويرى أنها «أنساق أزلية وراسخة ولها الغلبة دائماً»(2)، وأن شغف الغذامي بالنسق هو الذي جعله يضيفه وظيفة سابعة إلى وظائف الاتصال الست التي استعارها من (جاكبسون) ونقلها من الإعلام إلى النظرية الأدبية، وهذه الوظائف هي: المرسل (الباث) والمرسل إليه (المتلقي) والرسالة (اللغة) وهي تتحرك عبر عنصري (السياق) و(الشفرة) ووسيلة ذلك كله (أداة الاتصال)، فيما يقترح الغذامي إضافة عنصر سابع يسميه(العنصر النسقي)(3). وبالإضافة إلى أزلية النسق وتاريخيته وان له الغلبة دائما يذكر الغذامي بقية صفاته: -

1 - يحدد النسق عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد وهذا يكون عندما يتعارض نسقان: أحدهما ظاهر، والآخر مضمر ويكون المضمر ناقضاً وناسخاً للظاهر ويكون ذلك في نص واحد، إلا إن (يوسف عليمات) يرى أن النسق الظاهر يحمل عدة أنساق مضمرة وليس نسقاً واحداً يقول «فالنسق الظاهر.. لا يمكن أن ينتج نسقاً أحادياً مضمراً كما أشار الغذامي، بل ان النسق الظاهر يتميز بالمخاتلة التي تفرض على المؤول الثقافي

---

(1) مقامات السرد والأنساق الثقافية، عبد الفتاح كليطو، ترجمة: عبد الكريم الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، 1983م: 8.

(2) النقد الثقافي، د. الغذامي: 79.

(3) ينظر: النقد الثقافي، د. سمير الخليل: 27.

التحصن بكفاءات وخبرات لفحص هذا النسق - ل - يكتشف أن النسق الظاهر ينتج سلسلة من الأنساق المضمرة اللا متناهية»[1].

2 - أن تقرأ النصوص على أنها حادثة ثقافية، أي ان التركيز يكون على الأنساق وخاصة المضمرة.

3 - للنسق دلالة مضمرة وهذه الدلالة ليست مصنوعة من من مؤلف ولكنها موجودة في الخطاب، فمؤلفها الثقافة ومستهلكوها الجماهير كتابا وقراءاً، يتساوى في ذلك الصغير مع الكبير والنساء مع الرجال والمهمش مع المسود.

4 - النسق ذو طبيعة سردية، يتحرك في حبكة مقنعة، لذا فهو خفي ومضمر وقادر على الاختفاء دائما، ويستخدم أقنعة كثيرة أهمها قناع الجمالية اللغوية[2].

وفي ضوء ما تقدم من مقاربات الحدود والمفاهيم وما أنتجته الثقافة وما يمكن أن تنتجه الدراسات الأدبية والثقافية في المدونتين الغربية والعربية، يتضح لنا أن النقد الثقافي هو فعالية أو نشاط وليس منهجا نمطيا، ومعنى النمط: ان تكون هناك قائمة بالمتغيرات، والبرهنة على أنها تمتاز بترابطات داخلية قوية أي منبنية وموزعة بطريقة غير عشوائية وتستعمل هذه الترابطات لتوزيع الأشياء المدروسة على أصناف[3]. وبالمقابل فأن الفعالية تكون غير مصنفة، وهي في النقد الثقافي تسمح

---

(1) الضغينة في قصيدتي الهجاء والمديح، د. يوسف عليمات، بحث نشر في المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، العدد 154: 3.

(2) ينظر: النقد الثقافي، د. الغذامي: ، 78، 77، 76.

(3) ينظر: المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، د. خليل أحمد خليل: 45.

بدخول معارف ونظريات من ميادين شتى، كما تستعين بالتقاليد والقيم والقوانين والمرجعيات الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية المتفاعلة مع المجتمع وذلك للكشف عن الأنساق المضمرة التي أنتجتها بيئات ومجتمعات معينة، والتي تحاول الثقافة تمريرها عبر طرق مختلفة كالمحاكاة أو التقليد أو التكرار أو الممارسات اللاشعورية، أو عبر كل خطاب جمالي أو إبداعي تختبئ تحته تلك الأنساق.

الفصل الأول

النسق الديني

المبحث الأول: أثر القرآن في الخطب (الأنساق الجمالية)

المبحث الثاني: أثر القرآن في الخطب (نسق الموضوعات)

المبحث الثالث: أثر النبوة في النسق

الفصل الأول

النسق الديني

المبحث الأول: أثر القرآن في الخطب (الأنساق الجمالية)

مدخل

إن تحليل الدين بوصفه نسقاً ثقافياً، يعني تحليل جوهر الإنسان وحقيقة وجوده، لأن الثقافة في أحدى تعريفاتها: «تجسيد لدين الشعب»[1]، والثقافة التي يكون الدين مَفصلاً من مفاصلها - تختلف من حيث التحضر والتوحش - عن الثقافة التي لا دين لها ولا شريعة تحكمها، «فالدين لم يكن في حياة العرب قديماً وحديثاً حالة هامشية في الحياة اليومية.. بل هو نشاط جوهري أساسي يسعى الفرد لتمثيل قيمه والمحافظة عليه، ورفض ما يتعارض معه فكراً وعملاً»[2]. من هنا كشفت لنا خطب نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنساقاً مهمة وخطيرة، كان للدين الأثر الكبير في إنتاجها، إذ كان عليه السلام

(1) الحضارة، حسين مؤنس: 325.

(2) تمثيلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي الوسيط)، نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان ط1، 2004 م: 102.

«يصدر عن رؤية كونية شاملة محاورها ثلاثة لا انفصال بينها هي: الله والعالم والإنسان»[1]. وهي ذاتها المحاور التي يعمل من أجلها الدين.

ولأن الإمام علياً عليه السلام هو تلميذ القرآن، ومنه ومن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ علومه الدينية والسياسية واللغة والأدب، كان دخول البحث من خلال هذين الركنين الأساسيين، فهما اللذان أثراً التأثير المباشر في ثقافة الإمام عليه السلام فاقتفى أثرهما في كل شيء ومن ذلك البلاغة في القرآن وجمال الألفاظ وحسن الصياغة، وجودة التركيب، وتناول أهم موضوعاته، وما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو: تربيته وعلمه وتفسير القرآن الكريم، وقصص الأنبياء عليهم السلام وهذا ما يحاول الباحث أن يسلط الضوء عليه في هذا الفصل من خلال خطب نهج البلاغة التي دلت على نسقاً دينياً مميزاً.

لقد اتفقت كلمة العلماء على أن القرآن الكريم هو أعلى مراتب الكلام العربي، بل هو المعجزة التي لا تدرك في أي زمان ومكان، كما يذكر ذلك الباقلاني (ت 403هـ) وهو من العلماء المشتغلين بإعجاز القرآن فيقول: «فأما دلالة القرآن فهي معجزة عامة عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة، على حدٍ واحد، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله، وجه دلالته، فيغني ذلك عن نظر مجدد في عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله»[2].

(1) المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، د. زكي نجيب محمود، دار الشروق، القاهرة: 30.

(2) إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم الباقلاني، (ت403هـ)، تح: أبو عبد الرحمن عويضة، دار الكتب العلمية، ، بيروت - لبنان، ط2، 2008 م: 9.

وفي تفصيل مزايا القرآن التي ظهرت في نظمه يقول عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ)، في كتابه القيّم (دلائل الإعجاز): «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم في مبادي آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وترهيب»[1].

ومع ذلك كله، فهو في غاية التلاؤم والانسجام، خال من التناقض والاختلاف في جميع سوره وآياته «وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك وأشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، واعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم - ولوحك بيافوخه السماء - موضع طمع حتى خرست الألسن أن تدعي وتقول»[2]، فإذا كانت تلك مزاياه، لم يبق لمتكلم أو بليغ عذر في أن يلتمس غيره، أو يطلب سواه، فقد «ذهب الكتاب مذاهب شتى في حديثهم عن النص القرآني، هذا النص

(1) دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (471هـ)، تح: د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، 2007م: 39.

(2) المصدر نفسه: 39.

ينظر: البرهان في علوم القرآن، بدرالدين بن عبد الله الزركشي، (ت 794هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005م: 23 - 24. وينظر: الإتقان في العلوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (ت911هـ)، تح: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2007م، 1: 9. ينظر: التحقيق في كلمات القرآن، مصطفوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2009م: 17.

العميق المثير الآسر، دفعهم ذلك إلى تلمس خاصية السحر والجمال في الكلام عموماً، شعراً كان هذا الكلام أم نثراً»[1].

وبالعودة إلى عصر صدر الإسلام، والحديث عن أوائل المتأثرين بالقرآن نجد أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان هو المشار إليه في تجسيده للقرآن قولاً وعملاً، يقول أبن أبي الحديد: «وأما قراءته للقرآن، واشتغاله به فهو المنظور إليه في هذا الباب، اتفق الكل على انه يحفظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يكن غيره يحفظه، ثم هو أول من جمعه»[2].

فقد كان لهذا الانسجام التام والاشتغال بالقرآن أثره في ثقافة الإمام عليه السلام، ومن ثم في ثقافة المجتمع الإسلامي، «إذ كان علي عليه السلام يخلط القرآن بذاته ويحوله إلى نفسه وفي حياته إلى منهج واقعي وثقافة متحركة»[3]، مما دعا الناس إلى أن يحفظوا كل ما يصدر عنه ثقة به، وإعجاباً بنهجه وطريقته، «والذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته، أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردونها على البديهة، وتداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً»[4].

---

(1) في حداثة النص الشعري (دراسة نقدية)، علي جعفر العلاق، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، ، 2003 م: 113.

(2) شرح نهج البلاغة، أبن أبي الحديد عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني المعتزلي، (ت656 هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، أنوار الهدى، إيران - قم، ط1، 1439هـ. 1: 70.

(3) الفلسفة والاعتزال في نهج البلاغة، قاسم حبيب جابر، دار ومكتبة البصائر، بيروت - لبنان، ط1، 2010م: 37.

(4) مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، (ت346هـ)، تح: أمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، لبنان، 1421 هـ/ 2000م) 2: 43. ينظر: علي

فكان ﷺ أنموذجاً ونسقا يهدف إليه القرآن، وفي هذا المبحث نعرض لأهم الآثار القرآنية في الخطب الواردة في نهج البلاغة من جهة الشكل والأنساق الجمالية، من صياغة وفنون بلاغية جاءت مساوقة للقرآن، فعلى الرغم من معرفة الإمام ﷺ بآداب العرب ولغتهم، بل قدرته على التمييز بين الجيد منها والرديء، وحفظه لأشعارهم، فإنه ترك ذلك مع رفعته وعظم قدره، وراح يؤسس لنسق جديد في الكلام متجاوزاً ما قاله المتكلمون والفحول من خطباء وشعراء العرب، رائده في ذلك القرآن الكريم، لتكون خطبه ﷺ طريقاً موصلاً بين القرآن ومن أراد أن يستقي منه، فكان بحق: «إمام الفصحاء، وسيد البلغاء وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين»[1].

إن الأثر القرآني في الأنساق الجمالية لخطب نهج البلاغة يمكن معرفته من خلال ثلاثة أنساق، تعد هي الأساس في إبراز شكل النص وجماله وهي:

1 - الألفاظ.

2 - البلاغة.

3 - الشاهد القرآني.

سلطة الحق، عزيز السيد جاسم، الغدير للطباعة والنشر، قم، ط1، 2007م: 534، 544.

(1) شرح نهج البلاغة، أبن أبي الحديد، 1: 67.

- ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، (ت 463 هـ)، تح: علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1422 هـ/ 2002 م، 3: 209.

- ينظر: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط17، 2007م، 3: 290.

أولاً: نسق الألفاظ، وهي على ثلاثة مستويات:

أ - نسق الحروف.

ب - نسق الكلمات.

ج - نسق الجمل.

أ - نسق الحروف

إن للحرف فضلا عن وظيفته اللفظية عملاً آخر، يبرز من خلال فاعليته في التشكيلات الإيقاعية، وذلك عن طريق تكراره، أو الإفادة من طاقة بعض الحروف، أو اعتماد الجمل البلاغية عليه، كالجناس والسجع وغيرها، وربما استعمل لأداء معنى أكبر من خلال إدخاله على الجمل، كما جاء ذلك في افتتاح القرآن بحرف (الباء) في «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وحاكى الإمام عليه السلام عناية القرآن بالحرف في كثير من خطبه، ولنا في ذلك مثالان: -

الأول: طاقة الحرف(1)

ففي القرآن الكريم أمثلة كثيرة على استغلال طاقة الحرف في إلقاء مزيد من الإيحاءات الإضافية، وتكوين أبنية خاصة تفيد في تقوية وتكثير المعنى كحرف (الطاء) مثلاً، في بعض الألفاظ مثل (اصطرخ، واصطنع، واصطفى، واصطلى، واصطاد، واضطر) وهو من حروف الإطباق التي تزيد الصوت تفخيماً فيزداد المعنى مبالغة وتهويلاً(2)، كما في قوله تعالى

---

(1) ينظر: مناهج البحث اللغوي، تمام حسان، دار الثقافة، القاهرة، 1979م: 116، وينظر: علم الأصوات اللغوية، مناف الموسوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2008م: 47 - 49.

(2) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة (دراسة في الشكل والمضمون)، د. عباس علي

مصوراً صراخ أهل النار من شدة العذاب: ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[1]، وفي آية أخرى، قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[2]، فأخذ الإمام عليه السلام من قوة هذه الحروف لزيادة المعنى كقوله عليه السلام في خطبة له: «ثم إن هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه واصطنعه على عينه»[3]، ليكشف عن عناية الله تعالى بدين الاسلام. وقوله عليه السلام: «قد اصطلحتم على الغل فيما بينكم»[4]، ويريد به ما انطوت عليه نفوس من يحدثهم على العصبية الجاهلية وتمكنها منهم.

ومن أمثلة تأثير طاقة الحرف في المعنى صيغة (مفتعل) بدلاً من (فعل)[5]، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[6]، ففي كلمة (مقتدرا) دلالة على التضخيم للأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة وغضب[7] وفي الخطب يقول الإمام عليه السلام

حسين الفحام، العتبة العلوية، العراق - النجف الاشرف، 2011 م: 60، 61. وينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، أنوار دجلة، بغداد: 16. وينظر: الصوت اللغوي في القرآن، د. محمد حسين الصغير، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2008م: 165، 166.

(1) سورة فاطر، الآية: 37.

(2) سورة النمل، الآية: 7.

(3) نهج البلاغة، خطبة 198: 395.

(4) نهج البلاغة، خطبة 133: 242.

(5) ينظر: أدب الكاتب: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، تح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1988م: 306.

(6) سورة الكهف، الآية: 45.

(7) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير أبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن

ناصحاً أصحابه: «**أَوَلَيْسَ لَكُمْ في آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ وَفِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ!**»[1]، فـ (مزدجر) أقوى معنىً وأكثر من (زجر) وأمثلة ذلك كثير في القرآن الكريم ونهج البلاغة.

الثاني: تكرار الحرف

من صيغ المبالغة في المعنى، زيادة مقاطع صوتية مكررة لها قوة وتأثير أكبر مما لو لم تتكرر كما في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾[2]. فان مجموعة الحروف المتكررة تشيع في النص حسا صوتيا مميزاً، ومن كلام للإمام عليه السلام يقول: «**وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ القِدْرِ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ، وَأَعْلَاكُمْ أَسْفَلَكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا**»[3]، إذ تعمل هذه الحروف المكررة - الباء واللام والسين - على إيجاد تنغيم يساعد على شد الوظيفة السمعية للتحول من خلالها إلى التعرف على الأبعاد الدلالية من الكلام، وهذا التكرار بوصفه ظاهرة متشعبة في النص السابق وسواه من نصوص نهج البلاغة، يوجد دفعا باتجاه تركيز الكلام حول الفكرة المراد إيصالها لأنه، «عنصر حيوي يحدث نوعا من التداعي الذهني عند القارئ وينبهه إلى المحور الخفي الذي تدور عليه الفكرة»[4]، وقد أكدت الدراسات الحديثة على أن تكرار

محمد الموصلي (ت637هـ) تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1939م، 2: 250.

(1) نهج البلاغة، خطبة 99: 181.

(2) سورة النور، الآية: 31.

(3) نهج البلاغة، خطبة 16: 44.

(4) النقد الأدبي الحديث في العراق، د. أحمد مطلوب، مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية، مطبعة الجيلاوي، 1968: 386.

الحرف من ابرز الظواهر الخالقة لشعرية الصوت لما يمتلكه من تنغيم مزدوج (داخلي وخارجي).

ب - نسق الكلمات المفردة.

لقد استعمل القرآن الكريم المفردات العربية القديمة نفسها التي كانت تستعمل في الأدب الجاهلي شعراً ونثراً، إلا أنها في القرآن اتخذ بعضها معاني إسلامية جديدة، وبقي الأخر على معانيه السابقة، وقد أضفى هذا الاستعمال على النص القرآني نسقاً جمالياً مميزاً «فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبد ته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمهم، واليها مفزع الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم»[(1)] ومن تلك الأنساق المميزة نسج الإمام علي عليه السلام خطبه، وفي شتى الموضوعات التي تناولتها تلك الخطب، لتكون نسقاً جمالياً جديداً، كان للكلمات دور فاعل فيها، وذلك من خلال طرق ثلاثة هي[(2)]:

1 - الاختيار.

2 - الاقتباس.

3 - النقل.

- بنظر: المفردات في غريب القران، الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد، (ت502)، تح: هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1428هـ - 2008م: 42.
- وينظر: المستويات الجمالية في نهج البلاغة (دراسة في شعرية النثر)، نوفل أبو رغيف دار الشؤون الثقافية العامة، العراق - بغداد - الاعظمية، ط1، 2008: 72.

(1) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: 9.

(2) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة، د. عباس علي حسين الفحام: 38.

1 - الاختيار:

من خلال استقراء نصوص الخطب في نهج البلاغة وجدناها حافلة بالمفردات الواردة في القرآن الكريم، ومقاربة لها في طريقة اختيار الألفاظ القادرة على الإحاطة بالمعنى أكثر من غيرها، فعلى سبيل المثال: استعمل القرآن لفظة (الصِّرَاطَ)، «والمراد طريق الحق وهو ملة الإسلام»[(1)] قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[(2)]، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(3)].

فقد استعملها الإمام عليه السلام بمعناها القرآني، وهو طريق الحق الموصل إلى الجنة، قال عليه السلام: «... **وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرَنٍ، وَكَأَنَّهَا قَد جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِراطِهَا**»[(4)]، واستعمل القرآن لفظ (السَّبِيلِ) للتضحية والجهاد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾[(5)]، ويقول الإمام عليه السلام: «**اللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[(6)]، وتضاف كلمة (السَّبِيلِ) في الغالب إلى ألفاظ الخير والتفاؤل مثل: (سبيل الرشد، سبيل الجنة، سبيل الحق، سبيل المنهج، سبيل مرضاته، سبيل الهدى، سبيل النجاة)[(7)] وقد يكون (السَّبِيلِ) تبعاً لمن يقصده، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ

---

(1) تفسير الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري، (ت538هـ/)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط2، 2001م: 58.

(2) سورة الفاتحة، الآية: 6.

(3) سورة البقرة، الآية: 142.

(4) نهج البلاغة، خطبة 190: 353.

(5) سورة البقرة، الآية: 154.

(6) نهج البلاغة، وصية رقم 47: 538.

(7) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة، د. عباس علي حسين الفحام: 46، 47.

ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1] وبهذا المفهوم استعمله الإمام عليه السلام: «اليَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الحَقِّ وَالباطِلِ»[2].

ومن الألفاظ التي استعملت في القرآن، بل اختصت به، ألفاظ العالم الآخر مع تعدد أسمائه مثل: (القيامة، والآخرة، والمعاد، والساعة، والبرزخ... الخ) قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾[3]، وقال عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[4]، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[5]، وقال عليه السلام: «فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طولِ الإِقَامَةِ»[6].

ومن ألفاظ يوم القيامة (الْمَعَادَ) التي استعملها القرآن للدلالة على عودة الخلق إلى الله تعالى، وقد استعملها الإمام عليه السلام للدلالة نفسها: «فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الآجَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأَمَلُ، وَيَرْهَقَهُمُ الأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ، فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَد أُوذِنْتُمْ مِنهَا بِالِارْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ»[7]،

(1) سورة الإنسان، الآية: 3.
(2) نهج البلاغة، خطبة 4: 35
(3) سورة الضحى، الآية: 4.
(4) نهج البلاغة، خطبة 42: 84.
(5) سورة المؤمنون، الآية: 100.
(6) نهج البلاغة، خطبة 222: 432.
(7) نهج البلاغة، خطبة 183: 335. - وينظر: الأثر الدلالي للقرآن الكريم في نهج البلاغة، أطروحة دكتوراه، هادي شندوخ حميد، جامعة البصرة، كلية الآداب، 2008م: 6.

وكثيراً ما تستعمل (السَّاعَةُ) للدلالة على القيامة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾[1]، واستعملها الإمام عليه السلام للتنبيه والتحذير في قوله عليه السلام: «**فإِنَّ الغَايَةَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ تَخَفَّفُوا تَلْحَقوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ**»[2].

ومن أسماء القيامة (الْبَعْث) ويراد به الإحياء من الله للموتى ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾[3]، وفي ذلك يقول الإمام عليه السلام: «**عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَاراً، وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَاراً وَمَقْبُوضُونَ احْتِضَاراً وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً وَكَائِنُون رُفَاتاً وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً، وَمَدِينُون جَزَاءً، وَمُمَيَّزُونَ حِسَاباً**»[4].

ويسمى يوم القيامة بـ (يَوْمِ الْجَمْعِ)، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾[5]، واستلهمه الإمام عليه السلام ووظفه في مجال التفخيم والشدة من هول ذلك اليوم: «**وَذلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ وَجَزَاءِ الأَعْمَالِ، خُضُوعاً، قِياماً، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ وَرَجَفَتْ بِهِمُ الأَرْضُ فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً**»[6].

ويسمى يوم القيامة بـ (يَوْمِ الْحِسَابِ)، قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 31.

(2) نهج البلاغة، خطبة 21: 51.

(3) سورة البقرة، الآية: 56.

(4) نهج البلاغة، خطبة 83: 124، 125.

(5) سورة التغابن، الآية: 9.

(6) نهج البلاغة، خطبة 102: 185.

لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[2]، واستعملها الإمام عليه السلام موظفاً إياها في دلالات مقصودة يبينها السياق قال عليه السلام: «**فَعَاوِدُوا الْكَرَّ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الأَعْقَابِ وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ، وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً**»[3]، دلت اللفظة على التوبيخ والتأنيب يقول ابن أبي الحديد في شرح هذا النص: «**عار في الأعقاب**» أي في الأولاد فإن الأبناء يعيرون بفرار الآباء. ثم قال: «**ونار يوم الحساب**» لأن الفرار من الزحف ذنب عظيم»[4]، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[5].

2 - الاقتباس

والاقتباس في خطب الإمام عليه السلام من القرآن الكريم كثير ومتنوع، ونجد ذلك واضحاً في قوله عليه السلام: «**فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّماوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ، دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلَا مُبْطِئَاتٍ، وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ، وَلَا مَسْكَناً لِمَلائِكَتِهِ، وَلَا مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ**»[6].

---

(1) سورة ص، الآية: 53.
(2) سورة ص، الآية: 26.
(3) شرح نهج البلاغة، أبن أبي الحديد: خطبة 66: 105.
(4) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 5: 192.
(5) سورة الأنفال، الآية: 16.
(6) نهج البلاغة، خطبة 182: 328.

ففي النص اقتباسات لألفاظ القرآن مثل (العمد، الكلم الطيب، العمل الصالح)[1]، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[3]، ومما يدل على تتبع الإمام عليه السلام لألفاظ القرآن واقتباسه منه ما يرد قليلاً أو لمرة واحدة كلفظة (التَّنَاوُشُ) التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾[4]، وهي هنا بعيدة التحقق، أو مستحيلة، بينما في الخطبة يكون التناوش متحققا، قال عليه السلام: «**لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُذّكرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**»[5]، ومن أمثلة الاقتباس لفظة (طُوبَى)، قال عليه السلام: «**فَطُوبَى لِذِي قَلْبٍ سَلِيم**»[6]، وفي القرآن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾[7].

واقتبس عليه السلام (**قَلْبٍ سَلِيم**) من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[8]، وهكذا نجده عليه السلام يوظف ألفاظ القرآن الكريم في خطبه، إما بمعان مطابقة، أو قريبة، أو مغايرة للقرآن، أو يجمع في خطبة واحدة ألفاظا متعددة من آيات مختلفة، وهذه إحدى مؤشرات القرآن في الخطب والتزام مبادئه العامة، ومعانيه الخاصة التي تحققها الألفاظ.

(1) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة، د. عباس علي الفحام: 75.
(2) سورة لقمان، الآية: 10.
(3) سورة فاطر، الآية: 10.
(4) سورة سبأ، الآية: 52.
(5) نهج البلاغة، خطبة 220: 425.
(6) المصدر نفسه، خطبة 214: 417.
(7) سورة الرعد، الآية: 29.
(8) سورة الشعراء، الآية: 89.
- ينظر: تفسير الأمثل، ناصر الشيرازي، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط2، 2009م، 1: 224.

3 - النقل:

ونقل مفردات النص القرآني إلى نص الخطبة في نهج البلاغة المقصود منه: «نقل اللفظة من محيطها القرآني التي هي فيه، إلى موقف فني آخر وتوظيفها وفق علاقات جديدة»[(1)]، مستثمراً ما لتلك اللفظة من زخم في المعنى أضافه عليها محيط النص القرآني من خلال انطباعها واستقرارها في الأذهان، فنرى استعمال بعض الألفاظ تبدو وكأن النص قريباً أو حاضراً بتمامه، كما في لفظة (سَرَابِيلَ) التي جاءت في قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾[(2)]، التي تشير إلى ثياب أهل النار، وهم في مقام الذم.

إلا أن الإمام عليه السلام استخدمها في مقام المدح لأصحابه عندما بعث بكتاب إلى معاوية مهدداً إياه: «**وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ**»[(3)]، إلا إن في كلمة - **سَرَابِيلَ** - إيماء بالغطاء الواسع والذي يكون علامة بارزة لمن كان يرتديه فشابهت من هذه الجهة جملة نهج البلاغة جمل القرآن الكريم على الرغم من استعمالها لغرضين مختلفين.

ت - نسق الجمل

امتاز التركيب القرآني للجمل، بجماله ودقة ربط المفردات بعضها مع بعض وكثافة معناها وخلوها من الضعف من مبتداها إلى منتهاها وهذه

---

(1) الأثر القرآني في نهج البلاغة، د. عباس الفحام: 78.
(2) سورة إبراهيم، الآية: 50.
(3) نهج البلاغة، من كتاب له عليه السلام إلى معاوية 28: 493.

إحدى سمات إعجازه، مما استدعى إلى وضع مصنفات في إعجاز القرآن من جهة التركيب، بدءاً من الجاحظ (ت 255هـ)، والرماني (ت 386هـ) والباقلاني (403هـ) والشريف الرضي (ت406هـ)، والسيد المرتضى (436هـ)، إلى أن جاءت نظرية النظم على يد عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) في (دلائل الإعجاز). وتركيب الجمل في خطب نهج البلاغة حاكى التركيب القرآني من طريق صياغة النص من الآيات القرآنية وهو نسق جديد في تركيب النص الأدبي، يعتمد على المزاوجة بين أجزاء من آيات القرآن الكريم وأجزاء أخرى من غيره، بحسب الموقف الفني الذي يتطلبه[1].

ولم تبرز هذه الطريقة مثلما برزت في خطب نهج البلاغة، ففي خطبة يصف الإمام عليه السلام فيها بيت الله الحرام يقول: «**ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عليه السلام وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ، تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ، وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ**»[2]، فهذه جمل معّدة من علاقات تركيبية قرآنية سابقة، فإن قوله عليه السلام: «**مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ**» هي إعادة بناء منقولة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[3]، وقوله عليه السلام: «**تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ**» مأخوذة من قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[4]، أما جملة «**مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِي**

(1) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة، د. عباس علي الفحام: 85، 86.
(2) نهج البلاغة، خطبة 192: 369.
(3) سورة البقرة، الآية: 125.
(4) سورة إبراهيم، الآية: 37.

فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ» فمأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(1)، وفي نص آخر من خطبة له عليه السلام يقول في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان: «**وَلَوْ فَكَّروا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، ولكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةٌ، وَالَابْصَارَ مَدْخُولَةٌ! أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ اللهُ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ**»(2). فقوله: «**لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ**، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»(3). وقوله: «**وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**» مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾(4). وقوله عليه السلام: «**أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ اللهُ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ**»، أخذه من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(5). وقوله: «**وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ**». مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾(6)، وهذا ما يبرز الأثر الكبير للقرآن الكريم في نفس الإمام عليه السلام وتشربه له.

---

(1) سورة الحج، الآية: 27.

(2) نهج البلاغة، خطبة 185: 339.

(3) سورة الأحقاف، الآية: 30.

(4) سورة البروج، الآية: 10.

(5) سورة الغاشية، الآية: 17.

(6) سورة المؤمنون، الآية: 78.

ثانياً: نسق البلاغة

1 - علم المعاني

كان للباحثين في علم البلاغة العربية منذ صدر الإسلام هدفان من البحث فيها هما: هدف خاص، وآخر عام، أما الهدف الخاص فكان هدفاً دينياً يرمي إلى معرفة إعجاز كتاب الله سبحانه، ومعرفة معجزة رسوله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم وكان أفصح من نطق بالضاد، وهو ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز بقوله: «**إن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، وهي أنه كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهياً إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب**»[1].

أما الهدف العام، فلم يكن يتعلق بغرض ديني، بل الاطلاع على أسرار البلاغة والفصاحة في غير القرآن من كلام العرب شعره ونثره، ذلك لأن من لا علم له بأوجه البلاغة يعجز عن التمييز بين الفصيح والأفصح والبليغ والأبلغ، وان أهم مباحث البلاغة التي تؤثر في الكلام هي مباحث علم المعاني، والتي تقوم على أمرين هما: مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطن التي يقال فيها، والأمر الآخر المعاني المستفادة من الكلام ضمناً بمعونة القرائن.

فالبلاغة هي فن مخاطبة كل إنسان على قدر استعداده في الفهم وحظه من اللغة والأدب[2]. وانقسمت مباحث علم المعاني إلى الخبر

---

(1) دلائل الإعجاز: عبد القاهرالجرجاني: 68.

(2) ينظر: علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006 م: 25.

والإنشاء واحوال الجملة (من تقديم وتأخير وفصل ووصل وايجاز واطناب وقصر)، والخبر له أغراض وأضرب ومؤكدات، والإنشاء يكون عن طريق الأمر والنهي والاستفهام، ولكل هذه المباحث تفصيلات أوضحها علماء البلاغة.

فمثلاً من مباحث علم المعاني (التقديم والتأخير) كتقديم المسند على المسند اليه سواء كان المسند مفرداً أو جملة أو شبه جملة، وهو في القرآن كثير، ويأتي في الغالب للاختصاص كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾[1] وفي خطب الإمام عليه السلام وجد هذا الأسلوب كقوله: «**وإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتي**»[2] وتقديم الجار والمجرور في قوله عليه السلام: «**إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً**»[3]، فهو هنا بالإضافة إلى الاختصاص استعمله الإمام عليه السلام للتوبيخ، فهو صاحب حق مضيع، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾[4].

ويتبع الإمام عليه السلام القرآن في تقديم المتعلقات أسلوبا ودلالة، فقدم الأفضل وهي (**السَّماوَاتِ**) على المفضول وهي (**الأَرْضِ**) في خطبة التوحيد إذ يقول عليه السلام: «**اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحُكِيمُ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**»[5] وهو أسلوب قرآني مطرد، وقد جاءت (**الأَرْضِ**) مقدمة في موضع واحد لأنه عليه السلام كان يتحدث عنها وعن أهلها مستنهضهم بقوله:

(1) سورة الغاشية، الآيتان: 25، 26.
(2) نهج البلاغة، خطبة 10: 39.
(3) نهج البلاغة، خطبة 34: 77.
(4) سورة الحجرات، الآية: 7.
(5) نهج البلاغة، خطبة 183: 336.

«اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ... فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ»[1]، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[2] [3].

ومن البلاغة (الحذف) وهو في القرآن كثير يقول الشريف الرضي في أماليه: «وفي القرآن من الحذوف العجيبة والاختصارات الفصيحة ما لا يوجد في شيء من الكلام»[4] والحذف من أدق الأساليب البلاغية كما يقول عبد القاهر الجرجاني: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن»[5]، وطرقه عديدة، كحذف الفاعل كما في قوله عليه السلام في خطبة الاستسقاء: «**نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ**»[6] فحذف الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه كره أن يضيف المنع إليه، وهو منبع النعم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[7]. ومن البلاغة (الاستفهام) وهو أسلوب يكثر مع الأفعال؛

---

(1) المصدر نفسه، خطبة 212: 414.

(2) سورة يونس، الآية: 61.

(3) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة، د. عباس علي الفحام: 99.

(4) الأمالي، الشريف المرتضى، (ت436هـ) تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان: 157.

(5) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني: 177.

(6) شرح نهج البلاغة، أبن أبي الحديد، خطبة: 114.

(7) سورة النساء، الآية: 28.

لأن الأفعال متغيرة ومتجددة، وهذا التغيير المستمر يجعلها محل التعرف وموطن الاستفهام، ولأن الإنكار والتعجب والتوبيخ مردها في الغالب إلى الأفعال لا إلى الذوات[1].

وهذا المعنى ما يذهب إليه النحاة في حقيقة أن الاستفهام حظه أن يكون مع الفعل لذا كثر تعلقه به، يقول سيبويه (ت 189هـ) «**حروف الاستفهام بنيت للفعل إلا إنهم قد توسعوا فيها فابتدعوا بعدها الأسماء والأصل غير ذلك**»[2]، من ذلك أساليب مثل الرؤية التي جاءت في أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[3]، واستعملها الإمام عليه السلام في مواطن عديدة، خصوصاً عند الوعظ والتنبيه، قال عليه السلام: «**أَوَلَيْسَ لَكُمْ في آثَارِ الأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ وَفِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ! أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَإِلَى الْخَلَفِ الباقِي لَا يَبْقَوْنَ ! أَوَلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُمْسُونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى؟**»[4].

وإن كثرة الاستفهام في مواعظ الإمام عليه السلام تضمر نسقاً للمجتمع الذي يخاطبه سماته الغفلة والمعارضة والإنكار، وغفلتهم عن الاعتبار بالأولين، ومعارضتهم للإمام عليه السلام، وإنكارهم للحقائق الثابتة.

---

(1) ينظر: أسلوب الاستفهام في القرآن، عبد الكريم محمود، دار المؤلف، دمشق، ط1، 2000م، 353.

(2) الكتاب، سيبويه، عمرو بن عثمان (ت180هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، بيروت - لبنان، : 51.

(3) سورة الرعد، الآية: 41.

(4) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، خطبة: 98.

2 - علم البيان

وكما أخذ الإمام عليه السلام كثيراً من علم المعاني الواردة في القرآن، أخذ منه علم البيان أيضاً، كالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية، فالتشبيهات كثيرة في القرآن، ولاسيما التمثيلية منها: «**لذا فأبين خصيصة يمتاز بها التشبيه القرآني عن غيره هي القدرة على رسم اللوحات بأسلوب التمثيل الفني على نمط جديد من العرض والمعالجة**»[(1)]، وإعطاء صور عديدة من خلال جملة واحدة كما يقول عبد القاهر الجرجاني: «**وإنه ليأتيك من الشيء الواحد أشياء عدة ويشتق من الأصل الواحد أغصاناً في كل غصن ثمر على حدة**»[(2)]، ومن ذلك قوله تعالى يصف فيها أعمال أهل الكفر: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[(3)] والتفت القدماء لتشبيه التمثيل، وقد عرفه الخطيب القزويني (ت 739 هـ) بأنه: «**ما وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين أو أمور**»[(4)].

والتشبيهات التمثيلية في خطب نهج البلاغة اعتمدت الطبيعة مادة لها

---

(1) الأثر القرآني في نهج البلاغة، د. عباس الفحام: 159.

(2) أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2001م: 103. وينظر: سر الفصاحة، ابو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجي الحلبي، (ت 466 هـ)، تح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي وأولاده، مصر، 1969 م: 97.

(3) سورة النور، الآيتان: 39، 40.

(4) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت739هـ) تح: محمد الفضلي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 2007م. : 243.

من بيئة ووسائل العيش كالرمال والإبل والخيمة، قال عليه السلام وهو يعظ الغافلين عن طاعة الله تعالى: «**مَالي أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعىً وبيّ، وَمَشْرَبٍ دَوِيّ وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا**»(1)، أخذ عليه السلام من القرآن الذي يُشبه الكافرين دائماً بالأنعام لضلالتهم كقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(2).

ومن البيان (الاستعارة) وهي: «**نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفصل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين العرض الذي هو فيه**»(3)، وجاءت الاستعارة وهي موحية بكثير من الصور، فمثلا ترى استعارات للحق والباطل وهما مجتمعان كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(4) فاستعير للحق القذف وللباطل الدفع فصور الحق كأنه حجر ثقيل يقول الزمخشري: «**واستعار لذلك القذف والدفع تصويراً لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه**»(5).

---

(1) نهج البلاغة: خطبة 175: 314، 315.

(2) سورة الفرقان، الآية: 44.

(3) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، تح: محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط1، 2006م: 24.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 18.

(5) الكشاف، الزمخشري، 3: 108.

واستعير للحق والباطل في النهج، قال عليه السلام: «**فَلأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ**»[1]، ومن أجمل استعارات الإمام عليه السلام كانت في وصفه للمتقين: «**وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم**»[2]، فجعل لجهنم زفيراً وشهيقاً كناية عن غضبها، وهو من قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾[3]، والشهيق الصوت المنبعث من القلب عند ضيقه، وجاء الزفير في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[4]، وهي كناية عن شدة الغضب. ومن البلاغة (المجاز)، قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾[5] أي ذكراً حسناً، أطلق اللسان وعبر به عن الذكر لأن اللسان آلة الذكر، واستعمل الإمام عليه السلام هذا المجاز بقوله: «**وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ في النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ المَالِ: يُورِثُهُ غيرَهُ**»[6]، ولسان الصدق هو الذكر الحسن بين الناس، ومن كلامه عليه السلام في وصفه للنبي صلى الله عليه وآله: «**كلامه بيان وصمته لسان**»[7] وقوله: «**لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه**»[8] وكلها يراد بها المجاز لا الحقيقة.

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 33: 74.
(2) المصدر نفسه، خطبة 193: 382.
(3) سورة الملك، الآية: 7.
(4) سورة الفرقان، الآية: 12.
(5) سورة الشعراء، الآية: 84.
(6) شرح نهج البلاغة، أبن أبي الحديد، خطبة: 23.
(7) نهج البلاغة، خطبة 96: 176.
(8) المصدر نفسه، حكمة 40: 608.

ثالثاً: نسق الشاهد القرآني

يزداد الكلام العربي جمالاً وبلاغة، إذا تخللته آيات القرآن الكريم، بل يكسبه قوة التأثير في سامعيه، ذلك لما يمتلكه النص القرآني من سلطة ذاتية على النفوس، ولما يمتلكه من تفرد في التعبير وجمالية في البيان على اختلاف موضوعاته، وهو نص مفتوح على دلالات غير محددة تستوعب الزمان والمكان «**فالنص الذي ينحدر مع كل قراءة ويستطيع عبور الأزمنة والأمكنة فهو قادر على طرح قراءات متعددة**»[1]، وتبرز هذه الجمالية والتأثير من النص القرآني في فن الخطابة، لاستعداد المتلقي لذلك، يقول الجاحظ: «**وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمعة آيٍ من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع**»[2].

وفي خطب نهج البلاغة البالغ عددها (243) خطبة بلغ عدد الآيات القرآنية التي استشهد فيها الإمام (55) آية - فضلا عن المعاني القرآنية - وهو حضور قرآني فاعل، مما يحتم علينا الوقوف عنده والنظر فيه، والأسباب التي دعت إلى ذلك، والتي منها:

1 - حضور القرآن روحياً في نفس الإمام عليه السلام، حتى أصبح ملكة يتحدث به على البديهة.

2 - التأكيد المتواصل من الإمام عليه السلام للتمسك بالقرآن، في خطبه

(1) نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، حسين خمري، منشورات الاختلاف، الجزائر - بيروت لبنان، ط1، 2007م: 41.
- ينظر أطروحة دكتوراه: الأثر الدلالي للقرآن الكريم في نهج البلاغة.

(2) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ)، تح: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 2002م: 1: 118.

وسائر وصاياه، إذ يقول: «**اللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ، لَا يَسْبِقْكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ...**»[1]، فأراد أن يثبت ذلك عملياً، ويظهر تمسكه بالقرآن من خلال الاستشهاد بآياته الكريمة.

3 - إن ثقافة الإمام عليه السلام قرآنية بالدرجة الأولى، إضافة إلى ما أخذه وفهمه من السنة النبوية الشريفة، أما الشعر العربي فكان الاستشهاد به قليلاً، انحصر بالحكمة والموعظة.

4 - سعي الإمام عليه السلام لإيجاد نسق جديد في الخطاب يتضمن آيات القرآن، بدلاً من النسق السائد آنذاك في الاستشهاد بالشعر ولاسيما الجاهلي.

5 - استحسان المتلقين للخطب المتضمنة آيات القرآن.

6 - قدرة الآيات القرآنية على إيصال المعاني والأفكار التي يلقيها الخطيب، وبألفاظ جميلة وشاملة لجميع الموضوعات. يقول عليه السلام: «**... والله سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[2]، وَفِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ**»[3].

وقد تعددت وظائف الآيات القرآنية في الخطاب بحسب المقام والمناسبة والأغراض التي يهدف إليها الإمام عليه السلام في كل خطبة فمنها:

1 - آيات تجري مجرى الأمثال:

فالمثل ظاهرة أدبية اجتماعية، وهو من أقدم فنون النثر الأدبي إذ كان مشهوراً في الجاهلية، وللأمثال أثرها في نفوس مستمعيها لما تختزله من

(1) نهج البلاغة: من وصية له عليه السلام 47: 538.

(2) سورة الأنعام، الآية: 38.

(3) نهج البلاغة: خطبة 18.

تجارب في عبارات يسيرة متداولة، يقول أبو هلال العسكري (ت395هـ): «**لما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام وتدخل في جل أساليب القول. أخرجوها من أجّل الكلام وأنبله وأشرفه وأفضله، لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ويسر مؤنتها على المتكلم مع كبير غايتها وجسيم عائدتها ومن عجائبها إنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب**»[1]، وإخراجها من القرآن الكريم دليل على براعة مخرجها وعلمه بالقرآن وبحياة الناس وكلام العرب، كما في خطبة له عليه السلام وهو يعظ الناس: «**فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾**»[2] [3]، فجاء بالآية القرآنية مثلاً، إذا لا يخبر بالأمور على حقيقتها إلا الخبير وهو الله تعالى، ووظفها الإمام عليه السلام في كلامه ليخبر سامعيه بأنه هو العالم بأمورهم وأحوالهم وما تؤول إليه، خبر يقين لا شك فيه[4].

---

(1) جمهرة الأمثال، أبوهلال العسكري (ت395هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الجديدة، القاهرة: 10.
- ينظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي (ت911هـ)، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي، مصر: 1: 486. ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، (ت710هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط5، 2009م، 1: 139. ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين الصغير، دار الهادي، بيروت - لبنان، ط1، 2008م: 51.

(2) سورة فاطر، الآية: 14.

(3) نهج البلاغة، خطبة 153: 268.

(4) ينظر المثل في نهج البلاغة، عبد الهادي عبدالرحمن، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد - العراق، ط1، 2012م: 36.

2 - تعريف المفاهيم عن طريق الآية القرآنية:

فقد عرف الإمام عليه السلام الزهد لما سئل عنه عن طريق آية قرآنية، قال: «**الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾**»[1] [2]، فأزاح كثيراً من الشبهات حول هذا الموضوع الذي وصل بالبعض إلى جعل الزهد كالرهبانية.

3 - تعظيم الله تعالى والتحذير من الشرك به:

ففي خطبة له عليه السلام يبين فيها أنواع الظلم يقول: «**أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ، وظُلْمٌ مَغْفُورٌ فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[3]، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً**»[4]، فلما ذكر عليه السلام أنواع الظلم، ومنه الشرك بالله تعالى، وهو أعظمها لتعلقه به تعالى، والحكم عليه شديد لا رجعة فيه استشهد بالآية على الحكم تهويلاً للأمر وتشديداً في التحذير وتمييزاً عن باقي الذنوب.

4 - الاستشهاد بالآيات في مواقف الاحتجاج:

وذلك في رده دعوة الخوارج، عندما رفضوا التحكيم ورفعوا شعار «**لا حكم إلا لله، الحكم لله يا علي لا لك**»[5]، واستشهد بالآية على

---

(1) سورة الحديد، الآية: 23.

(2) نهج البلاغة، شرح محمد عبده: 724.

(3) سورة النساء، الآية: 48.

(4) نهج البلاغة: خطبة: 176: 320.

(5) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 2: 288.

الرجوع إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، واليه في مضمر كلامه قال عليه السلام: «**إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. وهذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ، سبحانه وتعالى وقد قال الله سبحانه:** ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾»[1] [2]. وفي الجهاد والتوبة والحج وموضوعات شتى ذكر فيها الإمام عليه السلام آيات القرآن، وهي طريقة استعملها بعده الخطباء إلى يومنا هذا.

(1) سورة النساء، الآية: 59.

(2) نهج البلاغة، خطبة 125: 229، 230.

المبحث الثاني: اثر القرآن في الخطب (نسق الموضوعات)

إن الموضوعات في القرآن الكريم كثيرة وواسعة، تنسجم والرسالة التي جاء بها النبي محمد ﷺ والأهداف التي أريد لها أن تتحقق من خلالها، وهي تامة قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(1) وهي تتسع لكل زمان ومكان، وفي البحث عن العلاقة بين موضوعات القرآن الكريم ومضامينه من جهة وخطب نهج البلاغة من جهة أخرى، نجد أنها علاقة وثيقة سعى الإمام عليه السلام إلى كشفها وبثها في النفوس من خلال تفسيرها وشرح معانيها وبيان الغامض منها، وهي موضوعات عامة لا تتعلق بفئة دون أخرى.

«**فليس لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب موقف ضيق منطو على تجربة محدودة تموت بموت صاحبها، بل كل تجاربه الشخصية منطلقة من المفهوم القرآني للحياة**»(2)، بل مع القراءات المتعددة لخطب الإمام عليه السلام سنجدها مليئة بالحرص والأمانة على نقل ما في القرآن من مضامين إلى الناس، كالتوحيد وتقوى الله والعبادة وتهذيب النفس والحكمة والموعظة والجهاد في سبيل الله وخلق الإنسان والاعتبار بقصص الأنبياء والأولين،

---

(1) سورة المائدة، الآية: 3.

(2) الأثر القرآني في نهج البلاغة، عباس الفحام: 284.

وقد تأتي الخطبة في نهج البلاغة بموضوع واحد أو عدة موضوعات، ويمكن أن نجعل لتلك الموضوعات عنوانات تشملها بحسب أهميتها وتعدد ذكرها وارتباطها بالقرآن، وأرى أنها أربعة:

1 - التوحيد ونسق العبادة.

2 - قدرة الله سبحانه في الخلق.

3 - المواعظ والحكم.

4 - الجهاد في سبيل الله.

وتحت هذه العنوانات الرئيسية تدخل موضوعات فرعية كثيرة.

أولاً: التوحيد ونسق العبادة

إن أول ما واجهته الدعوة الإسلامية من صعوبات في بداية مسيرتها، هو إنكار وحدانية الله سبحانه وتعالى، فبعد ما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]، ولما أراد النبي ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه إلى قومه، اجتمع رهط من قريش ودخلوا على أبي طالب وفيهم (أبو جهل)، وشكوا له رسول الله ﷺ، «**فقال له أبو طالب: أي ابن أخي! ما بال قومك يشكونك... فقال يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة... فقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا بن أخي؟ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قال: فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾**»[2] [3].

(1) سورة الشعراء، الآية: 214.

(2) سورة ص، الآية: 5.

(3) تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، إحياء التراث العربي بيروت - . لبنان، ط1، 2008 م: 2: 206.

لذا كثرت في القرآن الآيات التي تدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، بل جعل التوحيد أول أصول الدين، وأدرك الإمام عليه السلام هذا الأصل، فعرف ما يريده الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله، وفي الوقت نفسه عرف ما يريده الناس وما يفكرون به، وما هي عبادتهم ونظرتهم للإله قبل الإسلام، والشبهات التي وقعوا فيها بعد الإسلام، لذا تصدرت خطبه الحديث عن هذا الأصل - التوحيد - وبأسلوب دقيق وواضح يسهل فهمه، كشفت عن وعي الإمام عليه السلام بالدين بصورة عامة وبالتوحيد بصورة خاصة، نافياً عن الله تعالى ما الحق به من صفات وتشبيهات وتصورات نزهه عنها القرآن الكريم إذ قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

وفي ذلك يقول عليه السلام: «**أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَد جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ**»[2]، فباستثناء رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يسبق الإمام أحد في إعطاء التوحيد حقه كما فعل هو في هذه الخطبة، على أن في النص إشارات لنسق مضمر يستهدف ثقافة من كان يخاطبهم، ومعرفتهم الساذجة برب العالمين، إذ كانت عقولهم محدودة، وأفكارهم ضيقة في ذلك، لم يعرفوا إلا التقليد الأعمى.

---

(1) سورة الشورى، الآية: 11.

(2) نهج البلاغة: خطبة 1: 18.

لذا يقول ابن أبي الحديد في سبب ذكر الإمام عليه السلام: «**أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ**» «**لأن التقليد باطل**»[1] فهم ورثوا تلك العبادة الخاطئة من آبائهم وأجدادهم، فكان ذلك عائقاً لإتباع ما أنزل الله تعالى، كما أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2].

وفي خطبة أخرى يبين الإمام عليه السلام قدرة الله تعالى المطلقة وهو كما وصف نفسه تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[3] يقول الإمام عليه السلام: «**أَنْشَأَ الخَلْقَ إِنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا وَلَا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا، وَلَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا...**»[4] والتمس الإمام عليه السلام في تقريب المفاهيم إلى الأذهان أمثلة حسية، وصوراً من واقع المجتمع الذي يخاطبه، فخطب عن الحج الذي لم يكن غريباً عنهم، وهم يطوفون حول البيت الحرام الذي كان أقدس شيء عندهم فقال عليه السلام: «**وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ... يُحْرِزُونَ الأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ**»[5].

فذكرهم الإمام عليه السلام بتجارتهم ووفودهم إلى مكة وإلى البيت الحرام

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد 1: 122.

(2) سورة البقرة، الآية: 170، ينظر: الكشاف: 1: 239، وينظر: - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، محمد بن عمر بن الحسين الرازي دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط3، 2009م: م3: 70 وينظر: الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي، تحقيق: أياد باقر سلمان، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 2006م، 1: 349.

(3) سورة يس، الآية: 82.

(4) نهج البلاغة، خطبة 1: 18.

(5) نهج البلاغة، خطبة 1: 24.

للتجارة، فوضع لها تجارة أخرى وهي الأيمان بالله تعالى، وقد نبههم الله تعالى في كتابه قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[1].

أراد الإمام عليه السلام أن يكون وفودهم إلى مكة في كل عام للتجارة مع الله تعالى بإيمانهم به وبرسوله صلى الله عليه وآله، لا لجمع المال والمفاخرة بها وبأنفسهم، بل يبدلونها بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. أما العبادة فقد وردت كثيراً في الخطب بمعناها العام، أي فهمهم للعبادة، لا العبادة التي تشتمل على الحركات والأفعال فإن ذلك يبحث في الفقه، أما في الخطابة فنحن بأزاء نص أدبي وخطاب عام يلقى للجمهور في محافلهم.

فتحدث الإمام عليه السلام عن علاقة الإنسان بربه وإلى أي مدى تكون تلك العبادة خالصة لله لذا يجعلها الإمام عليه السلام درجات ثلاث: إما عبادة أحرار وإما عبادة تجار وإما عبادة عبيد، فيقول عليه السلام: «**إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ**»[2]، فهي إما عبادة تامة وإما ناقصة، فالتامة عبادة الأحرار والناقصة ما كانت رغبة أو رهبة، وفي خطبة أخرى يتضح هذا المعنى أكثر بقوله عليه السلام: «**لا يصدق ايمان عبد حتى يكون بما يد في الله أوثق منه بما في يده**»[3]، وفي

(1) سورة الصف، الآيتان: 10، 11.
(2) نهج البلاغة، حكمة 238: 645.
(3) المصدر نفسه، حكمة 310: 664.

النصين إضمار لحال الناس آنذاك إذ هم: إما تحركهم الأطماع أو ترغمهم المخاوف، ونفر ثالث مع الحق في إشارة إلى نفسه. ومن هم على طريقته من الأصحاب في خلوص عبادتهم لله سبحانه.

وفي خطبة ثالثة تضمر عبادته عليه السلام وأنه على طريقة الأنبياء وشبيه بالملائكة إذ يقول عليه السلام: «**وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كلمته، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ**»[1]، فقد فهم عليه السلام العبادة التي يريدها الله تعالى من عباده وفهمها للناس، كما حصل له مع رجل يقال له: عاصم بن زياد الذي رآه الإمام عليه السلام في حالة من التصوف والانعزال فقال له: «**يا عُدَيّ نفسه لقد استهام بك الخبيث أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحل لك الطيبات، وهو يكره أن تأخذها، أنت أهون على الله من ذلك**» فقال عاصم: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك! فقال عليه السلام: «**ويحك أني لست كأنت، إن الله تعالى فرض على أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ!**»[2]، فكانت كلماته تفصح عن طاعته وعبادته، وبها يهتدي الناس إلى طاعة الله وعبادته.

ثانياً – قدرة الله سبحانه في الخلق

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن عظمة الله سبحانه وقدرته على الخلق، وبقدر اهتمام القرآن بذلك جاءت خطب الإمام عليه السلام فقال: «**أَنْشَأَ الخَلْقَ إِنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا وَلَا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا... ثُمَّ أَنْشَأَ – سُبْحَانَهُ – فَتْقَ الأَجْوَاءِ، وَشَقَّ**

(1) نهج البلاغة، خطبة 1: 25.

(2) المصدر نفسه، خطبة209: 408.

الأَرْجَاءِ، وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ، فَأَجازَ فِيهَا مَاءً مُتَلاطِماً تَيَّارُهُ، مُتَراكِماً زَخَّارُهُ حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ...»[1].

ففي هذه الخطبة يذكر عليه السلام بداية خلق المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]، ويذكر الإمام الرياح التي تحمل السحاب ليكون مطراً تحيا به الأرض الميتة ويسقى به الزرع قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

وأخذ الإمام عليه السلام من حديث القرآن عن البحر والقصص التي دارت فيه الاسباب التي خلق الله سبحانه منها البحر فقال: «**ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا وَأَدَامَ مُرَبَّهَا وَأَعْصَفَ مَجْرَاها، وَأَبْعَدَ مَنْشَاهَا، فَأَمَرَها بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ...**»[4]، فاستدل الإمام عليه السلام على حركة الكون من خلال حديث القرآن الكريم عنه قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[5].

---

(1) المصدر نفسه، خطبة 1: 18، 19.

(2) سورة الروم، الآية: 27.

(3) سورة الأعراف، الآية: 57.

(4) نهج البلاغة، خطبة 1: 19.

(5) سورة يونس، الآية: 22.

وقد يذكر الإمام عليه السلام كلاماً يتضمن تفصيلاً لما أجمله القرآن في ذكر المخلوقات كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[1] ففصل الإمام عليه السلام بعد أن ذكر الماء والبحر والهواء قدرة الله تعالى في خلق السماوات وزينتها فقال: «**فَسَوَّى مِنْهُ - أي من موج البحر - سَبْعَ سَموَاتٍ، جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَسَمْكاً مَرْفُوعاً، بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا، وَلا دِسَارٍ يَنْظِمُها. ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ وَأَجْرَى فِيها سِرَاجاً مُسْتَطِيراً، وَقَمَراً مُنِيراً: في فَلَكٍ دَائِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ**»[2].

ومما يرد كثيراً في القرآن ذكر (**الْمَلَائِكَةِ**) إلا أنه لم يفصل سبحانه عن هذه المخلوقات، وقد تدعو الإنسان غريزته وحبه لاستكشاف العوالم الأخرى إلى السؤال عنها، خاصة إذا كان الأمر قد تعلق به، كما في قوله تعالى عندما أراد الله سبحانه استخلاف الإنسان في الأرض فخاطب الملائكة في هذا الأمر ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

فيأتي التعريف من الإمام عليه السلام بالملائكة في خطبة له قال فيها: «**ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمواتِ العُلَا، فَمَلأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلائِكَتِهِ: مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ، وَصَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ العُيُونِ، وَلَا سَهْوُ العُقُولِ، وَلَا فَتْرَةُ الأَبْدَانِ،**

(1) سورة ق، الآية: 6.
(2) نهج البلاغة، خطبة 1: 19، 20.
(3) سورة البقرة، الآية: 30.

ولَا غَفْلَةُ النِّسْيَانِ. وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ، وأَلسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ. وَمِنْهُمُ الحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، وَالسَّدَنَةُ لأَبْوَابِ جِنَانِهِ. وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ في الأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَالمَارِقَةُ مِنَ السَّماءِ العُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، والخَارِجَةُ مِنَ الأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَالمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ العَرْشِ أَكْتَافُهُمْ»[1].

وفي ذكر هذا التفصيل من الإمام عليه السلام إضمار للإنسان الذي كرمه الله سبحانه بأن جعله خليفته في أرضه مع أنه لا يعمل ما تعمله الملائكة من الطاعة والعبادة لله سبحانه، فالإنسان ينام ويغفل ولا يؤدي حق العبادة والطاعة لله سبحانه، ومع ذلك يفضله الله سبحانه على سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[2].

ثم يذكر عليه السلام خلق الإنسان قال: **«ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا تُرْبَةً سَنَّهَا بالمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلَاطَهَا بِالبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ فَجَبَلَ مِنْها صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ وَوُصُولٍ، وَأَعْضَاءٍ وَفُصُولٍ: أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَجَلٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْساناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا** ثم قال عليه السلام... **وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ المَلائكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، في الإِذْعَانِ بالسُّجُودِ لَهُ، وَالخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ...»**[3].

فهو عليه السلام وان كان يتحدث عن أصل خلقة الإنسان والملائكة لكن

(1) نهج البلاغة، خطبة 1: 20.
(2) سورة الإسراء، الآية: 70.
(3) نهج البلاغة، خطبة 1: 21.

على الإنسان أن يتفكر في نفسه ولا يتكبر عن عبادة الله سبحانه، وفي خطبة أخرى يصرح الإمام عليه السلام بغرور الإنسان بنفسه وذلك عندما تلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾[1] فقال عليه السلام: «**فَتَعَالى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرِفَ عَيْنٍ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ! وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ هذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الأَخْلاَقِ، وَمَسَاوِىءِ الأَعْمَالِ**»[2].

إن هذا التأنيب منه عليه السلام يأتي مساوقاً لآيات القرآن الكريم في تمادي الإنسان في غيه وتحديه لخالقه قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[3] فيورد الإمام عليه السلام ذكر المخلوقات لنفس الأسباب التي يريدها القرآن الكريم من بيان عظمة الله سبحانه، وإرشاد الإنسان للعلم سواء بنفسه أو بما حوله، إذ العلم من أولويات القرآن التي أمر بها الله سبحانه الإنسان. لذا كانت أول كلمة نزلت من السماء إلى الأرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي (اقْرَأْ) التي يقول العلماء عنها، لو كانت كلمة أعظم وأعز وأكرم على الله من هذه الكلمة لذكرت، في أول خطاب من السماء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي بعد

---

(1) سورة الانفطار، الآيات: 6 - 8.

(2) نهج البلاغة، خطبة 223: 435.

(3) سورة يس، الآية: 77.

تحمل معها معنى دقيقاً عن خلق الإنسان والارتقاء بنفسه إذ قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾(1).

فمع أن الإنسان مخلوق من (النطفة) التي هي أخس الأشياء والتي عبر عنها القرآن بـ ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾(2)، إلا أنه أكرم بإعطائه العلم لترتفع درجته ومنزلته، لذا أكد الإمام عليه السلام في خطبه على العلم والعلماء فقال: **«الْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَى بِالْمَرءِ جَهْلاً أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ؛ وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ لَعَبْدٌ وَكَّلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ، جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، سَائِرٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ، إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ، أَوْ إِلَى حَرْثِ الآخِرَةِ كَسِلَ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ مَا وَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ!»**(3).

فقد كان عليه السلام يدعو أهل بيته وأصحابه للعلم ومدارسته، ومن أبلغ ما قيل في هذا الباب هو نصيحة الإمام عليه السلام إلى كميل بن زياد إذ قال: **«يَا كُمَيْلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ: الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ. يَا كُمَيْل بْن زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ محكوم عليه. يَا كُمَيْل، هَلَكَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ»**(4).

---

(1) سورة العلق، الآيات: 1 - 5.

(2) سورة السجدة، الآية: 8.

(3) نهج البلاغة، خطبة 103: 187.

(4) المصدر نفسه، حكمة 147: 629، 630.

مراحل خلقة الإنسان

وفي نسق واضح مع آيات الكتاب العزيز يأتي خطاب الإمام عليه السلام ليكشف بالأدلة الدامغة على قدرة الله سبحانه العظيمة وعجز الإنسان ومحدوديته في نفس الوقت، ذلك عندما تحدث القرآن الكريم عن مراحل خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[1].

فيأخذ الإمام عليه السلام هذه الآية ليصوغ منها خطبته إلا أنه يفترق عن الآية في اختتام الخطبة بغير ما ختمت به في القرآن، فقال: «**أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الأَسْتَارِ، بُدِئْتَ** ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[2]، **وَوُضِعْتَ** ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (21) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (22)﴾[3] **وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ، تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لَا تُحِيرُ دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا؛ فَمَنْ هَدَاكَ لِاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ؟ وَعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ؟! هَيْهَاتَ، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ**»[4].

---

(1) سورة الحج، الآية: 5.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 12.

(3) سورة المرسلات، الآيتان: 21، 22.

(4) نهج البلاغة، خطبة 163: 291.

فالإمام عليه السلام توقف عند قدرة الله سبحانه في خلق الإنسان، بينما الآية استرسلت في ذكر قدرته على خلق غير الإنسان وهو النبات فعندما ذكر الله سبحانه نهايات الإنسان ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾[1] انتقلت مباشرة إلى خلق آخر بالعطف فقالت: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[2].

أما الإمام عليه السلام فأراد في خطبته لوازم وتفصيلات قدرة خلق الإنسان فوجه له سؤالاً، ليقر بعجزه والإقرار بعظمة الباري سبحانه فقال: «**فَمَنْ هَدَاكَ لِاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ؟**» فإذا عجز عن معرفة الصفات المختصة به، فهو عن معرفة صفات الله أعجز، ويضمر هذا الكلام من الإمام عليه السلام عمق تبحره في القرآن، وتدبر آياته، ودعوته إلى الوقوف عندها من قبل الناس ليهتدوا إلى قدرة الله سبحانه من خلالها، ومن خلال ما أودعه في نفوسهم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[3].

وفي خطبة له عليه السلام يصف بها الأرض ودحوها على الماء يقول عليه السلام: «**كَبَسَ الأَرْضَ عَلى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أمْوَاجِهَا، وَتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِها وَتَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا، فَخَضَعَ جِمَاحُ الْمَاءِ الْمُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَكَنَ هَيْجُ**

---

(1) سورة الحج، الآية: 5.
(2) سورة الحج، الآية: 5.
(3) سورة فصلت، الآية: 53.

ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً إِذْ تَمعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ، سَاجِياً مَقْهُوراً، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً، وَسَكَنَتِ الأَرْضُ مَدْحُوَّةً»[1].

فخص الأرض بكلامه بمعزل عن السماوات، على خلاف طريقة القرآن في ذكرهما معاً، وذلك لأنه يريد أن يتحدث عن أصل خلقة الأرض وما يتفرع عنها من عيون وأنهار، ومع ذلك فان اهتمامه بالأرض يأتي من اهتمام القرآن بذكرها إذ وردت كلمة الأرض فيه ما يقرب من (370) مرة، وما نلحظه في هذه الخطبة هو استعارات الإمام عليه السلام لألفاظ متداولة عند العرب ومن بيئتهم، وأكثر استعمالهم لها في الحيوان مثل (مستفحلة - الفحول - هياجها - وطئته - كلكلها - تمعكت - ترغو)، والسبب أن الإمام عليه السلام في مقام البيان، وهذا ما يضمر أنه عليه السلام في الوقت الذي يفهم به أسرار الكون، فهو قادر على إفهامها للناس بحسب مقتضى حالهم إذ أن مثل هذه العلوم والأسرار العجيبة في الكون يصعب فهمها، فضلاً عن إفهام الغير بها.

وفي خطبة مشتملة على كثير من مخلوقات الله سبحانه يذكرها بعد ما ذكر خلق الحيوان - الذي سنفرد له مبحثاً خاصاً في الفصل الثالث - قال: **«وَكَذلِكَ السَّماءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَاحُ وَالْمَاءُ. فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هذِهِ الْقِلَالِ، وَتَفَرُّقِ هذِهِ اللُّغَاتِ، والألسن الْمُخْتَلِفَاتِ. فَالوَيْلُ لِمَنْ جَحَدَ الْمُقَدِّرَ، وَأَنْكَرَ الْمُدَبِّرَ! زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ**

(1) نهج البلاغة، خطبة 91: 160.

صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيما ادَّعَوا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِن غَيْرِ جَانٍ؟!»[1]، فعدد هذه المخلوقات والتي ورد ذكرها جميعاً في القرآن في كثير من آياته، ويضمر من وراء ذكرها، أن الناس كانت تنكر أو تجهل الخالق سبحانه، المقدر لهذه المخلوقات ووجودها من غير دليل ولا تحقيق، ثم يعزز كلامه بطريقة السؤال فقال: «**وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِن غَيْرِ جَانٍ؟!**»[2].

ومما تقدم يمكن أن نوجز بأن الخطب في نهج البلاغة ذكرت معظم مخلوقات الله تعالى إن لم يكن جميعها حتى يعد ذلك نسقاً من أنساق الكتاب البارزة، وهي في نفس الوقت مساوقة لذكرها في القرآن، تناولها الإمام عليه السلام لبيان عظمة الله سبحانه وقدرته عن طريق التعليل والتحليل والتفسير أو ربطها بحياة الإنسان اليومية وما يحيط به مما يشعر به ويحسه كي يسهل فهمها من قبل الناس إذ هي الغاية من ذكرها في الخطب.

ثالثاً: المواعظ والحكم

لا يختلف اثنان ممن قرأ كتاب نهج البلاغة على انه كتاب موعظة بشكل عام، أما بخصوص خطبه فقد بلغت (86) خطبة تقريباً تختص بالموعظة، فتكون بذلك أكبر أبوابه وأوسعها، وتستغرق بمجملها نصف الكتاب، وتختلف الخطب بحجمها وبحسب مأوردها الشريف الرضي في نهج البلاغة، فمنها قصيرة لا تتعدى السطرين كالخطبة (21)، ومنها متوسطة الحجم وهي الأكثر في الكتاب وثلاث خطب طويلة كالخطبة (174) و(190) و(191)، وأما مواضيعها فمختلفة ومتنوعة فقد تحدثت

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 185: 340، 341.

عن: التقوى والتوكل، والصبر، والزهد، والتحذير من الاغترار بالدنيا، وهوى النفس وطول الأمل، والعصبية، والجور والظلم، والتفرقة، والترغيب في الإحسان والمحبة، ونصرة المظلومين، وحماية الضعفاء والمساكين، والمروءة، والشجاعة والوحدة، والعبرة، والمحاسبة والمراقبة، واغتنام العمر، وتذكر الموت، وما بعده، وأهوال يوم القيامة...[1].

ومن خطب المواعظ القصيرة جداً قوله عليه السلام: «**فَإِنَّ الغَايَةَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ، تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ**»[2]، فهذه الكلمات على قلتها إلا أن فيها من معاني القرآن كثير تشير إلى مصير الإنسان منذ خلقه إلى منتهاه وفيها النصيحة لما يجب على الإنسان أن يعمله في هذه الحياة الدنيا من أجل الفوز بالجنة، وفيها إشارة واضحة إلى الآخرة.

يقول الشريف الرضي معلقاً على كلام الإمام عليه السلام: «إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه، وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله، بكل كلام، لمال به راجحاً، وبرز عليه سابقاً، فأما قوله عليه السلام: «**تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا**» فما سمع كلام أقل منه مسموعاً، ولا أكثر منه محصولاً وما أبعد غورها من كلمة وانفع نطقها من حكمة»[3] وهي تنتمي إلى موضوعات القرآن وما جاءت به آياته من النصح والإرشاد كقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ

(1) ينظر: في رحاب نهج البلاغة: مرتضى المطهري، العتبة العلوية المقدسة، 2011 م: 130.

(2) نهج البلاغة، خطبة 21: 51.

(3) المصدر نفسه، خطبة 21: 51.

ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾[1] وإن الله تعالى يبعث الناس جميعاً يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾[2] وإن الميزان في الآخرة هو ما يعمله الإنسان في الدنيا، قال تعالى كناية عن الآخرة وحسابها: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ 10
نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾[3].

ومن الموضوعات التي تناولتها خطب الإمام عليه السلام التقوى، والتي ورد ذكرها كثيراً في القرآن سواء في الحث عليها أو شروطها أو بيان صفات المتقين، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[4] وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[5].

ويبين الإمام عليه السلام حقيقة المتقين في الدنيا والآخرة: «**أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكْهُم أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ، أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ، لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ**

---

(1) سورة آل عمران، الآيات: 196 - 198.

(2) سورة المجادلة، الآية: 6.

(3) سورة القارعة، الآيات: 6 - 11.

(4) سورة البقرة، الآية: 197.

(5) سورة البقرة، الآيتان: 1، 2.

لَذَّةٍ»[1]، فكانت المواعظ خير وسيلة لهداية الناس، في الفترة التي أعقبت وفاة الرسول ﷺ، الذي سبب فتوراً في الدين وبروز النزاعات والعصبية القبلية من جديد، كما شهدت تفاوتاً طبقياً بين الناس.

رابعاً: الجهاد

أخذ الجهاد ركناً أساسياً من أركان الدولة الإسلامية التي قامت عليها في حياة الرسول ﷺ، وحتى بعد وفاته، وأخذ الجهاد مساحة واسعة في القرآن الكريم، فقد نزلت الآيات التي تحث المسلمين على الجهاد خفافاً وثقالاً بأموالهم وأنفسهم، قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، وقد كان للإمام علي عليه السلام المواقف المشهودة في ذلك يقول ابن أبي الحديد: «**وأما الجهاد في سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوه أنه سيد المجاهدين وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له**»[3].

فجهاد الإمام عليه السلام من المسلمات في تاريخ الإسلام، يقول ابن أبي الحديد: «**وهذا الفصل لا معنى للإطناب فيه لأنه من المعلومات الضرورية كالعلم بوجود مكة ومصر ونحوهما**»[4] فقد جسد الإمام عليه السلام الجهاد قولاً وعملاً، «**وطبيعي أن تكثر خطبه في حروب خصومه**»[5]، فله خطب مشهورة ذكرها الأدباء والمؤرخون، كالجاحظ والطبري والواقدي

(1) نهج البلاغة، من وصية له رقم 27: 485.
(2) سورة التوبة، الآية: 41.
(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 1: 67.
(4) المصدر نفسه: 1: 67.
(5) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، شوقي ضيف، ذو القربى، قم، ط2، 1427هـ: 127.

وغيرهم[1]. ومن أبرز تلك الخطب هي خطبة الجهاد التي وردت في نهج البلاغة.

ومن مجموع خطب الإمام عليه السلام في الجهاد، يمكن معرفة نسق المجتمع الذي كان يخاطبه والتناقضات التي كان يعيشها ذلك المجتمع، والألم الذي كان يعتصر قلب الإمام عليه السلام من خلال بث شكواه وتذمره الواضح في كلامه عليه السلام، فبعد أن يبين منزلة الجهاد عند الله بقوله عليه السلام: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِباسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللهِ الحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ البَلَاءُ...**»[2] يأتي عليه السلام لبيان منزلة الجهاد عند قومه قائلاً: «**فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلتُم حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الغَارَاتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الأَوْطَانُ...**»[3]، بل يعجب لتقاعسهم وتفرقهم عن حقهم إذ يقول: «**فَيَا عَجَباً! عَجَباً - وَاللهِ - يُمِيتُ القَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ مِن اجْتِماعِ هؤُلَاءِ القَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ...**»[4]، بل يبدي الإمام عليه السلام يأسه من نصرتهم إياه، ونهوضهم إلى القتال فيقول عليه السلام: «**فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِم فِي أَيَّامِ الحَرِّ قُلْتُمْ: هذِهِ حَمارَّةُ القَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخُ عَنَّا الحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هذِهِ صَبَارَّةُ القُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا البَرْدُ، كُلُّ هذا فِرَاراً مِنَ**

---

(1) ينظر: المستويات الجمالية في نهج البلاغة، نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 2008م: 239.

(2) نهج البلاغة، خطبة 27: 60، 61.

(3) المصدر نفسه، خطبة 27: 61، 62.

(4) المصدر نفسه، خطبة 27: 62.

- ينظر: شرح ابن أبي الحديد: 2: 86.

الحَرِّ وَالقُرِّ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ تَفِرُّونَ، فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ!...»[1].

فهذه المواجهة الصريحة في الكلام لقومه توضح حالة الانهزام التي كانوا عليها، وتلمسهم الأعذار فراراً من الحرب، وهي حالات تعرض لها القرآن الكريم في بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[2].

ثم تزداد لهجة الإمام حدة في تأنيبهم وتقريعهم فيقول: «**يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبّاتِ الحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكمْ مَعْرِفَةً - وَاللهِ - جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعقَبَتْ سَدَماً قَاتَلَكُمُ اللهُ! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً...**»[3]، وفي خطبة أخرى يتحدث فيها الإمام عليه السلام عن جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وآله، تظهر لنا إيمانه بالله تعالى وجهاده في سبيله، وإنه يقاتل لأجل ذلك حتى آبائه وإخوانه إذا وقفوا مع أعدائه، يقول عليه السلام: «**وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، نَقْتُلُ آبَاءَنا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذلِكَ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً... وَجِدّاً عَلى جِهَادِ الْعَدُوِّ**»[4]، وكان يهدف عليه السلام من التأكيد على الجهاد، وبيان فضله عند الله، لاستنهاض الهمم وبث العزيمة في نفوس من يخاطبهم، فهي تضمر ضعف إيمانهم وتقاعسهم عن الجهاد، وأن الدفاع عن الدين أولى من التعلق بالآباء أو الأبناء أو سائر

(1) نهج البلاغة، خطبة 27: 63.
(2) سورة الأحزاب، الآية: 13.
(3) نهج البلاغة: خطبة 27: 63.
(4) نهج البلاغة، خطبة 56: 96.

القرابة التي هي نزعة منغرسة في النفوس، وإذا ما فقد أحدهم عزيزاً من أهله قل صبره واهتز إيمانه، لذا ذكر الإمام عليه السلام الآباء والأبناء وغيرهم، ولو قتل أحدهم فإن المؤمن لا يزداد إلا إيماناً، وإقداماً على العدو، ولولا هذه الروح وتلك التضحية، لما قام الدين، يقول عليه السلام: **«فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الإِسْلَامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ»**[1].

إن الموضوعات التي تناولها الإمام عليه السلام - أضف إلى أنها تزيد من تثقيف المخاطبين - تضمر أحوال الناس وما انطوت عليه سرائرهم، ودرجة فهمهم للقرآن الكريم، والتي كانت في الغالب قاصرة، قد شكا الإمام عليه السلام منها، في كثير من المواطن إما تصريحاً وإما تلميحاً[2].

(1) المصدر نفسه، خطبة 56: 96.

(2) ينظر: سيرة أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، هاشم الميلاني، العتبة العلوية المقدسة، العراق - النجف الأشرف، 2011م.

المبحث الثالث: أثر النبوة في النسق

أولاً: نسق التربية

لقد توفر للإمام علي عليه السلام ما لم يتوفر لغيره من أسباب الارتباط بالنبي محمد صلى الله عليه وآله، من تربية ومصاحبة وألفة ومحبة، مما هيأ له أرضية خصبة لثقافة إسلامية عالية، وأول تلك الأسباب هي: كفالة النبي صلى الله عليه وآله له عليه السلام وتربيته على يده، وذلك عندما أصابت قريش أزمة شديدة، إذ كان والد الإمام عليه السلام أبو طالب ذا عيال كثير، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام فضمه إليه وتكفل به، ليخفف عن عمه أبي طالب[1]. وعن هذه الكفالة قال الطبري: «**مما أنعم الله على علي بن أبي طالب** عليه السلام أنه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله **قبل الإسلام**»[2]، فكان يتبع النبي صلى الله عليه وآله إتباع الفصيل اثر أمه، ويعلم منه أسراراً لا يعلمها أحد من الناس، فقد كان معه في أدق تفاصيل حياته، لاسيما تلك التي كان فيها النبي صلى الله عليه وآله يتعبد لله تعالى، وعن ذلك قال عليه السلام: «**لقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام، غير رسول الله** صلى الله عليه وآله **وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة**»[3].

---

(1) ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام، تح: مصطفى السقا وآخرين، دار االفكر العربي، بغداد، 1986م، 1: 148.

(2) تاريخ الطبري: 198. - ينظر السيرة النبوية: 1: 148.

(3) نهج البلاغة، خطبة 192: 378.

فنشأ وتربى بين هذين الركنين العظيمين: رسول الله ﷺ وخديجة زوج النبي ﷺ، سليم الفطرة خبيراً بأسرار الكون، ومشمولاً بالرعاية الإلهية وبدعاء النبي ﷺ، يقول الفخر الرازي: «**أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[1] قال** ﷺ: «**سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي، قال علي: فما نسيت شيئاً بعد ذلك، وما كان لي أن أنسى**»[2]، وكان عليه السلام عارفاً بأحوال الأنبياء السابقين أيضاً، عن طريق النبي ﷺ وما جرى عليهم من أقوامهم، من تكذيب وعداء، واصفاً ذلك في إحدى خطبه إذ يقول: «**لَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ، رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ، عَلَى ذٰلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ، وَمَضَتِ الدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ الأبَاءُ، وَخَلَفَتِ الأَبْنَاءُ، إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً** ﷺ **لإِنْجَازِ عِدَتِهِ وإِتَمامِ نُبُوَّتِهِ...**»[3]. وكانت مما تسالمت عليه كلمة المؤرخين أنه عليه السلام لم يسجد لصنم قط[4]، مواكباً للرسالة الإسلامية منذ انطلاقتها شاهداً لأبرز ما مرت به من أحداث ومواقف معارضة، فأدرك حجم المعاناة التي سيعانيها نتيجة وقوفه إلى جنب النبي ﷺ ونصرته، الذي سيلقى العداوة والأذى من قريش[5].

فدرج عليه السلام يثقف بثقافة الإسلام مباشرة من النبي ﷺ إذ «**كان أول**

(1) سورة الحاقة، الآية: 12.
(2) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الحسين الرازي، 30: 107.
(3) نهج البلاغة: خطبة: 1.
(4) ينظر الطبري: 2: 199.
(5) الطبري: 2: 190، وينظر السيرة النبوية: 1: 143.

ذكر آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدقه بما جاء من عند الله»[1] وينقل لنا التاريخ عن ذلك اليوم الخالد في الإسلام، وكيف كان رد فعل علي عليه السلام اتجاهه فقد «**بعث النبي ﷺ يوم الاثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء**»[2]، ليكون أول من آمن به وآزره ووقف معه، في الوقت الذي وقفت قريش ضد هذه الدعوة الجديدة وتفننت باذاها للنبي ﷺ، فكان أمر طبيعي أن يكون الامام عليه السلام وزيرا ووارثا له ﷺ إذ قال في حقه: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**»[3]. وعن تلك المنزلة وذلك القرب قال عليه السلام في إحدى خطبه: «**وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل**»[4] فكان عليه السلام أول أنموذج يقدمه النبي ﷺ للإسلام في الإيمان والطاعة والنصرة لله ورسوله ﷺ.

---

(1) نفس المصدر: 2: 196 وينظر السيرة النبوية: 1: 148

(2) نفس المصدر: 2: 170 وينظر السيرة النبوية: 1: 149.
- وينظر: موسوعة (سيرة أهل البيت)، باقر شريف القرشي، دار المعروف، قم، ط1، 2009م، 3: 32.

(3) صحيح مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت261هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 2000م، 1041 - الاستيعاب، 3: 202. - الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن حجر العسقلاني (ت852هـ)، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط3، 2005م، وينظر: مسند أحمد بن حنبل، (ت241هـ)، تحقيق: أبي صهيب الكرمي، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط1، 1998م، 1: 185.

(4) نهج البلاغة، خطبة: 192: 378.

ثانياً: نسق الأبوة

تواترت الأخبار والروايات في مصادر التاريخ الإسلامي على نصرة أبي طالب للنبي ﷺ [1]، الأمر الذي أدى إلى صموده ﷺ بوجه من كان يريد إجهاض الدعوة الإسلامية في أول قيامها، وهذه النصرة أورثها لولده علي عليه السلام، يوم كان أبو طالب يرعى النبي ﷺ أكثر من ولده، حتى أنه يضجعهم في منام النبي ﷺ خوفاً عليه من أن يقتل، ولم تكن تلك الرعاية من أبي طالب بدافع القرابة أو العاطفة وإلا كان ذلك بأولاده أولى.

ولكن كان أبو طالب وهو سيد قريش، يأمل بابن أخيه أمراً عظيماً لما كان يحمله من صفات كريمة في عقله وأخلاقه وحسن تصرفه، وفي المقابل كان الإمام علي عليه السلام ممتثلاً أمر أبيه في حفظ النبي ﷺ من مكاره قريش، وكان حريصاً على إظهار تلك الطاعة لأبيه، وقد كان أبو طالب موفقاً في اختيار علي عليه السلام من بين أبنائه لتلك المهمة الصعبة، إذ نجح الإمام عليه السلام في تأديتها على أكمل وجه.

أما موقف أبي طالب من إسلام علي عليه السلام المبكر، فلقد كان موقفاً إيجابياً ومشجعاً، إذ لم تنقل الأخبار أن أبا طالب أنكر في يوم من الأيام على ولده إسلامه[2]، أو اعترض على

ذلك، مع علمه بمواقف قومه السلبية تجاه الإسلام، بل الأخبار نقلت أن أبا طالب كان مشجعاً للإمام عليه السلام في ملازمة النبي ﷺ ونصرته «**وذكروا أنه قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا**

(1) السيرة النبوية، 1: 156.

(2) ينظر: تاريخ الطبري، 2: 206، 207.

أبت، آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته . . . قال له: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير، فالزمه»[1].

وقد كان موقف أبي طالب واضحاً في الدفاع عن النبي ﷺ، ومنع قريش من أن تنال منه، فقد ضاقت ذرعاً بالرسول ﷺ، وما يدعو إليه حتى جاءوا وقالوا: « يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأشعره وأجمله، فخذه فلك عقله ونصرته واتخذه ولداً، فهو لك، وأسلم لنا ابن أخيك، هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله. . . فقال: والله لبئس ما تسومونني! اتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً»[2]. والإمام عليه السلام يرقب هذه المواقف من أبيه في نصرة النبي ﷺ فعلاً وقولاً ومنها «لما خشي أبو طالب دهاء العرب، قال قصيدته التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعر أنه غير مُسَلّم رسول الله ﷺ ولا تاركه لشيء أبدا حتى يهلك دونه»[3] فقال قصيدته المشهورة في مدح الرسول ﷺ : –

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلّاك من آل هاشم فهم عنده في زحمة وفواضل[٤]

وفي النظر إلى خطب نهج البلاغة نرى كثيراً مما تكلم به أبو طالب

(1) السيرة النبوية، 1: 149.
(2) الطبري، 2: 206، 207.
(3) السيرة النبوية، 1: 159.
(4) السيرة النبوية، 1: 163.

عن النبي ﷺ [1]، قد عبرعنه الإمام علي عليه السلام في كلامه، ومنها في مدح بني هاشم، إلا أن الإمام عليه السلام أسس لنسق جديد في هذا البيت العريق، إذ اختصره بمحمد ﷺ ونسبهم إليه وذلك بدوافع دينية تتجاوز العصبية القبلية التي كانت سائدة عندهم يقول عليه السلام: «**أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَثَلِ نُجُومِ السَّماءِ: إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ، وأَرَاكُم مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ**»[2]، وتعبير الإمام عليه السلام بالآل يضمر فخراً بأنه منهم، وأن الإسلام ما كان لينتصر لولا تلك المواقف التي وقفها هو أو من قبله أبوه، وأن من هو دونهم لا يُسَوّى بهم، فقال عليه السلام: «**لا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ عليهم السلام مِنْ هذِهِ الأمَّةِ أَحَدٌ، وَلا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبداً، هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ اليَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الغَالي، وَبِهِمْ يَلْحَقُ التَّالي**»[3]، وإن في هذه الخطبة أثر كبير لشعر أبي طالب في مدحه للنبي ﷺ إذ يقول:

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد ... وأخوته دأب المحب المواصلِ
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها ... وزيناً لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله في الناس أي مؤملٍ ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلهاً ليس عنه بغافل[4]

وقد أثر شعر أبي طالب في نفس النبي ﷺ، وهو يستشهد به ويذكره

---

(1) ينظر: كبير الصحابة أبو طالب، د. عبد الرسول الغفاري، شركة العارف للمطبوعات، بيروت - لبنان، 2012م: 177، 178.
(2) نهج البلاغة: خطبة 100: 182.
(3) المصدر نفسه: خطبة 2: 27.
(4) السيرة النبوية: 1: 165.

في بعض من مواقفه ومن ذلك لما «أقحط أهل المدينة، فأتوا رسول الله ﷺ فشكوا ذلك إليه، فصعد رسول الله ﷺ المنبر فاستسقى، فما لبث أن جاء من المطر ما أتاه أهل الضواحي يشكون منه الغرق، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم حوالينا ولا علينا**» فأنجاب السحاب عن المدينة، فصار حواليها كإكليل فقال رسول الله ﷺ: «**لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسَرّه**»، فقال بعض أصحابه: كأنك يا رسول الله أردت قوله:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة الأرامل؟

قال: أجل»[1]، فكانت رعاية النبي ﷺ من قبل أبي طالب وأهل بيته معروفة عند قريش، ومن قبل أبي طالب، كان عبد المطلب - جد النبي ﷺ - يرعاه في حياته، واوصى به قبل وفاته. فورث الإمام عليه السلام منهما ومن أبيه خاصة الشجاعة والفصاحة وحب النبي ﷺ وترجمها في حياته.

ثالثاً: تاريخ الأنبياء عليهم السلام وأثره في النسق

والمقصود بالتاريخ هنا التاريخ الذي أثر في ثقافة الإمام عليه السلام الدينية، هو التاريخ الذي يتحدث عن الأنبياء والرسل، فالإمام عليه السلام اعتمد في ثقافته التأريخية على ما جاء في القرآن الكريم، وما كان يحدثه به رسول الله ﷺ من أخبار الأمم السابقة، منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام حتى زمن النبي محمد ﷺ، والتاريخ في القرآن ينظر إليه على أنه إحدى معاجزه وذلك لدقته واستيفائه لتلك الأخبار السابقة[2].

---

(1) المصدر نفسه، 1: 166.

(2) مقدمة تفسير القرآن، عبد الله شبر، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط1، 2006م.

فقد روي عن الكتب السماوية التي سبقت القرآن الكريم كثيراً من تاريخ الأمم والشعوب التي سبقتها إلا أنها لم تكن صحيحة ومضبوطة كالتي جاء بها القرآن؛ وذلك إما لتحريف تلك الكتب، أو لعدم وجود الوسائل التي تحفظ فيها تلك القصص والأخبار الماضية، فقد أصابها النقص أو الزيادة أو المبالغة فيها.

ولقد أستثمر الإمام عليه السلام ذلك التأريخ وما فيه من الحكمة والعبر في خطبه، وبدءاً من آدم عليه السلام وهو أول من وطأ الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً. . .﴾[1] في إشارة إلى خلق آدم عليه السلام واستخلافه في الأرض وعن ذلك قال عليه السلام بعد ما تحدث عن خلق الله تعالى للسموات والأرض: «**ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بالمَاءِ، حَتَّى خَلَصَتْ**»[2]، فخلق منها آدم عليه السلام ويقصد الإمام عليه السلام من «**اختلاف الأجزاء التي جبل منها الإنسان إلى أنه مركب من طباع مختلفة، وفيه استعداد للخير والشر، والحسن والقبيح**»[3]، فهو يتحدث عن طبيعة الإنسان، ونزعاته النفسية.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 30.
ينظر: الكامل في التاريخ، عز الدين ابن الاثير (ت630هـ) تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط2، 2007م، 1: 24.
وينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي (ت346هـ)، 1: 31.
وينظر: التعبير القرآني، فاضل السامرائي، دار عمار، عمان - الاردن، ط5، 2007م: 286.
(2) نهج البلاغة، خطبة 1: 21.
(3) شرح نهج البلاغة: محمد عبده، ذو القربى، قم، ط1: 40.

وفي خطبة أخرى يتحدث عن سبب اختيار الله تعالى للأنبياء ليبين للناس القدوة الحسنة في مواجهة الحياة، فبعد ما ذكر خلق آدم عليه السلام قال: «**وَاصْطَفى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم**»[1] وسيذكر أنهم على نسق واحد، لا يختلفون - مع كثرة عددهم - في طاعة الله تعالى وأنهم جميعاً عانوا من أقوامهم التكذيب والتعذيب، وفي ذلك إضمار لما عاناه هو عليه السلام فقال: «**لَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ، رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ، عَلَى ذْلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ، وَمَضَتِ الدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ الأَباءُ، وَخَلَفَتِ الأَبْنَاءُ...**»[2].

فيعرض عليه السلام إلى سنة الله تعالى في أرضه وأن الحجة منه تعالى قائمة على الناس بوجود الرسل والأنبياء فعلى الناس أن يحذروا الشبهات عند اتخاذهم غير الأنبياء طريقاً في حياتهم «**فهناك عقائد وممارسات شبه دينية وأخرى خرافية تشوب النظم الدينية عادة وهي جزء لا يتجزأ من الرؤية الروحية التي يحملها الناس في مجتمعنا وفي باقي المجتمعات الإنسانية**»[3] فعُلم أن رأي الإمام عليه السلام في هداية الناس إنما تكون على يد الأنبياء وهو رأي القرآن بلا شك في ذلك، وقد اصطفاهم من خيرهم مولداً وخَلقاً وخُلقاً، لا تخلو منهم الأرض فإذا مات رسول جاء آخر[4].

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 1: 22.

(2) المصدر نفسه، خطبة 1: 23.

(3) الشخصية العربية ومقارباتها الثقافية، أ، د قيس النوري، دار ومكتبة البصائر، بيروت - لبنان، ط1، 2012م، 22.

(4) ينظر شرح نهج البلاغة، محمد عبدة: 9.

«إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً ﷺ لإِنْجَازِ عِدَتِهِ، وإِتَمامِ نُبُوَّتِهِ مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ»[1].

ثم يعرض عليه السلام لمواقف الأنبياء عليهم السلام وأنهم على حق، ليبين انه على طريقهم وأنه على حق كما هم عليهم السلام كذلك، وأنه واثق من نفسه أن ما يعمله هو من أجل هداية الناس وإنقاذهم من الجهل مثلما كان موسى عليه السلام في قومه إذ قال الإمام عليه السلام: **«عَزَبَ رَأْيُ امْرِىءٍ تَخَلَّفَ عَنِّي، مَا شَكَكْتُ في الحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ! لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عليه السلام خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلالِ! اليَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الحَقِّ وَالباطِلِ، مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ!»**[2].

فهو على هذا النسق يسير والذي يمكن أن نسميه نسق النبوة، وبعد ذكر النبي محمد ﷺ يذكر تأسيه بموسى عليه السلام قال: **«وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسى كَلِيمِ اللهِ ﷺ إِذْ يَقُولُ: «فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»**[3] **وَاللهِ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزاً يَأْكُلُهُ، لأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الأَرْضِ»**، ليعلم الناس شكر النعم والتواضع لله تعالى، ويضمر عليه السلام أنه لا يطمع بشيء من هذه الدنيا وما يشغَل الناس من زينتها وأنه يعيش بسيطاً يفترش التراب ويأكل من بقلها ثم يقول: **«وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ عليه السلام صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وقَارِىءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»**[4]، وهي درجة عالية بأن يكون الإنسان قارئاً لأهل الجنة، ومع ذلك فان داود عليه السلام: **«كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ**

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 1: 23.

(2) نهج البلاغة، خطبة 4: 35.

(3) المصدر نفسه، خطبة 160: 282.

(4) المصدر نفسه، خطبة 160: 283.

الْخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا»[1].

وفي ذلك إضمار إلى ما يعيشه الإمام عليه السلام من حياة مشابهة لحياتهم عليهم السلام قال الإمام عليه السلام: «**وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ** عليه السلام، **فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بَاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ**»[2]، وهو عليه السلام كذلك يفترش الأرض ويلتحف السماء حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وآله أبا تراب.

وبعد هذا السرد التاريخي لجوانب من حياة أو مواقف الأنبياء عليهم السلام والتي يرى الإمام عليه السلام في نفسه انه على شاكلتهم في فهمهم وعيشهم في الحياة، يتحدث عن النبي صلى الله عليه وآله فيقول: «**وَلَقَدْ كَانَ** صلى الله عليه وآله **يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ**»[3]، ثم يتحدث عن نفسه فيقول: «**وَاللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ عَنِّي فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى**»[4]، وإن الأنبياء على عظم خطرهم وعلو مكانتهم عند الله تعالى، فإنهم كانوا يتواضعون لله سبحانه، ويقفون عند الحدود التي رسمها الله لهم، فهم لا يحدثون إلا بما يعلمون، ويعترفون بعجزهم أمام علمه تعالى، وهي مما أكسبهم المدح والثناء.

---

(1) المصدر نفسه، خطبة 160: 283.

(2) المصدر نفسه، خطبة 160: 283.

(3) نهج البلاغة، خطبة 160: 284.

(4) المصدر نفسه، خطبة 160: 285.

قال عليه السلام: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللهُ - تَعَالَى - اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيما لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً**»(1)، منبهاً من يخاطبهم من أهل زمانه الذين كانوا يخوضون بالغيب، إلى ترك الخرافات التي ورثوها من الجاهلية ويحسبون أنها من العلم وليست هي من العلم بشيء، وكما وصفهم الله تعالى في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(2).

ويمكن إن نستنتج مما تقدم من ذكر الأنبياء عليهم السلام في خطب الإمام عليه السلام كان لأسباب منها:

1 - إن في ذكرهم امتثالاً للقرآن الكريم في الحث على السير على خطى الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(3) لأنهم الأنموذج الأكمل من البشر.

2 - إيمان الإمام عليه السلام المطلق بالأنبياء عليهم السلام وانه يسير على نهجهم.

3 - حاجة الناس إلى التذكير بعد غفلتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾(4)، وخير ما يذكرون به هم الأنبياء عليهم السلام وما يروى عنهم من قصص.

---

(1) المصدر نفسه، خطبة 91: 150.
(2) سورة الكهف، الآية: 104.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 21.
(4) سورة يوسف، الآية: 111.

4 - واقعية قصص الأنبياء عليهم السلام ومساسها بالحياة وشؤونها.

5 - الأثر الكبير الذي تركه النبي صلى الله عليه وآله في حياة الإمام عليه السلام نتيجة ملازمته مدة طويلة من الزمن[1].

(1) أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبي الحسن علي بن محمد الجزري ابن الاثير (ت630هـ)، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط3، 2007م، 3: 282.
وينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت430هـ)، تح: سعيد بن سعد الدين خليل الاسكندراني، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 200م، 1: 65 - 68.
وينظر: موسوعة الغدير، في الكتاب والسنة والأدب، عبد الحسين أحمد الاميني، دائرة معارف الفقه الإسلامي، قم - إيران، ط4، 2006 م، 4: 320.

الفصل الثاني

النسق السياسي

المبحث الأول: الإمام عليه السلام والسلطة

المبحث الثاني: الرعية ودورها في النسق

المبحث الثالث: نسق المعارضة

الفصل الثاني

النسق السياسي

المبحث الأول: الإمام عليه السلام والسلطة

مدخل

يتمثل النسق السياسي في خطب نهج البلاغة، بما ترجمه الإمام عليه السلام من مفاهيم سياسية إسلامية تحدث عنها القرآن الكريم من قبل، يأتي في مقدمتها الحديث عن نسق عام وهو: الصراع بين طائفتين هما: الأنبياء عليهم السلام، والطواغيت، لأنه يدور حول قيادة الإنسان، وعلاقة الحاكم بالمحكوم، فهو صراع يمثل في بعض جوانبه أبرز مظاهر السياسة والعمل السياسي، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

وكشفت لنا خطب الإمام عليه السلام عن نسق سياسي ينتمي إلى هذا النوع من الصراع، وكذلك عن علاقة السلطة بالمجتمع، لأن النسق السياسي هو: «**تمثيل لمجموعة من العلاقات السياسية التي تميز مجتمعاً ما في مدة**

(1) سورة الفرقان، الآية: 31.

من الزمن، وفهمه يتوقف على الثقافة والمسار السياسي، ونمط تقسيم العمل»[1]، في ذلك المجتمع[2].

وبما أن ثقافة الإمام عليه السلام هي ثقافة إسلامية، فقد تبنى خطابه السياسي الدفاع عن سلطة الإسلام الحقيقية لأنه جزء منها، كما في خطابه مع المهاجرين، قائلاً لهم: **«لا تخرجوا سلطان محمد من داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فو الله يا معشر المهاجرين لنحن - أهل البيت - أحق بهذا الأمر منكم، أما كان منا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بالسنة، المضطلع بأمر الرعية! والله انه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعداً»**[3].

فيضمر الكلام استفراد المهاجرين بأمر الخلافة، بدعوى إتباعهم للقرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتفقههم في الدين، وخبرتهم في قيادة الناس، وإدارة شؤونهم، في الوقت الذي يخرجون منها من كانوا سبباً في قيام الدين، وتعليمه لغيرهم، كما يضمر الكلام تنبيهاً لمن أراد أن يتصدى للحكم، بأن يتبع حقيقةً، منهاج القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإن الأولوية للعلماء (الفقهاء) الذين أحكموا العلم، كما أن ذلك لا يتم دون معرفة أحوال الناس، وإصلاح أمورهم من خلال الدور الذي سيقوم به الخليفة، فإن السياسة كما في اللغة: **«القيام على الشيء بما يصلحه»**[4].

---

(1) معجم علم السياسات والمؤسسات السياسية، غي هريمة وآخرون، تر: هيثم اللمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 2005م: 393.

(2) الثقافة السياسية الإسلامية، هاشم الموسوي، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، قم، ط1، 1421هـ: 7.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 6: 16.

(4) لسان العرب، 6: 429. وينظر: معجم القاموس المحيط، للفيروز آبادي، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط3، 2008م: 653.

فالإمام عليه السلام ينظر إليها بمنظار إسلامي عام، على إنها: «**عمل تقوم به الأمة، وجهاز السلطة، من أجل تحقيق الأهداف الأساسية للرسالة الإسلامية، التي لخصها الفقهاء بـ «جلب المصالح ودرء المفاسد»**»[1].

ومن خلال تتبع خطب الإمام عليه السلام، يمكن معرفة النسق السياسي الإسلامي، خاصة المدة التي أعقبت وفاة النبي صلى الله عليه وآله ومدى التفاعل معه وتطبيقه[2]، سواء من الإمام عليه السلام، أم من القائمين على السلطة.

أولاً – تشكل السلطة:

كشفت خطب الإمام عليه السلام عن انساق، كان لها الدور الأساس في تشكل السلطة، واختيار خليفة للمسلمين، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وأهم تلك الأنساق هي القرابة من النبي صلى الله عليه وآله والصحبة له، لذا برزت ثلاثة اتجاهات سياسية[3]، يرى كل اتجاه، انه أحق من غيره بالخلافة وهؤلاء هم: –

1 – الإمام عليه السلام، (القرابة والصحبة).

2 – المهاجرون من غير بني هاشم. (القبيلة والصحبة).

3 – الأنصار، (الصحبة).

وقد تكرر الحديث عن القرابة والصحبة، قال عليه السلام في ذكره

(1) ينظر الثقافة السياسية الإسلامية، هاشم الموسوي: 7. وينظر: دراسات في مصطلح السياسة عند العرب، أحمد عبد العلام، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1977م: 3.

(2) ينظر: النظام السياسي في الإسلام، أحمد حسين يعقوب، مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر، قم، ط4، 2006م: 135، 136.

(3) ينظر: تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي، صائب عبد الحميد، دائرة معارف الفقه الإسلامي، قم – إيران، ط2، 2005م: 286.

للنبي ﷺ: «**ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي وَالْكِتَابِ الْهَادِي، أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ، أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ عَلا بِهَا ذِكْرُهُ، وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ**»(1).

فبعد ذكر بعثة النبي ﷺ والكتاب باعتبارهما مصدر التشريع الذي لا بد من السير على نهجه، ذكر الإمام عليه السلام أسرة النبي ﷺ وشجرته، ويريد بها نفسه، وأنه من ثمار القرآن والنبي ﷺ، كما يضمر الكلام، إبعاد من يريد أن يحكم بحكم الجاهلية، أو يستند على جذورها في المطالبة بالخلافة، فذكر ولادة النبي ﷺ بمكة، رداً على قريش التي تفتخر على سائر العرب لمجرد انتمائها إلى مكة، فالنبي ﷺ ينتمي إلى قريش نسباً إلا انه لم يفتخر بها يوماً من هذه الناحية، بل افتخر وعلا بالإسلام، وما جاء به القرآن وأنه استبدل بانتسابه لعشيرته انتسابه للدين، وإذ أراد أن يفتخر بأسرته فلإتباعهم الحق ونبذهم الباطل، ومكة لا تفضل على غيرها من المدن كالمدينة، لذا قال: «**مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ عَلا بِهَا ذِكْرُهُ، وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ**»، وفي الخطبة إضمار أن الإمام عليه السلام يشارك النبي ﷺ من جهات عدة منها: (الإيمان، والأسرة، والشجرة (العشيرة)، والأغصان، والمولد بمكة، والهجرة إلى المدينة، والنصرة في رفع راية الإسلام)، وفي خطبة أخرى قال: «**بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْاعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ**»(2).

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 161: 286.

(2) نهج البلاغة، خطبة 144: 252.

فبعد ذكر هذا الأصل (**بعثة الأنبياء**) أشار إلى وجوب إتباعهم في دعواهم إلى الحق، وخاصة من يريد أن يتولى أمور المسلمين، وجعل الرسوخ بالعلم أساس ذلك، لذا عطف على كلامه بقوله: «**أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعَنَا اللهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ. بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى، وَبِنَا يُسْتَجْلَى الْعَمَى. إِنَّ الْائِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ، لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ**»[1].

ففي الكلام إضمار لمن نازعوه الخلافة، فهم وإن كانوا من قريش، إلا أن الإمام عليه السلام يذكر إن أمر الخلافة ينحصر في بني هاشم خاصة، لأنهم هم الذين نصروا الدين، وتحملوا أعباء الرسالة، فهو كثيراً ما يفرق من خلال خطابه بين قريش التي تنتمي إلى ثقافة الجاهلية، وقريش التي جاءت بالإسلام، ففي خطبة له يقول: «**إِنَّ اللهَ سُبحانَه بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ، وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ تشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الجَشِبَ وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْاصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالْاثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ**»[2]، أراد أن يذكر العرب بأصل الإسلام، وأنه قد جاء رغما عنهم، إذ لم يكن منهم أحد على استعداد لحمل رسالة الإسلام، ولم يخالج نفوسهم ترك عبادة الأصنام، ولم يخطر ببالهم ترك الظلم والآثام، ولم يكن لهم مطمع في الارتقاء إلى مثل تعاليم الدين الجديد فلم يستحقوا من هذه الجهة أن يلوا الأمر بعد رسول

(1) المصدر نفسه، خطبة 144: 253.
(2) المصدر نفسه، خطبة 26: 59.

الله ﷺ [1]، ويضمر كلام الإمام عليه السلام أنه هو المقصود من بني هاشم الذي كان أيضاً أميناً على التنزيل ولم يعبد صنماً، ولم يكن على طريقة العرب في سفك الدماء المحرمة، أو ارتكاب الآثام الجاهلية.

ثانياً - نسق القرابة والصحبة من النبي ﷺ:

كرر الإمام عليه السلام في كثير من الخطب ذكر القرابة من رسول الله ﷺ وصحبته إذ وجدهما نسقين لا مناص من اعتمادهما باستلام أول سلطة إسلامية، لذا كثر اهتمام الإمام عليه السلام بهما، فقال في وصف النبي ﷺ: «**حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً وَأَعَزِّ الْارُومَاتِ مَغْرِساً مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ. عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْاسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ؛ نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ، وَثَمَرٌ لَايُنَالُ...**»[2].

فكان فخر أي من المسلمين أن يكون قريباً من النبي ﷺ، او ينتسب إليه، وقصد الإمام عليه السلام من الفروع الطوال والثمر الذي لا ينال، نفسه، يقول ابن أبي الحديد: «ومعنى قوله: «**وَثَمَرٌ لَا يُنَالُ**» ليس على أن يريد به أن ثمرها لا ينتفع به، لان ذلك ليس بمدح، بل يريد به أن ثمرها لا ينال قهراً ولا يجنى غصباً ويجوز أن يريد بثمرها نفسه عليه السلام، ومن يجري مجراه من أهل البيت عليهم السلام لأنهم ثمرة تلك الشجرة»[3].

وعندما اجتمع المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة، ودار

---

(1) ينظر: الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت - لبنان، ط3، 2010م، 12: 153، 154.

(2) نهج البلاغة، خطبة 94: 174، 175.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 7: 69.

الحديث بينهما حول من يكون خليفة للمسلمين كان الاحتكام للعشيرة والقرابة والصحبة للنبي صلى الله عليه وآله، إذ احتج الأنصار بأنهم أول من نصر وآزر النبي صلى الله عليه وآله، فرد عمر وهو من المهاجرين وقال للأنصار: «لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم، ولا تمتنع العرب أن تولي أمرها من كانت النبوة منهم، من ينازعنا سلطان محمد! ونحن أولياؤه وعشيرته... فقام بشير بن سعد.. فقال: يا معشر الأنصار، ألا أن محمداً من قريش، وقومه أولى به...»[1].

وهكذا كان الأثر الفاعل في الواقع (السياسي) الإسلامي، هو لنسق القرابة والعشيرة، وعندما سأل الإمام عليه السلام عما أثمر به اجتماع القوم - المهاجرين والأنصار - من نتائج، وآراء كل من الفريقين، أجيب بأنهم بايعوا أبا بكر، فسأل حينها عن رأي الأنصار ماذا قالت؟

«قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير.

قال عليه السلام: فَهَلَّا احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ: بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟

قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم؟

فقال عليه السلام: لَوْ كَانَتِ الإمارة فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ.

ثم قال: فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟

قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله.

فقال عليه السلام: احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ»[2]، والثمرة يعني بها نفسه عليه السلام.

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 2: 46.

(2) نهج البلاغة، خطبة 67: 105، 106.

يقول ابن أبي الحديد: «فأما قول أمير المؤمنين: «**احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ**» فكلام قد تكرر منه عليه السلام أمثاله، نحو قوله: «**إذا احتج المهاجرون بالقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله كانت الحجة لنا على المهاجرين بذلك قائمة، فإن فلجت حجتهم كانت لنا دونهم، وإلا فالأنصار على دعوتهم**» ونحو هذا المعنى قول العباس لأبي بكر «وأما قولك: نحن شجرة رسول الله صلى الله عليه وآله فإنكم جيرانها، ونحن أغصانها»[1].

وفي خطبة للإمام عليه السلام يصف بها رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته أيضاً، بأنهم خير أسرة، وأفضل شجرة، قال: «**نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ، وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ، نَاصِرُنا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ، وَعَدُوُّنا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ**»[2]، فتكرر ذكر ذلك منه عليه السلام، لما رأى نسقي الصحبة والقرابة قد أثرا في مجريات الأحداث، وكثر الاحتجاج بهما. فقال في خطبة له: «**نَحْنُ الشِّعَارُ وَالأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالأَبْوَابُ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً**»[3].

وكذلك احتج بهما عندما قيل له: «أن عمر بايع أبا بكر وقال له: «**أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله في المواطن كلها فأمدد يدك للبيعة**». فقال عليه السلام: «**واعجباه! أن تكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة**»[4].

ومما تقدم ذكره من خطب، وما ورد فيها من كلام الإمام عليه السلام عن القرابة والصحبة من رسول صلى الله عليه وآله نرى أن لذلك أسباباً منها:

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 6: 9.

(2) نهج البلاغة، خطبة 109: 204.

(3) المصدر نفسه، خطبة 154: 270.

(4) المصدر نفسه، خطبة حكمة 190: 637.

1 - إن القرابة والصحبة للنبي صلى الله عليه وآله كانا سببين رئيسيين في اختيار الخليفة فيرى الإمام عليه السلام أنه أحق بها من غيره، لذا أكد عليهما في الخطب.

2 - وجود أطراف أخرى تحاول الاستفادة من هاتين الميزتين في الوصول إلى الحكم، وفي الوقت نفسه تحاول إبعاد الإمام عليه السلام عن مكانته منهما وهو ما حصل مع الخلافة الأولى، لذا قال عليه السلام: «**أَمَا وَالله لَقَدْ تَقَمَّصَها ابن أبي قحافة، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنهَا مَحَلُّ القُطْبِ مِنَ الرَّحَا، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ**»[1].

3 - إن خطاب الإمام عليه السلام ينبع من الواقع، والأنساق المؤثرة فيه، وإن المجتمع العربي ينظر إلى القرابة من النبي صلى الله عليه وآله وصحبته، على أنها منزلة عظيمة جديرة بالتكريم والتعظيم لصاحبها.

4 - إن الإمام عليه السلام في مقام الخطابة، وهذا ما يتطلب حديثاً مباشراً يفهمه الناس (الجمهور)، خالٍ من الأدلة العقلية والبراهين التي تحتاج إلى تفكير وتأمل، فوجد الحديث بالقرابة والصحبة وسيلة ملائمة لإثبات حقه في الخلافة، وبيان مظلوميته من قريش، ورفع الشبهات عن الناس.

ومن خلال استقراء خطب الإمام عليه السلام نجدها تمثل للمهاجرين والأنصار نسقين مختلفين في رأي الإمام عليه السلام، فقد ذم قريشاً في كثير من الخطب وأظهر شكواه وتذمره منها، في حين لم يذكر الأنصار بسوء[2]، ولكل منهما أسباب:

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 3: 28.

(2) عبد الله بن عباس، السيد محمد تقي الحكيم، مكتبة الصدر، قم، ط1، 1423 هـ: 163.

فأما قريش: فقد رأى الإمام عليه السلام أنها تمثل خطراً عاماً على الإسلام، بإحيائها لسنن الجاهلية، وخطراً خاصاً على الإمام عليه السلام بأنها تحول دونه ودون الناس، فتقف عائقاً نحو ممارسة دوره في الهداية والإرشاد. فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَأَكْفَأُوا إِنَائِي وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حقاً كنت أولى به من غيري، وقالوا: أَلَا إنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ تمنعه، فاصبر مغموماً أو مت متأسفاً**»[1].

فالكلام يضمر تألماً شديداً من قريش، وإتباعها أساليب بعيدة عن روح الإسلام، بل هي من ترسبات الجاهلية التي امتازت بالغلظة والجفاء والحسد والبغضاء، والتي بقيت في نفوس القرشيين حتى بعد مجيء الإسلام، إذ يرونه قد سلب منزلتهم، وسفه أحلامهم، ويرون أن من أسباب ذلك وجود علي بن أبي طالب عليه السلام في الإسلام، فإذا ما ذكر منزلته من النبي صلى الله عليه وآله انبروا له بكلامهم الخشن، وغلظتهم المعهودة، ففي خطبة له، يجيب فيها على أحد القرشيين، وقد اتهمه بالحرص على الخلافة[2]، فقال: «**وقد قال قائل: إِنَّكَ عَلَى هذَا الأَمْرِ يا بْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ. فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ أَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ، فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ بِالْحُجَّةِ. فِي الْمَلأ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ**»[3].

فاستعار للخلافة (الوجه) إذ من خلالها يظهر دوره السياسي، وهو

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 217: 422.

(2) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 9: 326. - من اتهم الإمام عليه السلام هو سعد بن أبي وقاص، وقيل أبو عبيدة الجراح.

(3) نهج البلاغة، خطبة 172، 310.

من تعبيرات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾[1]، فالمسفرة تظهر مكانة أهل الجنة، والتي عليها غبرة تظهر مكانة أهل النار، ومما نلحظه في ذكر الإمام عليه السلام لقريش، بقاؤها على نسقها الجاهلي لم يستميلهم الإسلام عنه، كما أنهم لم يستميلوا الإمام عليه السلام عن الإسلام فقال: **«مَالي وَلِقُرَيْشٍ! وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلَاقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ! وَاللهِ ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في خيرنا...»**[2]، فقال «صاحبهم» أي، من يقاتلهم دائماً ويقف بوجههم، فيضمر كلام الإمام عليه السلام بقاءهم على أحقادهم الأولى.

وأما الأنصار! وهم يمثلون أهل المدينة، فلم يتعرض لهم الإمام عليه السلام في خطبه، مع أنهم كانوا السبب الرئيس في إثارة قضية الخلافة، وإن في عدم ذكرهم أسباباً منها:

1 - حفظ وصية النبي صلى الله عليه وآله بالأنصار، والتزام الإمام عليه السلام بذلك، وقد سمع مدحه فيهم إذ قال صلى الله عليه وآله: **«لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً لسلكت شعب الأنصار»**[3]، وفي إحدى خطبه صلى الله عليه وآله يوجه بها عامة الناس: **«أما بعد: أيها الناس، فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولي منكم أمرأ**

---

(1) سورة عبس، الآيات: 38 - 41.

(2) نهج البلاغة، خطبة 33: 74.

(3) الطبري، 3: 138. ينظر: الإمام علي عليه السلام في رؤية النهج ورواية التاريخ، د. إبراهيم بيضون، العتبة العلوية المقدسة، النجف الاشرف، ط2، 2012م: 47.

يضر فيه أحداً أو ينفعه، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم»[1]، فأحسن إليهم الإمام عليه السلام وتجاوز عن مسيئهم.

2 - لم يصروا على موقفهم من الخلافة، كما فعل القرشيون، بل ربما ندموا على عدم مبايعة الإمام عليه السلام على ما ينقله ابن أبي الحديد في شرح النهج[2].

3 - نصرتهم للإسلام ولدعوة النبي صلى الله عليه وآله عندما هاجر من مكة إلى المدينة، فحفظ لهم الإمام عليه السلام تلك المواقف، بخلاف مواقف قريش السلبية من الدعوة الإسلامية في أيامها الأولى.

ثالثاً - موقف الإمام عليه السلام من السلطة

وظف الإمام عليه السلام خطابه في صالح الإسلام، كما وظف نفسه لذلك، وفي الوقت نفسه يمكن لتلك الخطب أن تكون وثيقةً، وشاهداً على ثقافته وعلمه فهي ليست تاريخاً يحكي جانباً من أخبار الماضي، بل هي كاشفة لكثير من العوامل والظروف والأنساق التي أثرت في تلك الحقبة من الزمن، ومنها نظرته في الواقع السياسي، بما حوته من نقد وتقييم وإصلاح لأخطاء وقعت للمسلمين في مسيرتهم الإسلامية.

فالإمام عليه السلام يدرك تماماً ما حققه الإسلام من مكانه عظيمة للعرب، لذا كان لا يترك التذكير بهذا الانجاز كلما دعت الحاجة إليه فيقول عليه السلام: «**إنَّ اللهَ سُبحانَه بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ**

---

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (852 هـ)، تح محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة دار الفيحاء للطباعة والنشر، دمشق، ط3، 2000م، 7: 93، ينظر: نظام الحكم والإدارة في الإسلام، محمد مهدي شمس الدين: 59.

(2) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 6: 16.

يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ»[1]، ثم يعطف الأمر عليه، فيقول: «**أَمَا وَاللهِ إِنْ كُنْتُ فِي سَاقَتِهَا حَتَّى وَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا**»[2]، فيضمر كلامه، أن من أراد أن يفتخر من العرب، فليفتخر بالإسلام الذي رفع شأنهم وأعزهم بين الأمم، ويأتي التأكيد من الإمام عليه السلام على ذلك، لما رآه من عودة الافتخار بما يفتخر به أهل الجاهلية، كما يأتي ذلك تذكيراً بجهوده ومواقفه اتجاه الإسلام، والتي يحاول البعض إغفالها أو توهينها. ولم يتخلف خطاب الإمام عليه السلام عن هذا النسق في أي مرحلة من مراحل حياته.

وقد عُرف بدفاعه عن نظام الإسلام، ووحدة المسلمين ففي الفترة التي أعقبت وفاة النبي صلى الله عليه وآله قال له بعض اليهود: «**ما دَفَنْتُم نَبِيَّكُم حتّى اختلفتم فيه**». **فقال** عليه السلام **له: إِنَّمَا اخْتَلَفْنَا عَنْهُ لَا فِيهِ، وَلكِنَّكُمْ مَا جَفَّتْ أَرْجُلُكُمْ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**»[3] [4]. قالوا هذا الكلام، حينما رأوا اختلاف المسلمين فيما بينهم، حول خلافة النبي صلى الله عليه وآله، فلم يكن عليه السلام يسمح أن ينال أحد من وحدة المسلمين، أو يتعرض للإسلام بسوء، وهو نسق عام في حياته، دلت عليه الخطب التي بين أيدينا.

على الرغم من أن الإمام لم يعط حقه في الخلافة، فقد ظل عليه السلام على مواقفه تلك في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، مع ما يراه من حق

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 33: 73.

(2) نهج البلاغة، خطبة 33: 73.

(3) سورة الأعراف، الآية: 138.

(4) نهج البلاغة، حكمة 317: 665.

له في الخلافة، وربما استدعته نفسه للمطالبة به، إلا انه آثر الصبر، ومصالح الإسلام العليا، فقال في الخلافة: «**فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فيهَا الكَبيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى...**»[1]، ويخفي هذا التردد من الإمام عليه السلام تخوفاً كبيراً على مصير الإسلام، لا على مصير نفسه، لذا ورد عنه أنه قال في وقت الشورى: «**لن يسرع احد قبلي إلى دعوة حق، وصلة رحم، وعائدة كرم فاسمعوا قولي، وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تنتضى فيه السيوف، وتُخان فيه الأمر من بعد هذا اليوم تنتضى فيه السيوف، وتُخان فيه العهود، حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة، وشيعة لأهل الجهالة**»[2]، فيرى عليه السلام، في إبعاده عن الخلافة، وعدم مشاورته في أمرها مقدمة لضياع الحقوق، واضطراب أمور الناس، فإن مطالبته بالخلافة هي من أجل إقامة الحق ودفع الباطل، كما بين ذلك في أكثر خطبه، منها قوله: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَا الْتمَاسَ شيءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الإصلاح فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ**»[3] فيخفي الكلام أن هناك من ينافس على الخلافة من أجل السلطان، وأمور الدنيا، لا لأجل العدل وإقامة الدين.

(1) المصدر نفسه، خطبة 3: 28.
(2) نهج البلاغة، خطبة 139: 247، 248.
(3) المصدر نفسه، خطبة 131: 238.

وبعد أن تمت البيعة لأبي بكر، وقف الإمام عليه السلام في جانب تقوية سلطان الإسلام، ومنع من أن تقوم الفتنة، التي حاول البعض بثها بين المسلمين فقال في النهي عنها: «**أَيُّها النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الـمُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيجَانَ الـمُفَاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ، مَاءٌ آجِنٌ وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا، وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ...**»[1].

فوقف بشدة ضد أي محاولة لإحداث أمرٍ يسبب اضطراب دولة الإسلام، ويؤكد ذلك، رده لمن أراد أن يبايعه بعد بيعة أبي بكر سواء من أصحابه أو ممن كان يتربص بالإسلام سوءاً كأبي سفيان عندما خاطب الإمام عليه السلام على أن يبايع له بالخلافة، فزجره الإمام عليه السلام قائلاً: «**إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وانك والله طالما بغيت للإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك**»[2].

على أن هذا الجواب من الإمام عليه السلام لأبي سفيان، هو غيره في جواب عمه العباس عندما قال له: «**أمدد يدك أبايعك فيقول الناس: عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله، فلا يختلف عليك اثنان، فقال له: أو يطمع يا عم فيها طامع غيري**»[3]، فإن ذلك يكشف عن نسقين مختلفين قريبين من السلطة: الأول، ينتمي إلى أصول جاهلية الغرض منه إثارة الفتنة، والثاني ينتمي إلى ثقافة الإسلام وتقديم مصلحته كما يراه العباس[4]. ويضمر رد الإمام عليه السلام في الحالتين عن المجتمع الإسلامي

---

(1) المصدر نفسه، خطبة 5: 35.

(2) الطبري: 3: 209.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 1: 220.

(4) المصدر نفسه، 1: 220، 2: 52.

في بعض حالاته، ومعاناته، بوجود النسق الجاهلي، وضعف المسلمين، كما يضمر معرفة الإمام عليه السلام بأحوال المسلمين، ودقة تعامله في الأمور التي تتعلق بوحدتهم.

كما أن الإمام عليه السلام يكشف في بعض مواقفه عن تعثر السلطة وأخطائها في سياستها، كما في اختيار الخليفة الأول للخليفة الثاني، فقال: «**فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ، يَغْلُظُ كَلْمُهَا وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ العِثَارُ فِيهَا، وَالْاعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ اللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ**»(1)، لما يتطلبه الأمر من معرفة تامة وإدارة كفوءة للمجتمع الإسلامي، وإلا اضطربت الأمور.

يقول ابن أبي الحديد: «**ولما كان عليه السلام يرى أن العدول بها عنه إلى غيره إخراج لها إلى غير جهة الاستحقاق شبه ذلك بإدلاء الإنسان بماله إلى الحاكم، فإنه إخراج للمال إلى غير وجهه**»(2)، وذكر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾(3).

فيرى عليه السلام أنه لو أعطي الخلافة لما وقعت تلك الأخطاء، ولا تعثرت الأمور، فقد كثر انتقاده للسلطة في سبيل إصلاحها من دون إثارة الناس أو أي سبب قد يؤدي إلى زعزعة استقرار الدولة أو تفكك وحدة المسلمين، فقد قال لما عزموا على بيعة عثمان: «**لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ**

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 3: 29، 30.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 1: 222.

(3) سورة البقرة، الآية: 188.

يَكُنْ فِيهِا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لِأجْرِ ذلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيما تَنافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»[1]، فدل كلامه على وجود الجور والظلم على الناس، من الخليفة، وخاصة في زمن عثمان.

ففي كلمة للإمام عليه السلام، لما اجتمع الناس إليه وشكوا ما نقموه على عثمان وسألوه مخاطبته عنهم واستعتابه لهم، فدخل عليه فقال: «**إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي، وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لا تَعْرِفُهُ، إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ، وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله كَمَا صَحِبْنَا...**»[2].

فتضمر هذه المقدمة من كلام الإمام عليه السلام عن تأزم الأمور بين الخليفة والناس، كما يدل على ضعف الخليفة في إدارة شؤون الناس، وعدم تطبيقه لتعاليم الإسلام، وسنة رسوله، مع علمه بها: «**وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله كَمَا صَحِبْنَا**»، وما يدل على ضعف الخليفة ووقوعه تحت تأثيرات بعض المقربين منه قول الإمام عليه السلام له: «**فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللهِ - مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمىً، وَلَا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الْطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَهَدَي، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً، وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ**

(1) نهج البلاغة، خطبة 74: 113، 114.
(2) المصدر نفسه، خطبة 164: 292.

عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً...»[1].

مضمرات هذا النص كثيرة، منها أن الإمام عليه السلام لازال يتحمل أعباء رسالة الإسلام، والدفاع عنها، إذ كان الكلام موجهاً إلى خليفة المسلمين، ويحمل قضايا عامة تمس نظام

الإسلام، وتظهر انحراف مسيرته، ومنها خضوع الخليفة إلى أوامر سلطة خفية أقوى منه، وتمتلك القرار الحقيقي والمؤثر، وهي بضلالتها وابتعادها عن الدين تعطل السنن وتقيم البدع، ومنها تظلم الناس، وضياع حقوقهم، ومنها أنها تمهد لظهور الفتن[2]، وتفكك وحدة المسلمين، وهذا ما حصل فعلاً، إذ لم تنفع الخليفة النصيحة، أو دفاع الإمام عليه السلام عنه حتى قال: «**وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً**»[3]، فكانت النتيجة أن قتل الخليفة بسيوف المسلمين أنفسهم[4]، لتبدأ مرحلة خطيرة على الإسلام.

(1) المصدر نفسه، خطبة 164: 292.

(2) ينظر: العقل السياسي العربي - محدداته وتجلياته - د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط6، 2007م: 191.

(3) نهج البلاغة، خطبة 240: 455. ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 9: 281.

(4) ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد محمد بن مشبع الهاشمي البصري (230هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1418هـ/ 1997م، 3: 50.

المبحث الثاني: الرعية ودورها في النسق

يظهر أثر النسق السياسي في خطاب الإمام عليه السلام، أكثر وضوحاً في هذه المرحلة من مراحل حياته - مرحلة تسلم السلطة - وذلك للظروف الملائمة في بث الخطاب الشامل، الملازم لمن يكون على رأس السلطة، وقيادة المجتمع، فقد اشتمل كلام الإمام عليه السلام على نقد المراحل التي سبقت بيعته والأخطاء التي وقعت فيها، والتفاوت الذي حصل عبر ثلاثة خلفاء تعاقبوا على نظام واحد.

وكانت أكثر الخطب موجهة إلى الرعية، التي وجدها على حالها الأول قبل البعثة، لم تتغير بمجيء الإسلام، لعدم تفاعلها معه والاستفادة منه لذا قال: «**أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ** صلى الله عليه وآله، **وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ القِدْرِ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ، وَأَعْلَاكُمْ أَسْفَلَكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا، وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً وَلا كَذَبْتُ كِذْبَةً، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهذا المَقَامِ وَهذَا اليَوْمِ أَلَا وَإِنَّ الخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُها، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ في النَّارِ**»[1].

(1) نهج البلاغة، خطبة 16: 44. ينظر: تأريخ أبن خلدون، عبد الرحمن، (ت 808هـ)، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، 2006 م، 2: 580 - والأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، (ت 282هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، المكتبة الحيدرية، قم، ط2، 1379هـ: 144.

فهذه الخطبة التي ذكرها الإمام عليه السلام في أوائل خلافته، تكشف عن نسق المجتمع الذي يبدو أنه في حيرة من أمره، لا يدري ما يفعل، وكأنهم ما سمعوا القرآن، ولم يعوا ما قاله النبي صلى الله عليه وآله، بما يغيرهم من الجاهلية إلى الإسلام، لذا عاد الخطاب وكأنه يؤسس للإسلام من جديد، فتناول مبادئه الأولى، وتعاليمه الواضحة، التي تكررت من الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه، فقال عليه السلام: «**إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالْشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى اللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلى الْجَنَّةِ، إنَّ اللهَ تَعالَى حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، [وَأَحَلَّ حَلَالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ]، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بالإخلاص وَالتَّوحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا، فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بَمَا يَجِبُ...**»(1)، فهذه المعاني واضحة وليست بجديدة على المجتمع، فما الذي يدعو الإمام عليه السلام لذكرها، والتأكيد عليها؟.

يضمر كلام الإمام عليه السلام، بقاء الأثر الجاهلي في نفوس الناس، وعودة النزعة القبلية، وفي الوقت نفسه عدم التفاعل مع مبادئ الإسلام، وأداء فروضه، كما يكشف من جهة أخرى، الدور السلبي للولاة في عدم القيام بواجبهم تجاه الرعية، من هدايتهم وإصلاحهم، خاصة في زمن الخليفة الثالث، الذي شهد تمايزاً طبقياً، كان سبباً في وقوع الظلم والجور بين الناس، مما أدى إلى معارضة السلطة، ووقوع الاختلافات التي انتهت إلى مقتل الخليفة، لتضطرب أمور المسلمين، بما أعقب ذلك

(1) نهج البلاغة، خطبة 167: 304.

من فتن طالت الجميع، حتى أتهم الإمام عليه السلام. بمقتل الخليفة، فقال عليه السلام: «**لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي. وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الجَزَعَ، وَللهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالجَازِعِ**»(1).

فيكشف الكلام عن تمكن الفتن من النفوس، وكيل الاتهامات الباطلة، من غير دليل أو برهان، لأي كان حتى ولو كانت لرموز الإسلام - ومنها الإمام عليه السلام - المشهودة مواقفهم وتضحياتهم من أجل الدين، كما يضمر الكلام، تفهمه لحال الرعية وصبره عليها، وتأنيه في الرد على الشبهات، واختيار الأدلة القاطعة والقادرة على إيقاظ الناس من غفلتهم، إذ إن إصلاحهم من المبادئ الثابتة في منهجه عليه السلام.

أولاً: البيعة وأثرها في النسق(٢)

كانت بيعة الإمام عليه السلام بالخلافة حدثاً مفاجئاً وطارئاً في حينها، إذ لم يكن هناك تمهيد مسبق لها، أو تدرج في الوصول إليها، سواء من الناس أم من الإمام عليه السلام، فبعد تأخر الخلافة عنه، لم تنقل الأخبار أنه دعا إليها، أو رغب فيها، بل تحدثت بعكس ذلك، ومنها قوله عند إقبال الناس: «**دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لَا**

(1) المصدر نفسه، خطبة 30: 68.

(2) ينظر: الآداب السلطانية والدول الإسلامية، محمد بن علي بن طباطبا، دار صادر، بيروت: 86. - وينظر: تأريخ مختصر الدول، غريغوريوس الملطي بن العبري، دار الآفاق العربية، مصر، 1421هـ/ 2001م: 105.

تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ وَالْـمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ»[1]. فتلك البيعة التي بلغت حد الإجماع، يرى الإمام عليه السلام أن الناس لا يثبتون عليها، لما كان يتوقعه من أخطار وأحداث «**لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ**»، أو حسدها، ويمكن القصد من القلوب هو كناية، عن الذين بايعوا إنما بايعوا بعواطفهم، التي سرعان ما تتغير إذا ما حصل لها ما تكرهه، وقال: «**وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ**» لأنها ستحتار وتضلل بالشبهات. ثم قال عليه السلام: «**وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً**»[2].

يقول ابن أبي الحديد: «ومعنى قوله «**لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ**» انه شبهة وتأويل، فمن قائل يقول: أصاب علي، ومن قائل يقول أخطأ، وكذلك القول في تصويب محاربيه من أهل الجمل وصفين والنهروان وتخطئتهم، فإن المذاهب فيه وفيهم تشعبت وتفرقت جداً»[3]، وسيكثر عتاب الرعية، ومخالفتهم للإمام عليه السلام، لما يرونه من حكمه بالعدل، وإقامة الحق، ودفع الباطل، الذي لا يرضي الجميع في الغالب.

لذا قال: «**وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً**» وهذا الكلام دقيق

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 92: 169. وينظر: شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد: 7: 40، 41. - وينظر: أعلام الهداية، الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، لجنة التأليف، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ط3، 1427 هـ ق، 2: 176.

(2) نهج البلاغة، خطبة 92: 170.

(3) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 7: 40.

من الإمام عليه السلام يضمر حرصه الشديد على الإسلام والمسلمين، فهو في الوقت الذي يرفض إمارتهم، فهو لا يريد أن ينزوي عنهم بعيداً، فيختار طريقاً وسطاً لهداية الناس وإرشادهم، فلم يكن يرغب في الخلافة آنذاك: «**فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ إِلَيَّ كَعُرْفِ الضَّبُعِ يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى لَقَدْ وُطِىءَ الحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ مُجْتَمِعِينَ حَوْلي كَرَبِيضَةِ الغَنَمِ**»[1]، لحيرتهم وخوفهم واضطرابهم، وفي خطبة أخرى يقول: «**وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَّ الإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ، وَوُطِىءَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ**»[2].

فلم يغير ذلك من موقفه الرافض لبيعتهم ولم يعول عليه السلام كثيراً على الرعية، ومن بايعه على الخلافة، مع إقبالهم الشديد عليه، فإن موقفهم بحسب رأي الإمام عليه السلام جاء متأخراً، لا ينفعه ولا ينفعهم بعد ما مكنوا منهم أهل الفتن والضلالة، فصعب إصلاحهم، وإقبالهم عليه كالإبل العطاش، واجتماعهم حوله كربيضة الغنم، يشعر أن موقفهم موقف المعتذر عن الذنب وإن مبايعتهم هي تكفير عن تلك الخطيئة التي ارتكبوها مع الإمام عليه السلام من تفريطهم به من قبل، وأنهم لجئوا للإمام عليه السلام لكي يقتص ممن كان سبباً في ضلالتهم[3]. إلا أن

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 3: 31.

(2) نهج البلاغة، خطبة 229: 443.

(3) ينظر: البداية والنهاية، أبو الفداء الدمشقي ابن كثير، (ت 774هـ)، وثقه علي محمد معوض وآخرون، وضع حواشيه د. أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت ط2، ، 2005م/ 1426هـ، 7: 222.

الإمام عليه السلام يجعلهم هم السبب فيما وصلوا إليه من الحيرة والضلالة، ويكشف ذلك في خطبة له يجيبهم بها، عندما قالوا له: «لو عاقبت قوماً ممن اجلب على عثمان»، فرد عليهم قائلاً: «**وهَاهُمْ هؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانِكُمْ، وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاؤُوا؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيءٍ، تُرِيدُونَهُ؟! إِنَّ هذَا الْامْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً**»[1].

فيضمر الكلام تخبطهم، وعدم تمييزهم بين الحق والباطل، فحكم الإمام عليه السلام على بيعتهم بالفشل من يومها الأول، إذ هم الذين اجلبوا أهل الفتن، وهم الذي يطالبون بالاقتصاص منهم، لذا قال الإمام عليه السلام: «**إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلكِنْ كَيْفَ لي بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْـمُجْلبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ!**»[2]، فما جدوى البيعة، إذا لم يكن لها أثر في حقيقة نفوسهم، وعدم استجابة الرعية للراعي، على أن استجابة الإمام عليه السلام لهم، كانت من منطلق إيمانه بعقيدته، وكذلك ليلقي الحجة عليهم، بعدما القوها بساحته، فقال عليه السلام: «**أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِها، وَلأَلفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ**»[3].

فكما أبتعد عن دنياهم، وما يتنازعون عليه في أول الأمر - الخلافة

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 168: 305.
(2) المصدر نفسه: 305.
(3) نهج البلاغة، خطبة 3: 32.

الأولى - يريد أن يبتعد عنهم اليوم، ومنعه من ذلك ما قدمه من أسباب، فإن قيامه أو قعوده تحدده مصلحة الإسلام والمسلمين، وأن في قبوله الخلافة تقليلاً لمعاناتهم، ومحاولة لإعادتهم إلى طريق الهداية، لذا قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ، لكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً [بِمَا] خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأدْنى، وَوَصَلْتُمُ الْأبْعَدَ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مَؤُونَةَ الِاعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأعْنَاقِ**»(1).

يقول ابن أبي الحديد: «**تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»: حرتم وضللتم الطريق، وقد جاء في المسانيد الصحيحة، أن رسول الله ﷺ قال: «لتركبن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، فقيل يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذاً»(2)، فإنما اعتذر عن الخلافة لبقائهم على حالهم في عدم نصرة الحق وإبطالهم الباطل.

ثانياً: منهاج الإمام عليه السلام:

سعى الإمام عليه السلام في خطابه مع الرعية في فترة خلافته إلى أمرين رئيسين، الأول: إتباع منهج الرسول ﷺ، والثاني إصلاح أمر الرعية، فالأول نستنتجه من خلال تأكيده على السير بسيرة النبي ﷺ، فقد قال لهم: «**وَاللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ ﷺ شَيْئاً إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا الْيَوْمَ**

---

(1) المصدر نفسه، خطبة 166: 303.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 9: 306.

مُسْمِعُكُمُوهُ، وَمَا أَسْمَاعُكُمُ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالأَمْسِ، وَلَا شُقَّتْ لَهُمُ الأَبْصَارُ، وَلا جُعِلَتْ لَهُمُ الأَفْئِدَةُ في ذلِكَ الزَّمَانِ، إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هذَا الزَّمَانِ. وَوَاللهِ مَا بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ، وَلَا أُصْفِيتُمْ بِهِ وَحُرِمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ الْبَلِيَّةُ جَائِلاً خِطَامُهَا رِخْواً بِطَانُهَا فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ»[1]، فيضمر كلامه صعوبة التعامل مع الرعية لشدة ضلالتها، فبعد تلك الأيام التي شهدوها هم وآباؤهم مع رسول الله ﷺ وصحبته، ونصيحته لهم، وإضاءة الطريق لهم، فلم ينتفعوا بها، فكيف سينتفعون من الإمام عليه السلام بعد ذلك؟!.

أما نسق الخطاب في إصلاح الرعية، فلقد اتخذ فيه مسارين، الأول: تحدث فيه عن نفسه، وبيّن رأيه المبني على أساس ثقافته الإسلامية، والثاني الخطاب الموجه للرعية، ومنه قوله في أوائل بيعته: «وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْاطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَلَسْتُ - بِحَمْدِ اللهِ - كَذلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً للهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ»[2].

فتعظيم الولاة، والمبالغة في الإطراء والثناء عليهم، نسق اعتاد عليه الولاة والرعية على حد سواء، ففي الكلام إضمار لذم الرعية في مدح الولاة وتعظيمهم بحق أو بغير حق لأن في ذلك إغراء للحاكم، في الرضا عن أفعاله مهما كانت تجاه الرعية، مما يؤدي إلى الظلم والجور، ويزداد

(1) نهج البلاغة، خطبة 89: 146.

(2) المصدر نفسه، خطبة 216: 420، 421.

الأمر سواءً إذا كان ذلك أول بيعة الحاكم وتنصيبه إماماً للناس، فهم لم يجربوه، لذا قال عليه السلام: «**وَرُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَ إِلَيْكُمْ مِنَ الْبَقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا**»(1).

فإن الثناء على الولاة بعد أدائهم، حقوق الرعية، والسعي في قضاء حوائجهم، فيه وجه استحسان، وإن كان الوالي لا يستحق شكراً على أداء واجباته، ويمضي الإمام عليه السلام في كسر النسق السائد من طريقة خضوع الرعية للراعي إلى الحد الذي تجعل التفاوت بينهما كبيراً، فينهى عن ذلك، فيقول: «**فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ وَلَا تُخَالِطُونِي بالْمُصَانَعَةِ وَلَا تَظُنّوا بِيَ اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلَا الْتمَاسَ إِعْظَام لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ، فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ**»(2).

فيوسع الإمام عليه السلام من دائرة الحرية التي يجب إعطاؤها للناس، ورفع التكلف والتصنع للحاكم، ويرفع عن الحاكم العصمة التي يصطنعها هو لنفسه، فيؤدي به إلى الاستبداد برأيه، وعدم المشورة في حكمه، فيتسبب ذلك في ظلم الآخرين. ولأن المال له الدور الأساس في بناء الدولة، وعليه تقف سائر أركانها، فقد أولى الإمام عليه السلام اهتماما بذلك، ولأن المال أحد أسباب الفتنة في زمن الخلافة السابقة، لم يخفِ الناس

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 216: 421.

(2) نهج البلاغة، خطبة 216: 421. وينظر: نظرية التنظيم والإدارة في فكر الإمام علي عليه السلام، د. عيسى مكي عبد الله، مكتبة فخراوي، المنامة، مملكة البحرين، ط1، 2009م: 95.

اهتمامهم بهذا الأمر، فتوجهوا للإمام عليه السلام بالسؤال عن الأموال المأخوذة في زمن عثمان، فقال: «**وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الْإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ؛ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ**»(1).

فقد عاش الإمام عليه السلام مع فئة من الناس ترى نفسها أحق من غيرها بالمال بحجة أنهم أسبق إلى الإسلام، فقال: «**أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ، وَاللهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ**»(2)، فقال هذا الكلام لما رأى إصرارهم على هذا الأمر وأنهم عاتبوا الإمام عليه السلام على تسويته في العطاء بين الرعية، من غير تفضيل أولي السابقات والشرف، وهذا الإصرار من هذه الفئة سببه أن هناك ولاة مهدوا لهذا التميز بين المسلمين، وتصنيفهم طبقات يعلو بعضها بعضاً.

وحادثة الإمام عليه السلام مع أخيه عقيل مشهورة في مساواته مع الناس في العطاء، لا يميزه لقرابته منه، فقال: «**وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا**»(3).

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 15: 43.

(2) نهج البلاغة، خطبة 126: 231.

(3) المصدر نفسه، خطبة 224: 437.

إننا لا نقرأ ذلك كحادثة عابرة، لا تتعدى ساعة وقوعها، فعقيل ليس رجلاً عادياً فهو شخصية معروفة، لها مكانتها بين الناس، لا يمكن أن يفرط بها لمجرد حاجته إلى قليل من المال، وهو بعد ذو حظوة عند الإمام عليه السلام لا يستغني عنها بسهولة، فلو كانت الغاية النصيحة، لكان يكفي عقيل الإشارة، أو قليلاً من الكلام، أو على الأقل تبقى سراً بين الأخوين لا يعلم بها أحد، لما فيها من تعريض، إلا أن الإمام عليه السلام تحدث بها أمام الملأ في خطبة عامة، وما كان ليفعل ذلك لولا أنه يعلم أن ذلك سيؤدي غرضاً عاماً[1]، وستؤثر في الآخرين، وفعلاً إن ما قام به الإمام عليه السلام مع عقيل، يصلح أن يستشهد به عند كل حاكم أو سلطان، فما زالت الناس تتناقل تلك الحادثة إلى يومنا هذا.

كما أن الحادثة تضمر دور القرابة النسبية في نسق المجتمع آنذاك وعلاقته بالسلطة، فأصبح الناس بوعي أو بغير وعي يرون أن القرابة لابد أن تميز عند السلطان، وقد مر أن هذه المفاهيم ترسخت في زمن الخليفة الثالث. ومثل حادثة عقيل كثير من الخطب والوقائع التي يمكن عدها نسقاً فيها، فالإمام عليه السلام لا يدع مناسبة - وإن كانت شخصية - دون استثمارها في توعية الناس، وقد يبدو فيها أكثر حزماً، كما حصل مع الأشعث بن قيس[2]، عندما كان الإمام عليه السلام يتحدث بحديث على منبر الكوفة، فقال الأشعث: «**يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك،**

(1) ينظر: الفتنة الكبرى، طه حسين، طبع دار المعارف، مصر، لاط، 1968م، 2: 111.

(2) ينظر: الخوارج في العصر الأموي، نشأتهم، تأريخهم، عقائدهم، أدبهم، نايف محمود معروف، دار الطليعة، بيروت: 70.

فقال عليه السلام: «**ومَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي!... وَاللهِ لَقَدْ أَسَرَكَ الكُفْرُ مَرَّةً وَالإِسْلامُ أُخْرَى، فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلَا حَسَبُكَ، وَإِنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَسَاقَ إِلَيْهِمُ الحَتْفَ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمقُتَهُ الأَقْرَبُ، وَلَا يَأْمَنَهُ الأَبْعَدُ**»[1]، فدل كلامه على اختلاط المفاهيم، وبروز فئات خطيرة على الإسلام، امتازت بتعديها على السلطة، ومبادئها العامة، لم يتردد الإمام عليه السلام في كشفها للناس، ليحذروا منها، فإن من سمات خطابه التمييز بين من يقف مع الإسلام، وبين من يقف ضده[2].

ثالثاً: النسق العام في وصف الرعية

إن الصفة الغالبة في الخطب الموجهة للرعية، هي التبرم منها، وذمها، فهو خطاب (شكوى) في أكثر مقاماته، إذ يندر وجود خطبة يمتدح فيها الإمام عليه السلام الرعية، ويمكن معرفة صفات الرعية، والأسباب التي دعت الإمام عليه السلام إلى التذمر والشكوى منها، من خلال استعراض بعض الخطب الموجهة إليها، ومنها:

أولاً: عدم الاعتبار بالتجارب: قال عليه السلام: «**جَرَّبْتُمُ الأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتِ الأَمْثَالُ لَكُم، وَدُعِيتُمْ إِلَى الأَمْرِ الْوَاضِحِ؛ فَلَا يَصَمُّ عَنْ ذلِكَ إِلَّا الأَصَمُّ، وَلَا يَعْمَى عَنْهُ إِلَّا الأَعْمَى. وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ الْتَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ. وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً، وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ،**

(1) نهج البلاغة، خطبة 176: 319.

(2) الخوارج - تاريخهم، فرقهم، عقائدهم، أحمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م: 115.

وَلَا ضِياءُ حُجَّةٍ»[1]. فتأكيد الإمام عليه السلام على التجارب التي مروا بها، يدل على عدم استفادتهم منها مع كثرتها، وفي نفس الوقت تكون هذه التجارب شاهداً على كلام الإمام عليه السلام فهي مما لا ينكرونه.

ثانياً: مخالفة أفعالهم لأقوالهم: قال عليه السلام: «**أَيُّهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلامُكُم يُوهِي الصُّمَّ الصِّلابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْاعْدَاءَ!... مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلَا اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ... أَصْبَحْتُ وَاللهِ لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلَا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُم**»[2]، فكثر مثل هذا التأنيب للرعية، لما وجده الإمام عليه السلام منهم، من تخاذل، واختلاف رأي، حتى صار ذلك إحدى مميزاتهم، وسبباً من أسباب تمكن العدو منهم، وانتشار الفتن بينهم، ويوحي كلام الإمام عليه السلام بكثرة عددهم وأنهم لو صدقوا في عهدهم ونصرة الإمام عليه السلام، لما تمكن أحد منهم، إلا أنهم يقلون في ساحات القتال، وعند مواجهة العدو.

ثالثاً: غفلتهم عن الحق: قال عليه السلام: «**حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمُ، استَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بَمَا أَدْرَكُوا منْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ. إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هذِهِ الْمَنْزِلَةَ، فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَالضَّلَالَ في الْمَغَاوِي...**»[3].

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 176: 319.

(2) المصدر نفسه، خطبة 29: 66، 67.

(3) المصدر نفسه، خطبة 153: 268.

فدل الكلام على طول غفلتهم، حتى لا تنفعهم الموعظة معها أو النصيحة إذ تأتي متأخرة، فهم قليلاً ما يتفكرون في أمورهم، وخاصة بعد مجيء الإسلام إليهم، الذي دعاهم إلى إعمال عقولهم والتدبر بآيات الله سبحانه في أنفسهم وفي الآفاق، فإن تكرر الخطاب في التنبيه للرعية وذمها على ما هم فيه من غفلة، دل على سذاجة تفكيرهم والحيرة التي هم فيها.

رابعاً: تأثرهم بالعصبية القبلية: وهي أكثر ما سعى الإمام عليه السلام إلى معالجتها لاستحكامها في النفوس، وقد سعى البعض لإحيائها، بعدما كاد يقضي عليها الإسلام، ومن خطبة له عليه السلام قال: «**فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ، وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ وَاعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ**»(1).

يريد عليه السلام ليقطع كل ما يمت للجاهلية بصلة، لما تشكله من خطر على الإسلام، وعلى تعاليمه التي استبدلت بالكفر الإيمان، وبالكبر التواضع، وبالحمية الجاهلية، والانتماء للدين، وقد رأى الإمام عليه السلام أن تعصبهم الأعمى، ونزعاتهم الجاهلية بلغت حداً ليس له علة، أو سبب يفسر تمسكهم بها، لذا قال: «**وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلَاءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ ,فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ...**»(2).

(1) نهج البلاغة، خطبة 192، 363.
(2) المصدر نفسه، خطبة 192: 371، 372.

فيفهم من كلامه عليه السلام أن التعصب أمر مستشرٍ في الأمة (العالمين)، ونسق اجتماعي مستحكم، ومبالغة في توبيخهم، فقد ذكر لهم أن التعصب لا بد أن تكون له علة، ولو لتمويه الجهلاء والسفهاء، أما من يخاطبهم فلا علة لتعصبهم حتى يموهوا بها لعاقل أو جاهل، بل ذكر لهم أن (إبليس) قد كان تعصبه لعلة، فقال: «**أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ**»[1].

فكشف ذلك عن حالهم الفظ الغليظ الذي يصعب التعامل معه، وهو ما دعاه لذمهم والشكوى منهم، ولمجاراتهم وتنبيههم، وذكر لهم العصبية الممدوحة التي تنسجم مع الدين، فقال: «**فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ** - وهذا ما يشعر بأنها مستحكمة - **فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَالأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، وَالإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَالإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ...**»[2]، فقد أقر الإسلام مكارم الأخلاق هذه، وندب الناس إليها، واستبدل بالصفات السيئة، الصفات الحميدة، ويضمر الكلام ارتباط تلك المحامد والتاريخ وبيوتات المجد - التي منها البيت الهاشمي - بمحامد نفسه، التي تربى عليها، واكتسبها في الإسلام.

خامساً: حب الدنيا ونسيان الآخرة: مما تكرر ذكره في الخطب

(1) المصدر نفسه، خطبة 192: 372.

(2) نهج البلاغة، خطبة 192: 372.

كثيراً، وهو ذم الدنيا وبيان حال أهلها، والتذكير بالآخرة، وبيان فضلها، فقال: «**مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ**»[1].

فلا زالوا يتمسكون بالدنيا ويذرون الآخرة، وكأنهم لم يسمعوا بآيات الله سبحانه، فحب الدنيا مغروس في النفس البشرية، لأنها تميل إلى الأمور الحسية القريبة، والمجتمع آنذاك مجتمع بسيط اعتمد على ما حوله من الطبيعة، وما زالت الثروات والغنائم التي يحصل عليها من الحروب والغزوات تشكل جزءاً من تفكيره، وأن تأثره بالبطولات الجاهلية، وأبطالها لا زالت ماثلة فكان الاستعداد للتضحية والقتال بقدر ما يحققه من غنائم، أما الأمور الغيبية والعالم الآخر والجنة والنار، فهي مفاهيم جديدة، عرفها في الإسلام.

لذا كان الإمام عليه السلام كثيراً ما يفرق في خطابه بين الجاهلية والإسلام، ويحاول أن يعزز من ارتباطهم بالدين ارتباطاً روحياً، فيكشف لهم مساوئ الدنيا، ويرشدهم إلى محاسن الآخرة، ويذكرهم بالموت، ومصيرهم المحتوم، كما في خطبة له قال فيها: «**قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الْآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُم إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللهِ، مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمائِرِ، فَلَا تَوَازَرُونَ، وَلَا تَنَاصَحُونَ، وَلَا تَبَاذَلُونَ، وَلَا تَوَادُّونَ. . .**»[2].

---

(1) المصدر نفسه، خطبة 113: 211.

(2) نهج البلاغة، خطبة 113: 211.

وأكثر ما نلحظه في خطب الإمام عليه السلام تقاعس الرعية عن الجهاد، وهو من نتائج حب الدنيا وتقديم مصالحهم الشخصية على مصلحة الإسلام، فقال: «**أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لها وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا؛ وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ**»[1]، فعبر الإمام عليه السلام عن العام بالخاص، فنسب المال العام إليهم، محاولة منه لشحذ هممهم، وتحريرهم من نزعاتهم الشخصية، وإيقاظهم من غفلتهم، الذي أدى إلى تحيرهم وتشتت أمرهم، ويضمر الكلام قلة انتفاعهم من المواعظ على كثرتها، مما دعا الإمام عليه السلام أن يقول: «**وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ، قَوْمٌ واللهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدُماً عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بَالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ**»[2].

فيضمر الكلام، اليأس من إصلاحهم، وقد استوحش الإمام عليه السلام من زمنهم، إذ لم يجد فيه مثل أصحابه الأوائل الذين ضحوا بأنفسهم من أجل الإسلام، وانعدام مثل تلك النفوس الكبيرة، فهو لا يرجو أن يجود له الزمان بأمثالهم حتى تمنى الموت ليلحق بهم، فأولئك هم الذين يطيعونه ويأخذون برأيه، مع مالهم من عقل راجح ورأي سديد، وشتان ما بينهم وبين رعيته التي لا رأي لها، ولا هم يأخذون برأيه.

(1) المصدر نفسه، خطبة 116: 219.

(2) المصدر نفسه.

المبحث الثالث: نسق المعارضة

تناولت خطب الإمام عليه السلام ألواناً من المعارضة التي وقفت ضده، حتى يُعدّ ذلك من أنساقها الظاهرة فمنها ماكانت لها جذور قديمة ومنها ما أفرزتها الأحداث لاحقا، وقد برزت جميعها أيام خلافة الإمام عليه السلام، بل مع أيامها الأولى، فقال عليه السلام: «**فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَفَسَقَ آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ:** ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، **بَلَى وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلكِنَّهُمْ حَلِيَتَ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا**»[2].

فيضمر الكلام إن أسباب تلك المعارضة سياسية إذ قامت مع قيام الإمام عليه السلام بأمر الخلافة، خاصة أن أول أشكال المعارضة بدأت ممن كانوا قد بايعوا الإمام عليه السلام على الخلافة ثم نقضوا البيعة، وكانوا من الناكثين لها، حتى اشتهروا بهذا الاسم، على ما ينقل عنهم التاريخ، كما يضمر كلام الإمام عليه السلام، أن الداعين إليها كانت دوافعهم شخصية[3]،

---

(1) سورة القصص، الآية: 83.

(2) نهج البلاغة، خطبة 3: 31.

(3) ينظر: الإمامة والسياسة، ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ)، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ، بيروت، لاط، 1418هـ - 1997م: 47، 48.

ولأغراض دنيوية وأنهم ممن آمن بالدين وسمعوه وعقلوه، إلا أنهم تمردوا عليه، فعبر عنهم الإمام عليه السلام بما عبر القرآن الكريم عن أمثالهم في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(1).

يكشف كلام الإمام عليه السلام أن منهجه هو منهج إصلاحي، يهدف إلى القضاء على الفساد، وكل أشكال التسلط والاستبداد، ومحاربة النزعات الجاهلية المتخلفة، إذ لم يكن لتلك المعارضة أي مشروع واضح، او مصلحة عامة تنفع المسلمين، بل أثرت في حركاتها على مسيرة الدولة الإسلامية تأثيراً سلبياً، وعطلت تقدمها، إذ كانت معارضة مبنية على نسق جاهلي يقوم على الاستعلاء والتكبر والظلم، مما سبب فتنة كبيرة بين المسلمين. فبعدما حارب النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلك الممارسات الجاهلية، وتمكن من الحد منها في حياته، وظلت بعد وفاته، بعيدة عن الساحة السياسية، مدة الخلافة الأولى والثانية، عادت للظهور في زمن الخليفة عثمان، فانتعشت العصبية القبلية من جديد، ومهدت لقيام تلك الحركات السياسية المعارضة للنظام الإسلامي، فوجدت نفسها تمتلك أدوات النهوض بثورة ضد السلطة كان من أهمها فتنة مقتل الخليفة عثمان، والأموال الطائلة التي استولت عليها من بيت المال فاصطدمت مع سياسة الإمام عليه السلام، الذي تصدى لها جميعها، فعلاً وقولاً، كما سيتضح ذلك من خلال خطبه فيها.

وكان أبرز أولئك المعارضون هم: الناكثون والقاسطون والمارقون، وقد ذكرهم الإمام عليه السلام جميعاً في خطبة له مخاطبهم فيها قائلاً: «**أَلَا**

(1) سورة النمل، الآية: 14.

وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْاسْلَامِ، وَعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِيَ اللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ والنكث والفساد في الأرض فأما الناكثون فقد قاتلت وأما القاسطون فقد جاهدت وأما المارقة فقد دوخت. . .»[1].

يقول ابن أبي الحديد: «قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له عليه السلام: «ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين، فكان الناكثون أصحاب الجمل لأنهم نكثوا بيعته عليه السلام، وكان القاسطون أهل الشام بصفين، وكان المارقون الخوارج في النهروان وفي الفرق الثلاث قال الله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[2]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[3]. وقال النبي ﷺ: «**يخرج من ضئضيء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. .**»[4]، ويرى ابن أبي الحديد أن هذه الأخبار من علم الغيب، الدالة على نبوة النبي ﷺ [5].

أولاً: الناكثون

امتازت خطب الإمام عليه السلام حول هذه الفئة، بأن ضمنها الأدلة والحجج التي كانت سبباً في نكث بيعته، وذلك لخطرها على السلطة، إذ كان على رأس الناكثين رجال معروفون في الإسلام، ومعارضتهم للإمام عليه السلام ستسبب لبساً على المسلمين، لذا سارع الإمام عليه السلام إلى كشفهم، خاصة بعد أن اتهموا الإمام عليه السلام بمقتل الخليفة الثالث، واتخاذه ذريعة لتأليب الناس ضده، لذا قال عليه السلام: «**وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ**

(1) نهج البلاغة، خطبة 192: 377.
(2) سورة الفتح، الآية: 10.
(3) سورة الجن، الآية: 15.
(4) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 13: 193.
(5) ينظر: المصدر السابق 13: 194.

مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِفاً، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ فإن كنت شريكهم فيه، فإن لهم نصيبهم منه، وان كانوا ولوه دوني فما الطلبة إلا قبلهم وإن أول عدلهم للحكم على أنفسهم، وإن معي لبصيرتي، ما لبست ولا لبس عليّ»[1].

يكشف الكلام خطر هذه الفئة فإنهم وإن كانوا سبباً في مقتل الخليفة إلا إنهم استطاعوا أن يحولوا ذلك إلى صالحهم، ويكونوا هم الدعاة للطلب بدم الخليفة، كما يضمر الكلام عدم وجود وسيلة للرد على هذه الشبهة إلا أن يردها الإمام عليه السلام بنفسه، ويكشف اللبس الذي فيها، لذا قال: «**وان معي لبصيرتي، ما لبست ولا لبس عليّ**»، وفي خطبة أخرى خص بها هذه الفئة قال: «**إنَّ هؤُلَاءِ قَدْ تَمَالؤوا عَلَى سَخْطَةِ إمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هذَا الرَّأْي انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ فَأَرَادُوا رَدَّ الأمور عَلَى أَدْبَارِهَا. وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ وَسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ»**[2].

فيضمر الكلام قوة تأثير هؤلاء على مجريات الأحداث من خلال الشبهات التي أثاروها وإن من المسلمين من استجاب لهم، وصدق ادعاءاتهم، فخاف الإمام عليه السلام على تفرق كلمة المسلمين، كما يشعر الكلام أن هناك تشكيكاً من الناس بحكم الحاكم بحسب الخلافة

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 137: 244، 245. وينظر: في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية، مطبعة ستار - قم، ط1، 1427 هـ، 2: 291.

(2) المصدر نفسه، خطبة 169: 307.

- ينظر: الإمام علي عليه السلام صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، طليعة النور، قم، ط1، 1425هـ، 1: 144.

السابقة، لذا اضطر الإمام عليه السلام لرفع هذا التشكيك والالتباس على الناس بتعهده إليهم بقوله: «**وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ وَسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله**، **فإن الناس ما جاءوا إلى الإمام عليه السلام إلا لأنهم يرونه الأقدر على العمل بسنة الرسول صلى الله عليه وآله المعطلة، واضطراب أمورهم قبل البيعة، دل على ذلك ما ذكر لهم من استعداده للقيام بحق الرسول صلى الله عليه وآله «وَالْنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ»**».

وقد بلغ من خطورة هذه الفئة أنها، راحت تهدد بالحرب - بين المسلمين - مما دعا الإمام عليه السلام إلى توجيه كلامه إلى رؤوس هذه الفتنة ومنهم (طلحة بن عبيد الله) فقال: «**قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بالْحَرْبِ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ، وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَني رَبِّي مِنَ النَّصْرِ. وَاللهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمانَ إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لَانَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَومِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ الْامْرُ وَيَقَعَ الشَّكُّ**»[1].

أن الحجج التي قدمها الإمام عليه السلام كانت كافية في إبطال إدعاء الناكثين، فلم يتمكنوا من التأثير على السلطة (سياسياً) فالتجؤا إلى التهديد بالحرب، وهو ما يدل على إصرار هؤلاء على موقفهم المعادي للإمام عليه السلام، والذي يرى مع قدرته بالحرب عليهم أن ذلك سيؤدي إلى تفرق المسلمين، فقال في خطبة له: «**إنَّ النَّاسَ مِنْ هذَا الْامْرِ - إذَا حُرِّكَ - عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ، وَفِرقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لا تَرَى لا هذَا وَلَا هذَا، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً فَاهْدَأُوا عَنِّي، وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا**

(1) نهج البلاغة، خطبة 174: 313.

تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مُنَّةً، وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً. وَسَأُمْسِكُ الْأمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ، وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّواءِ الْكَيُّ»[1]. فيدل ذلك على اختلاف الآراء، بسبب عدم استقرار حال الناس، وأن هناك من يعمل على تضليلهم وزعزعة استقرارهم.

أن الإمام عليه السلام يقصد في كلامه إلى التهدئة والتأني في الأمرإلى معرفة من هو مضلل جراء التباس الأمور عليه فيسعى لإصلاحه، ومن هو مصر على الفتنة فيقاتله، لذا ميز في خطابه بين مريدي الفتنة وبين عامة الناس، فلما كان طلحة والزبير من أسبابها، فقد صرح بهما ودعا عليهما وخصهما بكلامه، فقال في خطبة له قبل مقاتلتهما: «**اللهم إنهما قطعاني وظلماني، ونكثا بيعتي، وألبا الناس عليّ؛ فاحلل ما عقدا، ولا تحكم لهما ما ابرما، وارهما المساءة فيما أملا وعملا، ولقد استتبتهما قبل القتال، واستأنيت بهما امام الوقاع، فغمطا النعمة، وردا العافية**»[2].

فيوحي كلامه أن الناس مغلوب على أمرها، ولم يخاطبهم على إنهما فئتان متقابلتان، بل هم عنده جميعاً مسلمون، فوصف أصحابه ومن قاتلوهم رحماً واحدة، وكان طلحة والزبير سبباً في قطعها، والتسبب في اقتتال المسلمين فيما بينهم[3].

---

(1) المصدر نفسه خطبة 168: 305، 306.

وينظر: سيرة الأئمة الاثني عشر، هاشم معروف الحسيني، مطبعة ثامن الحجج، بيروت، ط1، 1428هـ: 219، 220.

(2) نهج البلاغة خطبة 137: 246.

(3) ينظر: تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر)، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي (ت732 هـ)، تح: محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997 م، 1: 238. وينظر: تأريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت292هـ)، دار الاعتصام للطباعة والنشر، ط2، قم المقدسة، 1425 هـ: 124. وينظر: المنتظم في تأريخ

ثانياً: القاسطون

اتسمت خطب ما بعد حرب الناكثين، بتأثرها بنسقين متضادين، الأول يمثله أهل الكوفة، والثاني يمثله أهل الشام، فكان الإمام عليه السلام يعقد لهما في تلك الخطب ما يشبه المقارنة، ليبث شكواه من تقاعس جيشه ورعيته عن طاعته وتفرقهم عنه، مع إنهم أصحاب حق وعقيدة كما يدعون، في الوقت الذي يطيع أهل الشام قائدهم (معاوية) مع أنهم على باطل، ومن خطبة له يصف بها أصحابه قال: «**أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلكِنْ لإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا**»[(1)].

فهو لا يريد هنا أن يمدح أهل الشام فإن اجتماعهم على الباطل، وإنما أراد أن يذمهم ويذم معاوية وأيضاً يذم أصحابه، فأما ذم أهل الشام فلقبولهم الظلم وطاعتهم الظالم، وأما معاوية فلمعصيته الإمام عليه السلام، ومحاربته الإسلام، وأما أصحابه فلعدم طاعتهم وتفرقهم عنه، مع علمهم بإنصافه لهم، وحكمه العادل بينهم لذا قال: «**أَشُهُودٌ غُيَّابٌ وَعَبِيدٌ أَرْبَابٌ! أَتْلُوا عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَأ تَرْجِعُونَ إِلى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ،**

المـلوك والأمم، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (ت579 هـ) تح: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 5: 79.

(1) نهج البلاغة، خطبة 97: 176، 177.

أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً، وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ عَجزَ الْمُقَوِّمُ، وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ»(1).

فلا جدوى من كثرتهم وحضورهم، لأنهم منهزمون في أنفسهم، وقد ضعفت عقيدتهم وعقولهم، وانقادوا إلى أهوائهم، لم ينتفعوا بما يوعظون به، فقال: «أَيُّهَا القَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ، صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ، لَوَدِدْتُ وَاللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ!»(2).

يظهر من كلام الإمام عليه السلام كثرة أصحابه، ولكنهم قليلون في عزيمتهم، وطاعتهم لإمامهم، وقد يأس منهم، ووجد مداراته لهم، لا يزيدهم إلا ضعفاً وفراراً، فقال: «كَمْ أُدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَى الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ وَالثِّيَابُ الْمتَدَاعِيَةُ! كُلَّما حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ، كُلَّما أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَانْجَحَرَ انْجِحَارَ الضَّبَّةِ في جُحْرِهَا، وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا. الذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ! وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ. إِنَّكُمْ - وَاللهِ - لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ، وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ وَلكِنِّي واللهِ لَا أَرى إِصْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي»(3).

يكشف الكلام أن حال رعيته تزداد بعداً عن الحق، وأنهم استسلموا

(1) المصدر نفسه، خطبة 97: 177.

(2) المصدر نفسه، خطبة 97: 177.

(3) نهج البلاغة، خطبة 69: 107.

لأهل الشام، ومما عاناه الإمام عليه السلام من رعيته، هو عدم فهمهم للإسلام الذي يريد الإمام تطبيقه عليهم، وأنه علم أن طاعتهم وإخضاعهم له، إنما يكون بظلمهم والجور عليهم ولكن هذا ما لا يرتضيه لنفسه، مما جعله يعيش مستوحشاً منهم كالغريب بينهم، لم يجد أصحاباً كأصحابه الأوائل الذين فارقوه وراح يردد أسماءهم ويقول: «**أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ، وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوه**»[1].

فيضمر ذكره لأصحابه الذين رحلوا عنه، عدم وجود من هم على شاكلتهم في رعيته، وأن من معه بعيدين عن القرآن، لا يقرأوه، وإن قرأوه لا يحكموه، ولا هم يؤدون الفرائض بتدبر، وأنهم قد أماتوا السنة، وأحيوا البدعة، ولا يجيبون إذا دعاهم للجهاد، ولا يتبعون أوامره، فإن هذه الصفات تنطبق تماماً على جيش الإمام عليه السلام، فهو يذكر محاسن أصحابه السابقين، ويريد به مساوئ رعيته.

وفي خطبة أخرى تظهر تخاذل جيشه، قال: «**فَيَا عَجَباً! عَجَباً - وَاللهِ - يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِن اجْتِماعِ هؤُلاَءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ!... فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِم فِي أَيَّامِ الحَرِّ قُلْتُمْ: هذِهِ حَمَارَّةُ القَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هذِهِ صَبَارَّةُ القُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا البَرْدُ، كُلُّ ذلِك فِراراً مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ تَفِرُّونَ، فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ**

(1) المصدر نفسه، خطبة 182: 332.

أَفَرُّ. . . لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكمْ مَعْرِفَةً - وَاللهِ - جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعقَبَتْ سَدَماً»[1].

ويقصد إلى ذم الخلافة، إذ كانت هي السبب في معرفتهم على حقيقتهم وكشف نفوسهم إليه، الأمر الذي جعله يندم على قبول خلافتهم، وقد ختم بقوله: «**وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالعِصْيَانِ وَالخذْلَان، حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَلْكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالحَرْبِ. . . وَلكِنْ لا رَأْيَ لِمنْ لَا يُطَاعُ**»[2]، وهي أصعب كلمة يرددها الإمام وتضمر تألمه الشديد من جيشه.

ثالثاً: المارقون

المارقون تسمية أطلقت على الخارجين من الدين، وفي لسان العرب: «**ومَرَقَ السهمُ من الرَّمِيَّة يَمْرُقُ مَرْقاً ومُرُوقاً: خرج من الجانب الآخر. وفي الحديث وذكر الخوارج: يَمْرُقُونَ من الدِّين كما يَمْرُق السهم من الرميّة أَي يَجُوزونَهُ ويخرقونَهُ ويتعدّونه كما يخرق السهم المَرْميّ به ويخرج منه.**

وفي حديث علي عليه السلام: **أُمِرْتُ بقتال المارِقينَ، يعني الخوارج، وأَمْرقْتُ السهم إمْراقاً، ومنه سميت الخوارج مارِقةً، وقد أَمْرَقهُ هو. والمُرُوق: الخروج من شيء من غير مدخله. والمارِقةُ: الذين مرقوا من الدِّين لغُلُوّهم فيه**»[3]، وهذه الفئة ظهرت في زمن خلافة الإمام عليه السلام بعد حرب صفين ضد معاوية، وقد خرجت من الدين لذا سمي أتباعها

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 97: 177.
(2) المصدر نفسه، خطبة 27: 63، 64.
(3) لسان العرب: ابن منظور، 13: 85.

بالخوارج، وامتازت هذه الفئة بإثارتها للشبهات في الدين، وقد ذكرهم الإمام عليه السلام في كثير من خطبه، مفنداً آرائهم، وراداً على شبهاتهم، وقد ذكرهم في جملة معارضيه قائلاً: **«أَوَلَمْ يَنْهَ بَنِي أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفي أَوَمَا وَزَعَ الْجُهَّالُ سَابِقَتِي عَنْ تُهَمَتِي؟! وَلَمَا وَعَظَهُمُ اللهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَاني أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ وَخَصِيمُ الناكثين الْمُرْتَابِينَ، وعَلَى كِتَابِ اللهِ تُعْرَضُ الْامْثَالُ، وَبِمَا فِي الصُّدُورِ تُجَازَى الْعِبَادُ!»**[1].

ويقصد الإمام عليه السلام من علم بني أمية، مكانته في الإسلام التي يصرون على إنكارها، واتهامه بدم عثمان، يقول ابن أبي الحديد: **«أن علمهم بها يقتضي ألا يقرفوه بذلك هي منزلته في الدين التي لا منزلة أعلى منها وما نطق به الكتاب الصادق من طهارته وطهارة بنيه وزوجته في قوله:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2]... **وذلك يقتضي عصمته عن الدم الحرام»**[3].

أما مع المارقين، فقد كان نسق الخطاب يعتمد الحجج والبراهين، كما في كلامه عند ما سمع قولهم: «**لا حكم إلّا لله**»، قال عليه السلام: **«كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إِلَّا للهِ، ولكِنَّ هؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ، إِلَّا للهِ، وَإِنَّهُ لَابُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الاجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ»**[4].

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 75: 114.
(2) سورة الأحزاب، الآية: 33.
(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 6: 179، 180.
(4) نهج البلاغة، خطبة 40: 82، 83.

فهذه المعاني جواب على نسق عام يسري في الأمة الإسلامية، والخوارج هم الذين أسسوا لهذا النسق، إذ كلما وجدت فئة أن حكم الحاكم، لا يحقق لها غرضاً، احتجت عليه بالقرآن، وليس ذلك طاعة منهم، ولكن للتضليل على الناس، لأن القرآن فيه إجمال، وإنما يفصل ويوضح بالسنة، فتصدى الإمام عليه السلام لهذه الشبهة في خطبه، وحتى في وصاياه لأصحابه، كما في وصية له لعبد الله بن عباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج قائلاً له: «**لَا تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ، تَقُولُ وَيَقُولُونَ، وَلكِنْ حاجّهُمْ بالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً**»[1]، ويضمر كلام الإمام عليه السلام في الخطبة المتقدمة، إن هؤلاء، لا يميزون بين مؤمن وكافر وبر وفاجر، وقوي وضعيف، وأن كل واحد منهم حاكم على نفسه، وعامل بهواه.

ومن خطبة له عليه السلام يبطل فيها دعوى المارقين، والتي مفادها أن الإمام عليه السلام قبل تحكيم الرجالُ ولم يحكم القرآن، ولإصرارهم على إثارة هذه الشبهة بين الناس، فقد تكرر في خطب الإمام عليه السلام تفصيل ذلك وبيانه فقال: «**إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى، وقَد قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾**[2]**، فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَنَحْنُ**

(1) المصدر نفسه: 595.

(2) سورة النساء، الآية: 59.

أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وأَوْلَاهُمْ بِها»[1].

فدل كلام الإمام عليه السلام إن الحق على الخوارج لا لهم في دعواهم، كما يكشف عن أحقية الإمام بالخلافة، بقول ابن أبي الحديد، في شرح الخطبة المتقدمة: «وقال: معنى ذلك أن نحكم بالكتاب والسنة فإذا عمل الناس بالحق في هذه الواقعة وأطرحوا الهوى والعصبية كنا أحق بتدبير الأمة وبولاية الخلافة من المنازع لنا عليها... إنه رفع نفسه عليه السلام أن يصرح بذكر الخلافة فكني عنها وقال: نحن إذا حكم بالكتاب والسنة أولى بالكتاب والسنة، ويلزم من كونه بالكتاب والسنة من جميع الناس أن يكون أولى بالخلافة من جميع الناس، فدل على ما كنى عنه بالأمر المستلزم له»[2].

فلم تكن دعوى المارقين قائمة على الكتاب أو السنة، بل على أهوائهم وعصبيتهم، وكان هدفهم تضليل الناس، إذ لم يقفوا عند تخطئة الإمام عليه السلام، بل تخطئة كل من يقف معه، لذا قال عليه السلام في خطبة له: **«فإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِضَلَالِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ البَراءةِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ»**[3]، فإن ما كان يخشاه الإمام عليه السلام هو تضليل عامة الناس أما هو فيملك ما يرد به عليهم، ويبطل دعواهم.

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 125: 229، 230.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 8: 114.

(3) نهج البلاغة، خطبة 127: 232.

فأراد أن ينحصر الأمر به، حتى لاتتسع رقعة الشبهات بين عامة الناس، فقد خبر هذا النسق الضال وكيفية التعامل معه منذ عهد رسول الله ﷺ، كما فعل عندما كتب لأهل التحكيم: «**هذا ما تقاضى أمير المؤمنين علي» فقال الأشعث بن قيس: «امح هذا الاسم، فأجاب علي ومحاه، وقال علي: الله أكبر سنة بسنة، والله إني لكاتب رسول الله يوم الحديبية فكتبت محمد رسول الله، فقالوا لست برسول الله... فقال لي: «إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب»**[1].

يخفي الكلام أنه هو صاحب الحق وأنه على سنة رسول الله ﷺ، وأن من يقفون ضده على سنة آبائهم، في إنكار ما جاء به الإسلام، وأنهم يحاولون المغالطة فيه، حتى وصل الأمر بهم أن كفّروا الإمام عليه السلام لقبوله التحكيم، فكلمهم - الخوارج - حيث اعتزلوا الحكومة وتنادوا: أن لا حكم إلا لله، فقال لهم عليه السلام: «**أصابكم حاصب، ولا بقي منكم آبر! أبعد إيماني بالله، وجهادي مع رسول الله ﷺ، أشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين»! فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْاعْقَابِ أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلاً شَامِلاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمونَ فِيكُمْ سُنَّةً»**[2].

فقد كان عليه السلام صادقا في الدعوة لهدايتهم، وأنه يدرك أن الذي ينادون به هو شبهة يجب أن يتخلوا عنها، وأنه لم يرد عليهم بانتقام

---

(1) ينظر: علي والخوارج، جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت، ط1، 2002م: 115 - 118. وينظر: أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام، الخوارج والشيعة، يوليوس، فلهوزن، تر: عبد الرحمن بدوي، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، 1968 م: 5.

(2) نهج البلاغة، خطبة 58: 97، 98.

وتشفٍ[1]، بل أوضح لهم الأمور، ونصحهم، وحفظ لهم حق الصحبة، إذ كانوا من قبل أصحابه وأنصاره، كما يروي أبن أبي الحديد: «واعلم أن الخوارج على أمير المؤمنين عليه السلام كانوا أصحابه وأنصاره في الجمل وصفين قبل التحكيم، وهذه المخاطبة لهم، وهذا الدعاء عليهم، وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم، وقد وقع ذلك، فإن الله تعالى سلط على الخوارج بعده الذل الشامل، والسيف القاطع، والأثرة من السلطان، وما زالت حالهم تضمحل، حتى أفناهم الله تعالى وأفنى جمهورهم...»[2]، فبعدما ألقى الإمام عليه السلام الحجج واستتابهم فلم يتوبوا، ولتعاظم خطرهم، وخطر الفكر الذي يحمله، قاتلهم وقضى عليهم جميعاً في معركة النهروان.

(1) ينظر: الإسلام والرأي الآخر - تجربة الإمام علي عليه السلام أنموذجا، حسن السعيد، دار الهادي، بيروت - لبنان، ط1، 2003م: 191.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 4: 133، وينظر: العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت328هـ) تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2006م: 232، 233.

وينظر: مدخل إلى علوم نهج البلاغة، د. محسن باقر الموسوي، دارالعلوم، بيروت، ط1، 2003 م: 82.

الفصل الثالث

النسق الإجتماعي

المبحث الأول: نسق الذات ونسق الجماعات

المبحث الثاني: ثقافة المجتمع وأثرها في النسق

المبحث الثالث: أثر البيئة في النسق

الفصل الثالث

النسق الاجتماعي

المبحث الأول: نسق الذات ونسق الجماعات

مدخل

إنّ مفهوم النسق الثقافي يتجاوز مفهوم (البناء الاجتماعي) الذي يعتبر الثقافة مجموعة من الأنظمة المحسوسة والأدوار والمكانات وأنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية والعادات والتقاليد الملموسة، كما أنه يتجاوز الأبعاد التجريدية والتعميمية لمفهوم (البنيات اللاشعورية الثابتة) التي تحكم تلك الأبنية الاجتماعية، كما يراه عالم الأنثروبولوجيا (ليفي شتراوس). وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بأن مفهوم (النسق الثقافي) يقع في منطقة وسطى بين (البناء الاجتماعي) و(البنية الكامنة) في العقل الإنساني، وذلك لجمعه بين وظيفة التفسير والاستيعاب للتجربة الإنسانية من جهة، وبين وظيفة التأثير والتحكم في سلوك الأفراد من جهة أخرى وذلك عندما يكون نسقاً مهيمناً[1].

(1) ينظر: الطبيعة والثقافة، محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، ط1، 1991م: 25.

لقد استعمل بعض الباحثين مصطلح (النسق الثقافي) cultural system، أو (النسق السوسيو ثقافي) sociocultural system، ويأتي على رأس هؤلاء (كليفورد غيرتس) الذي وجه بحثه نحو النظر إلى الأنظمة الاجتماعية الحاكمة للأفراد والجماعات بوصفها أانساقاً ثقافية، فهو يعالج «**الدين بوصفه نسقاً ثقافياً**»(1)، ويتناول «**الأيديولوجيا بوصفها نسقاً ثقافياً**»(2).

وفي الخطاب الاجتماعي يمكن أن نستدل على (النسق الاجتماعي) الذي هو: «**أي وحدة اجتماعية تؤدي وظيفة**»(3)، أو هو «**نسق للسلوك الاجتماعي يتضمن جمعاً من الأفراد المتفاعلين**»(4)، يمكن الاستدلال عليه من خلال الظواهر الاجتماعية التي يتناولها النص أو الخطاب لأنها الوجه الكاشف عن النسق الاجتماعي.

فالظواهر الاجتماعية هي «**عبارة عن القواعد والاتجاهات العامة التي تتخذ في مجتمع ما أساساً لتنظيم الحياة الجمعية، وتنسيق العلاقات التي تربط بين أفراد هذا المجتمع بعضهم ببعض وتربطهم بغيرهم**»(5). ويمكن أن نقسم الظواهر الكاشفة عن الأنساق على قسمين رئيسين:

---

(1) الإسلام من وجهة نظر الاناسة، تر: أبو بكر أحمد، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1993م: 108.

(2) ينظر: النقد الثقافي تنظيراً وتطبيقاً، رسالة ماجستير، أحمد حسون حمادي، جامعة بغداد، 2009م: 43.

(3) قاموس مصطلحات الأنثروبولوجيا والفلكلور، آيكة هولتركاس، تر: محمد الجوهري وحسن الشامي، دار المعارف، ط1، 1972م.

(4) المصدر نفسه، وينظر: مدخل إلى نظرية الأنساق، نيكولاس لومان: 306.

(5) في الفكرالاجتماعي عند الإمام علي عليه السلام، عبد الرضا الزبيدي قم - ايران، ط1، 1426هـ: 24.

الأول: ظواهر عامة، وهي التي تشترك فيها المجتمعات كافة، وتجمعها أنساق واحدة ضرورة؛ لأنها «**أنساق أزلية وراسخة ولها الغلبة دائماً**»[1]، وهي معنية بالإنسان بصورة عامة، ومن أمثلتها: حقوق الإنسان وتنظيم الأسرة، والتعليم، والحاجة إلى القوانين والنظم الاجتماعية.

والثاني: ظواهر خاصة، وهي تختص بجماعة أو مجتمع دون غيره، فالظواهر الاجتماعية في المجتمع الجاهلي هي غيرها في المجتمع الإسلامي، وفي مجتمع الحضر هي غيرها في مجتمع البادية[2]. فيكون لكل منهم طريقته في السكن والملبس، والعادات والتقاليد التي تميزه من باقي المجتمعات، وكذلك يكون لكل مجتمع أنساقه المؤثرة فيه، وتشترك عدة عوامل في إنتاجها (ثقافية ودينية وسياسية واقتصادية وتاريخ وبيئة.. الخ)[3].

أولاً: الأنساق العامة والأنساق الخاصة

إن الخطاب في نهج البلاغة يكشف عن ظواهر وأنساق اجتماعية، منها عامة تشمل الإنسان بغض النظر عن انتماءاته واعتقاداته، ومنها

---

(1) النقد الثقافي، الغذامي: 79.
- وينظر: التحليل الثقافي، ميشيل فوكو واخرون، تر: أحمد مصطفى واخرين، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008م: 126، 127.

(2) ينظر: المثقف والسلطة، ادوارد سعيد، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006م: 26.

(3) ينظر: الأنساق الثقافية في كتاب الأغاني، رائد حاكم شرار الكعبي، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بابل، 2013 م: 63. وينظر: الفلسفة الحديثة، ليبانكي، جمع وترجمة: محمد سبيلا، وعبد السلام بن عبد العالي، افريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2002م: 242.

خاصة بالمجتمع الإسلامي، وقد يجمعهما الإمام في كلمة واحدة، كما في وصيته لمالك الأشتر عندما ولاه مصر قائلاً له: «**وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْـمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ**»[1]، فالدين للمجتمع الإسلامي، والخلق لعامة الناس، وكلاهما بيد الحاكم، الذي غالباً ما ينشغل بأمور نفسه عن شؤون الناس، فيحتاج إلى من يذكره بالرحمة واللطف والإنصاف.

ومن خطبه العامة التي تصلح لأن تكون منهجاً لكل حاكم ومجتمع قوله عليه السلام: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْما تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ: فَالوَفَاءُ بِالبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ**»[2].

فالحق كلمة تكررت كثيراً في خطب الإمام عليه السلام «**والحق وإن ذكر بصورة مفردة إلا انه يفيد معنى جنس الحق الذي ينطوي على مفهوم عام، أما تنكيره فيشير إلى عظمة هذه الحقوق، لأن الإتيان بالنكرة قد يفيد التعظيم أحياناً**»[3]، فالحق مطلوب في كل زمان ومكان سواء أكان للراعي أم للرعية، لا يستغني عنه شعب من الشعوب أو أمة من الأمم وفي الخطبة المتقدمة دلالة على أنساق ثلاثة:

الأول: نسق ذاتي، وهو الذي يضمر ثقة الإمام عليه السلام بنفسه، وعدم

(1) نهج البلاغة، من كتاب له عليه السلام 53: 545.

(2) المصدر نفسه، خطبة 34: 77.

(3) شرح نهج البلاغة، الشيرازي 2: 219.

تردده في قيادة الأمة، إذ لم يرد عنه عليه السلام شك أو احتمال في اعتذاره او تخليه عن تلك القيادة - كما فعل غيره ممن سبقه في الحكم، باستثناء رسول الله صلى الله عليه وآله - بعد أن تصدى للأمر. فقد درج الإمام عليه السلام على هذا النسق من الإيمان والصبر والحكمة عبر مراحل مختلفة من حياته، وقد أفاد من ذلك غيره، حتى جاءته الخلافة صاغرة ليتلقاها بمكنون علمه، ويعطيها حقها في القول والفعل (تنظيراً وتطبيقاً).

والنسق الثاني، يستهدف الرعية عبر مطالبة الإمام عليه السلام في أن تسير على نسق واحد مع الراعي، وهو الاستقامة، وعدم التخاذل وأن تكون في السر كما هي في العلن من إظهار الإجابة والطاعة للراعي حين يدعوها أو يأمرها، فالرعية تتحمل جزءاً مهماً من أسباب نجاح الدولة أو فشلها، إيجاباً وسلباً، ويتضح ذلك من خلال المدة التي سبقت خلافة الإمام عليه السلام التي تعرضنا لها في الفصل السابق، إذ كانت من ابرز ملامحها الفتن والعصبية القبلية والجهل وراح ضحيتها الخليفة نفسه.

والنسق الثالث ، في خطبة الإمام عليه السلام المتقدمة، هو ما يمكن أن نسميه نقداً للرعاة السابقين، إذ لم يرد عنهم توجيه خطاب واضح أو دقيق للرعية كالذي تناوله الإمام عليه السلام من تقسيم المسؤولية والمهام بين الراعي والرعية، مقدماً مالها من حق، وعد ذلك مقدمة لأداء ما عليها من حقوق. «فيتطرق الإمام عليه السلام إلى الحق الأول للأمة فيقول: «**فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ**»، النصيحة تعني الخلوص ومن هنا يصطلح على العسل الخالص بالناصح»[1].

(1) شرح نهج البلاغة، مكارم الشيرازي، دار جواد الأئمة عليهم السلام بيروت - لبنان، ط2، 2009م، 2: 219.

ويبدو أن النصيحة هنا تهدف إلى العمل من أجل النهوض بواقع الأمة مادياً ومعنوياً من خلال إعمار النفوس والأرض، وتوفير المال من الراعي «**فالعدالة الاجتماعية في المجال الاقتصادي تعد من أهم مشاكل المجتمعات البشرية، فأغلب الحروب والنزاعات الدموية ومعظم المفاسد الاجتماعية إنما تعزى إلى تغييب العدالة الاجتماعية**»[1]، ومن هنا يضمر كلام الإمام عليه السلام بث التطمين للرعية، التي كانت تعاني من انعدام العدالة الاجتماعية، والاستبداد الطبقي الذي خلفته الخلافة السابقة حتى صار التمايز بين فئات المجتمع نسقاً حاكماً فيه، فيذكر الإمام عليه السلام توفير الفيء عليهم بلا منة ولا تفضل لأن المال يعود إليهم أصلاً لذا نسبه اليهم بقوله: «**وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ**»، وبعد هذا الحق وبعدما تطمئن النفوس وتضمن حقوقها تكون قد استعدت للتعليم والمعرفة فقال: «**وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا**» وهي كلمة شاملة تندرج تحتها كل العلوم التي يحتاجها المجتمع وتحدد علاقته بالحاكم.

ويأتي في مقدمة ذلك تعليم المجتمع بالنظام الذي لا بد أن يسير عليه وهو نظام الإسلام، فإذا ما توفرت أدوات التعلم ووسائله وأدرك المجتمع تلك العلوم ووثق بها استطاع أن يعمل بها ويطبقها على واقعه ويرفض ما يعارضها من عادات وتقاليد ومفاهيم معها كتلك التي ورثها من الجاهلية الأولى، فأراد الإمام عليه السلام أن يفرق بين الإسلام وما قبله، حتى لا يجهل الناس على الإسلام، وبعد ذلك قال: «**وَتَأْدِيبُكُمْ كَيما تَعْلَمُوا**» فإن نتيجة التعليم والمعرفة هي المبادئ الأساسية للعلم، بينما التأديب هو هدف تربوي أخلاقي، وهو مبدأ إنساني إذ العلم والتربية يكمل أحدهما الأخر فلا جدوى من علم بلا تربية، أو تربية بلا علم.

---

(1) المصدر نفسه، 2: 220.

وهكذا فإن مضامين خطب الإمام عليه السلام وتراكيبها شغلت الإنسان بكل أبعاده فرمت إلى تحريره من ربقة الجهل، وأنارت عقله بالعلوم والمعارف، تمهيداً لإيقاظه من سباته، وبعثه على التأمل في الكون وما فيه من أنظمة ونواميس، وما يحمله من إرادة خفية، دقيقة التنظيم، ليخلص من ذلك كله إلى الإيمان بالله خالق الكون وواهب الحياة.

أما خطب الإمام عليه السلام الخاصة بالمجتمع الإسلامي فقد كانت هي الأساس في معظم كلامه، وجاءت مطابقة ومؤكدة لما جاء به القرآن الكريم، وما جاءت به السنة النبوية الشريفة، ومن مبادئ وفروع المنهج الاجتماعي الإسلامي استطاع الإمام عليه السلام أن يعطي من خلال خطابه زخماً دافعاً لتطبيق تلك المبادئ والفروع، التي تدعو إلى قيام مجتمع تسود فيه العدالة والمساواة بين أفراده، ونبذ كل أشكال الظلم الاجتماعي، متصدياً لحالات الانحراف، أو السنن الجاهلية التي سعى البعض إلى إيقاظها في الأمة الإسلامية من جديد مستغلين غياب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عنها[1].

ومن خطبة له عليه السلام قال: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ هذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ، وَمَا جَالَسَ هذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدىً، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمىً. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِاحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنىً؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَاوَائِكُمْ فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ**

(1) ينظر: الخطاب في نهج البلاغة، أطروحة دكتوراه، عبد الحسين عبد الرضا، جامعة بغداد، 2008: 125.

وَالضَّلَالُ، فَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ تَعالَى بِمِثْلِهِ»[1]، فالنصيحة التي جعلها الإمام عليه السلام أول حقوق الرعية (المجتمع) وتعهد بها إليهم، قد بالغ في ذكرها والعمل على تحقيقها.

دلت خطب الإمام عليه السلام على أنساق اجتماعية خطيرة، مع سعيه عليه السلام في معالجتها، لاسيما تلك التي كان يحذر فيها من الأمراض الاجتماعية المستشرية في المجتمع، وأهمها ما ذكره في الخطبة المتقدمة وهي: الكفر والنفاق والغي والضلال، وقد أشار عليه السلام إلى دواء تلك الأدواء، وهو القرآن فإن لكل واحد من هذه الأمراض أسبابه وخطره ونسقه الذي يسير عليه في المجتمع فقد يكون هناك من يعرف السبيل إلا انه لا يصدق الآخرين ويخدعهم، كالذي يجحد الدين وهو الكافر، وهناك من يظهر الإيمان ويكتم خلافه كالنفاق وقد يكون صادقا إلا أن صدقه يكون في سبيل نفسه لا لأجل الدين وذلك هو المغرور ومن أهل الغي، وهنالك الجاهل الذي لا يفقه من الأمور شيئاً.

ثانياً: نسق الذات

تناول الإمام عليه السلام الإنسان الفرد الفاعل في المجتمع والمنفعل به من جوانب مختلفة، منها علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته بربه، وعلاقته مع الآخر (أفرادا أو جماعات)، ولا يريد الإمام عليه السلام بالإنسان (الشخص) وإنما (النوع) الذي ينتمي إلى نسق أو طبقة معينة لها سلوكها وشكلها اللذان يميزاها عن غيرها من طبقات المجتمع، ففي الخطاب الاجتماعي «يركز علي بن أبي طالب على (الوحدة) و(التنوع) في التركيبة

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 176: 316.

الاجتماعية للرعية. فهو يرفض عمومية التحدث عن وحدة الرعية، مقدماً رؤية واقعية عن مكانة كل طبقة، وفعاليتها الاجتماعية والاقتصادية، فهو يشخص - ببعد نظر شديد - طبيعة كل طبقة وموقف السلطة الإسلامية منها، ملغياً النظرة العمومية السطحية التي يحكم بها الوعي المصلحي، الطبقي الضيق الذي يرى في التفاوت الطبقي الحاد ظاهرة طبيعية لتبرير الاستغلال، او نقيضه الشكلي؛ الوعي التسووي الذي يتحدث عن مساواة وهمية»[1].

فمثلاً في خطبة له، يصف زمانه بالجور ويقسم الناس فيه خمسة أصناف يقول: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا في دَهْرٍ عَنُودٍ وَزَمَنٍ كَنُودٍ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً، لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا**»[2]، فقد ذكر الدهر كناية عن طول المدة في البقاء على الظلم والجور، حتى أصبح ذلك نسق الزمان، وظاهره المستمر.

والسبب كما بينه عليه السلام لأهل ذلك الزمان: «**لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا**»، وليس ذلك لقصور العلم، بل لتعطيله، وليس لمزية الجهل بل لفعله. «والواقع أن هذه أسوأ حالة يعيشها الفرد أو المجتمع. أي انه لا يستثمر علومه ومعارفه في حل مشاكله ولا يهم بالقضاء على الجهل والإقبال على العلم. وليس هناك من نتيجة لهذين الأمرين سوى العوم في بحر الجهل والجريمة. وهذا هو حال كافة الأفراد الذين يغضون الطرف عن مفاسد المجتمع ولا يرون لأنفسهم من مسؤولية في

(1) علي سلطة الحق، عزيز السيد جاسم: 419.
(2) نهج البلاغة، خطبة 32: 69.

ردعها سواء من خلال اليأس من الإصلاح أو التعود على هذا الفساد والتكيف معه»[1].

وعلى الرغم من أن الخطبة تشتمل على خمسة أصناف إلا أن الإمام عليه السلام، يذكر أربعة منها منفصلة عن الخامسة، وذلك بحسب قوة تأثيرها في المجتمع، على أن هذه الأصناف لا تختص بمجتمع دون غيره ولا زمان دون آخر، بل هي عامة شاملة فقال: «**فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الفَسَادَ في الْارْضِ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ، وَكَلَالَةُ حَدِّهِ وَنَضِيضُ وَفْرِهِ وَمِنْهُمُ المُصْلِتُ لِسَيْفِهِ، وَالمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطَام يَنْتَهِزُهُ أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أَوْ مِنْبَر يَفْرَعُهُ وَلَبِئْسَ المَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفسِكَ ثَمَناً، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللهِ عِوَضاً! وَمِنْهُمْ مَنْ يَطلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْاخِرَةِ، وَلَا يَطْلُبُ الْاخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا، قَدْ طَامَنَّ مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ للأمانة، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللهِ ذَرِيعَةً إِلَى المَعْصِيَةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ المُلْكِ ضُؤولَةُ نَفْسِهِ وَانقِطاعُ سَبَبِهِ، فَقَصَرَتْهُ الحالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ القَنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذلِكَ في مَرَاحٍ وَلَا مَغْدىً**»[2].

فهذا التنوع يحكي أنساقاً ذاتية تمثل: بمجموعها التركيبة الاجتماعية للناس، مضافاً إليها صنفٌ آخر سيأتي ذكره. أما ما تقدم من الأصناف الأربعة فقد «قيل: القسم الأول: من يقعد به طلب الإمرة قلة ماله وحقارته في نفسه. والقسم الثاني: من يشمر ويطلب الإمارة ويفسد في

(1) شرح نهج البلاغة: الشيرازي 2: 168، 169.
(2) نهج البلاغة، خطبة 32: 69، 70.

الأرض ويكاشف. والقسم الثالث: من يظهر ناموس الدين ويطلب به الدنيا. والقسم الرابع: من لا مال له أصلاً، ولا يكاشف، ويطلب الملك، ولا يطلب الدنيا بالرياء والناموس، بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى القناعة، ويتحلى بحلية الزهادة في اللذات الدنيوية لا طلباً للدنيا بل عجزاً عن الحركة فيها، وليس بزاهد على الحقيقة»[1]. فإن هذه الأربعة، تمثل النسق العام الأكثر فاعلية في تحديد شكل المجتمع، إذ لا يخلو إنسان من تأثره بأحدها وانتمائه إليها، إلا النزر القليل ممن سيذكرهم الإمام عليه السلام ولأن الخطاب المباشر مع الرعية (الجمهور)، يتطلب عدم التوبيخ، وعدم إظهار العيوب مباشرة، فقد صدر الإمام عليه السلام خطبته بـ (ضمير جمع المتكلمين) «**إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ وَزَمَنٍ كَنُودٍ**».

ونسب العناد والكنود إلى الدهر والزمن، كما أن بناء الفعل للمجهول «**يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً**» يخفي الفاعل الحقيقي، وهو في المقام مجتمع المخاطبين، لأن الدهور والأزمنة متشابهة، وإنما التي تتغير هي النفوس، فهو يوجه نقده للمجتمع الإسلامي في حقيقة الأمر. ويحذر من خطورة هذه الأنساق على الفرد والمجتمع الإسلاميين إذ: «**تشترك هذه الأصناف جميعاً في الفساد العقائدي والتعلق بالدنيا والجاه والمقام، إلا أنها تختلف في إعداد الأسباب والمقدمات التي تمكنها من الوصول إلى أهدافها**»[2].

ويمكن أن نجمل هذه الأصناف الأربعة بطائفتين أو نسقين رئيسين: نسق يحقق أهدافه الرخيصة عن طريق الرياء والتزوير، ونسق لا يحقق

(1) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد 2: 192.

(2) شرح نهج البلاغة، الشيرازي، 2: 178.

أهدافه إلا انه يخفي فشله في الزهد والقناعة، ولو تأملنا التاريخ لرأينا هذه الأصناف في كل عصر ومصر[1]، وكما هي أغلب خطب الإمام عليه السلام - حتى صارت نسقاً ظاهراً فيها - فبعد أن يذكر الأصناف المهيمنة في المجتمع، ياتي على ذكرالصنف المقموع (المهمش) الصالح فقال: «**وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا**»[2]، فإذاً في كلمة (بقي) دلالة اختلاف هذا الصنف عما سبق، كما أنهم يمثلون قلة في المجتمع، وذكرهم بمعزل عن الأصناف الأربعة السابقة، وأن هذا الصنف يمثل الحق، والحق ذو وجه واحد، بينما الباطل ذو وجوه عديدة، كما عبر عن ذلك القرآن الكريم بأن جعل الحق نوراً، والباطل ظلمات، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

وعلى الرغم من تفوق الفئة الخامسة على الباقين في الصفات، وقد عبر عنهم الإمام عليه السلام بالرجال، بينما عبر عن الأصناف الأربعة بالناس، إلا أن فاعليتها في المجتمع قليلة وتفاعل المجتمع معها كذلك، مما يعكس صورة ذلك المجتمع المنحرف إذ مصير هذه الفئة لا ينجو كل فرد

(1) ينظر: المصدر السابق، 2: 178.
(2) نهج البلاغة، خطبة 32: 71.
(3) سورة البقرة، الآية: 257.

فيها من خمس: النزوح من البلد، أو التشريد والتغريب، أو الخوف والاختفاء، أو السكون والصمت، أو الاشتباك بفعل عدم إعارتهم الآذان الصاغية وسماع كلماتهم الحق في الدعوة إلى الله بإخلاص، ويضمر كلام الإمام عليه السلام أن هذه الفئة تمثله هو وأصحابه، يدلنا على ذلك سياق كلامه في خطب عديدة، والتأمل في تاريخ الأحداث التي عاشها الإمام عليه السلام في عصره، فهو وإن كان على رأس السلطة الحاكمة، وخليفة المسلمين، إلا أن النظرة الواقعية والعميقة في نقد الذات وأثر ذلك في المجتمع وتأثره به، يجعله يميل إلى الفئة (المهمشة) على حد تعبيرات النقد الثقافي.

كما أن الإمام عليه السلام لا يتوانى في نقد (المركز) أو رأس السلطة كلما وجد ما يدعو لذلك، فقد ورد في بعض كلامه قائلا: «**مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ**»[1]، فكثيراً ما يغفل من له السلطة عن عيوب نفسه، بل تزيّن له تلك العيوب من قبل أعوانه والمحيطين به، فيشكل ذلك خطراً على المجتمع، فينساق المجتمع خلف هذه النسق الخاطئ بوعي أو من غيروعي، فيكون ذلك مدعاة لغرور الحكام واتباع الهوى، وضياع الحقوق، ومن ثم ضياع المجتمع. ومفهوم كلام الإمام عليه السلام أن التناقض في أقوال الدعاة والقادة والمعلمين وسواهم مع أفعالهم يكون سبباً في ضلالة المجتمع وفساده.

(1) نهج البلاغة، حكمة 73: 160.

ثالثاً: نسق الجماعات

1 - نسق الأسرة:

اهتم الإمام عليه السلام بالأسرة باعتبارها المكون الأساس للمجتمع وأراد توجيهها توجيهاً إسلامياً تاماً، ومفارقا لكثير من أنساق وصور التربية الجاهلية التي لا تنسجم مع روح الإسلام، فقال عليه السلام: «**لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلْيَرأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ، وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ: لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ، كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً**»[1].

ففي كلامه عليه السلام نقد للمجتمع الذي يفترض أنه أفاد من اعتناقه للإسلام شكلاً ومضموناً، إلا أن الإمام عليه السلام يرى أنهم مسلمون في الشكل، أما تربيتهم وأخلاقهم فلازالت تسير على نسق التربية الجاهلية، فقد ورثوا القسوة والغلظة وانقطاع المودة في الأسرة الواحدة[2]، فضلاً عن المجتمع. بينما يهتم الإسلام بالتربية والدعوة إلى التراحم والمودة فيما بينهم، لذا يقول ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة: «**ثم نهاهم عن خلق الجاهلية في الجفاء والقسوة، وقال: إنهم لا يتفقهون في دين، ولا يعقلون عن الله ما يأمرهم به، وهذا من قوله سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3]، ثم شبههم ببيض الأفاعي في الأعشاش يظن بيض القطا فلا يحل لمن رآه أن يكسره، لأنه يظنه بيض القطا، وحضانه يخرج**

(1) المصدر نفسه، خطبة 166: 302.

(2) ينظر: حقوق الإنسان عند الإمام علي عليه السلام، غسان السعد، العتبة العلوية المقدسة، العراق - النجف الأشرف. ط2، 2010م: 263.

(3) سورة البقرة، الآية: 171.

شراً؛ **لأنه يفقص عن أفعى»**[1]، وتكرر في كلام الإمام عليه السلام بقاء أثر الجاهلية في نفوس المسلمين، والعمل على أنساقها، كما في خطبة له يقول فيها: «**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً، وَبَعْدَ الْمُوَالَاةِ أَحْزَاباً، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْاسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الإيمان إِلَّا رَسْمَهُ، تَقُولُونَ: النَّارَ وَلَا الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الإسلام عَلَى وَجْهِهِ، انْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضاً لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ، وأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ**»[2].

تكشف الخطبة المتقدمة تألم الإمام عليه السلام، وقلقه على أوضاع المسلمين، وهو يراهم يحيون سنن الجاهلية التي جهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على إزالتها، لأنها كانت سبب العصبية والاقتتال وسفك الدماء، وقد أكد الإمام عليه السلام حال الناس هذا في خطب كثيرة منها قوله لهم: «**إنكم تتحدثون عن الإسلام والإيمان بينما لا تحسنون من الإسلام سوى اسمه، ومن الإيمان إلا شكله**»[3]، فهم ينطقون بالشهادتين ويأتون ظاهراً بالصلاة والصوم، لكنهم غافلون عن تعاليم هذا الدين وعبارة «**النَّارَ وَلَا الْعَار**» أطلقت - حسب بعض الشراح[4] - لأول مرة من (أوس بن حارثة)، وهو من الشعارات التي تحمل طابعاً عصبياً بعيدا عن الإسلام، فهؤلاء يزعمون أنهم مستعدون لدخول النار، لكنهم ليسوا مستعدين لأن تظهر عليهم القبيلة الفلانية، أو يراق لهم دم ولا يردون على تلك القبيلة.

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 9: 302.

(2) نهج البلاغة، خطبة 192: 376.

(3) شرح نهج البلاغة، الشيرازي، 7: 365.

(4) المصدر نفسه، 7: 365.

فيصف الإمام عليه السلام كلامهم هذا بأنه نقض للعهود وتراجع عن الإسلام، بل أنه لم يخالط دماءهم، كما خالطتها الجاهلية في نظرتهم للأسرة والأولاد وتفاخرهم بهما لأغراض دنيوية ضيقة، غير مبالين بالآخرة، ولا معتبرين بالأمم السابقة التي نقضت عهودها مع الأنبياء والرسل عليهم السلام، لذا قال الإمام عليه السلام في خطبة له: يقصد فيها عواقب الأمور: «**وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَ أَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ؛ فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الأَوْلَادِ فَقْدَهَا، وَبِصُحْبَةِ الأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا لَا يَتَفَاخَرُونَ، وَلَا يَتَنَاصَرُونَ، وَلَا يَتَنَاسَلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، وَلَا يَتَحَاوَرُونَ. فَاحْذَرُوا، عِبَادَ اللهِ، حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ**»(1).

فقد وجد الإمام عليه السلام في ذكر الموت وعواقب الأمور وسيلة لإيقاظ الغافلين وهو لا يريد من المخاطبين أن يتركوا أولادهم أو يفارقوا أزواجهم، لأن حب الأولاد والأزواج مغروس في النفوس، ولكن أراد أن لا يكون ذلك على حساب الدين، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى في كثيرمن آياته كقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾(2).

وفي المقابل يضع الإمام عليه السلام أنموذجا واحداً للأسرة التي على

(1) نهج البلاغة، خطبة 161: 287.

(2) سورة الحديد، الآية: 20.

الناس أن تقتدي بها، وهم أسرة النبي محمد ﷺ وقد ركزت خطبه عليه السلام على ذلك، ومنها قوله: «**حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ، **فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً وَأَعَزِّ الْارُومَاتِ مَغْرِساً مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ. عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْاسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ**»[1]، مشيراً إلى فضائل هذه الأسرة ونسقها المعتدل، وأن السير على هداها يحقق السعادة في الدارين لأنها جاءت لهداية الناس جميعاً، وقد قال عليه السلام في خطبة أخرى: «**بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الْاهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مَنَ الْامْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ** ﷺ **فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**»[2].

إن الإمام عليه السلام كثيرمايعقد في خطبه مقارنة بين أوضاع الجاهلية التي كان عليها العرب، وهم يعيشون الضلالة مع الحيرة، واقتران ذلك بالفتن والأهواء، وبين ما جاء به النبي ﷺ من رسالة الإسلام، ليحدث تغييراً كبيراً في المجتمع، بدعوته إلى عبادة الله الواحد الأحد، والامتثال لأوامره التي تجلب المصلحة لذلك المجتمع، وكذلك الانتهاء عما نهى عنه لدفع المفاسد. ويرشد الإمام عليه السلام إلى ميزان التفاضل الحقيقي بين الناس، وهوتقوى الله سبحانه، وهو ماجاء به القران الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3]، ويؤكد على بناء الأسرة بناءاً

(1) نهج البلاغة، خطبة 94: 173، 174.

(2) نهج البلاغة، خطة 95: 175.

(3) سورة الحجرات، الآية: 13.

صحيحاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1].

وفي خطبة للإمام عليه السلام وبعد ما يذكر فضائل أسرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويدعو الناس إلى التحلي بأخلاق النبي وعترته، يشبه هذا العمل بالنبات الطيب قائلاً: «**وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً، وَكُلُّ نَبَاتٍ لَا غِنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ، فَمَا طَابَ سَقْيُهُ طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ**»[2]، فقد شبه الإمام عليه السلام الإنسان وأعماله بالنبات وثمره. فلا غنى للنبات عن سقيه بالماء لينمو، فإن الإنسان كذلك لا يستغني عن التعليم والتربية والإرشاد.

فهناك ثلاثة عوامل تجعل الثمرة طيبة وهي: البذرة الطيبة، والأرض الخصبة، والماء الوفير. والإنسان يكون ذا بذرة طيبة بالفطرة التي فطره الله تعالى بها، وعوامل البيئة ومنها الأسرة بمثابة الأرض، والتربية والتعليم بمنزلة الماء، فإن طهرت وطابت هذه الأمور كانت ثمرة وجود الإنسان طاهرة وطيبة.

2 - نسق القبيلة والعشيرة

تميز الخطاب الاجتماعي عند الإمام عليه السلام بميزتين رئيستين، الأولى بنشره للمفاهيم الإسلامية وجعلها الأساس في بناء المجتمع، والثانية: استثمار الواقع الاجتماعي في بث تلك المفاهيم، وأبرز ملامح الواقع الاجتماعي آنذاك هو الانتماء للقبيلة أو العشيرة، فالإمام عليه السلام لم يتعرض بالنقد إلى أصل التكوين الاجتماعي وطريقة تشكله، بل أراد

---

(1) سورة التحريم، الآية: 6.

(2) نهج البلاغة، خطبة 154: 270.

لذلك التكوين أن يستبدل الناس فيه بثقافتهم الجاهلية ثقافة الإسلام، مستنداً في نظرته هذه على القرآن الكريم من جعل التقوى هي الميزان بين القبائل والأفراد.

ولمعرفة ما يقصده الإمام عليه السلام من القبيلة أو العشيرة، لا بد من معرفة الفرق بينهما، فننظر إلى رأي علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية في ذلك، فهم يضعون لكل منهما حدوداً تعريفية، فالعشيرة تعني: «**وحدة اجتماعية تعد امتداداً للأسرة، تتميز بتسلسل قرابي معين، يتفق مع نظام سكني خاص، لذلك هي (وحدة مكانية) لها خصائص ووظائف خاصة بها تختلف عن خصائص الأسرة والقبلية ووظائفها**»[1].

وذهب النويري إلى أن: «**العشائر واحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون أربعة آباء، وسميت بذلك لمعاشرة الرجل إياهم... وهم يجتمعون في الجد الرابع، فمن هنا جرت السنة بالمعاقلة إلى أربعة آباء**»[2].

أما القبيلة فهي: وحدة اجتماعية: تجمع عدة عشائر أو مجتمعات محلية تنتشر في المجتمعات البدائية وتتميز بما يأتي:

1 - وحدة المكان واللغة والثقافة.

2 - يسكنون أرضا مشتركة، ويطبقون أنماطا حضارية مشتركة.

---

(1) الانثروبولوجيا الاجتماعية، د. عاطف وصيف، دار النهضة، ط3، 1981: 107.
ينظر: نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي، أطروحة دكتوراه: نعمة دهش، جامعة بغداد، 2010م: 161.

(2) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، دار الكتب القاهرة: 285.
وينظر: تاريخ العرب في عصر الجاهلية. د. عبد العزيز سالم، دار النهضة، بيروت - لبنان: 435.

3 - للقبيلة تنظيم سياسي ممثل برئيسها، ويحظى باحترام الجميع، ولها مجلس استشاري يسمى (مجلس القبيلة) يتكون في الغالب من رؤساء العشائر(1).

4 - القبيلة مسؤولة في الدفاع عن نفسها وتنظم وسائل ذلك.

وقد ميز الإمام عليه السلام في خطبه بين الانتماء للقبيلة والانتماء للعشيرة تميزاً واضحاً، إذ نجده عليه السلام في كثير من خطبه يحذرمن العصبية القبلية، بينما يمدح العشيرة في كثير منها، والسبب أن الانقياد التام للعصبية القبلية يمثل خطراً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً على المجتمع الإسلامي، ودولة الإسلام.

فهذا التكوين البدائي يتخذ من الأعراف والتقاليد الجاهلية أساساً لإدارة شؤونه(2)، وقد تعرض الإمام عليه السلام لأكثر تلك القبائل خطورة - متمثلة برموزها - وهي (قريش). إذ وجدهم يقفون نداً قوياً للإسلام حتى أرغموا للدخول في الإسلام، وحتى مع إسلامهم ظل خطرهم ماثلاً، فاستبدلوا بالكفر النفاق والفتن، لذا قال عليه السلام: «**مَالي وَلِقُرَيْشٍ! وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ! وَاللهِ ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا**»(3).

وقول الإمام عليه السلام: «**أَنَا صَاحِبُهُمْ**» يضمر استمرارهم على نهجهم

---

(1) نهاية الأرب في فنون الأدب: 113، 115.

(2) صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية، د. محمد توفيق، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 2007م: 250.

(3) نهج البلاغة، خطبة 33، 74.

الجاهلي وأنه هو الذي يقف بوجههم قبل إسلامهم وبعده. ومما تجدر الإشارة إليه هو عدم ذكر الإمام عليه السلام للفظ (القبيلة) في خطبه، وذلك تصغيراً وتحقيراً لما يأتي به هذا التكوين الاجتماعي من مفاهيم تعارض جوهر الإسلام ومفاهيمه الأساسية، وقد استعمل لها لفظ (العصبية) أو (حمية الجاهلية) أو ذكر أسماء تلك القبائل (عبد شمس، وقريش، وهوازن وأسد، وربيعة) وغيرها.

أما نسق العشيرة فقد امتدحها الإمام عليه السلام، لما وجد فيها من نفع يعود على المجتمع الإسلامي، فقال عليه السلام: «**أَيُّهَا النّاسُ، إِنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ - وَإِنْ كَانَ ذَو مَالٍ - عَنْ عَشِيرَتِهِ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلسِنَتِهِمْ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ، وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إنْ نَزَلَتْ بِهِ. وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ في النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ مَالٍ يُورِثُهُ لِغَيرَهُ**»(1).

فيؤيد الإمام عليه السلام هذا النسق الاجتماعي، بل خاطب الطبقة المتقدمة في المجتمع وهم أهل النفوذ والمال، ودعاهم للدخول تحت ظل العشيرة، أما باقي الطبقات فهي داخلة حتماً كالضعفاء والفقراء وسواهم من الأفراد الذين لا غنى لهم عن الانتماء للعشيرة في جميع أحوالهم، خاصة في عيشهم ودرء الأخطار عنهم. فربما يستغني الأغنياء والفرسان عن العشيرة لوجود البديل عنها.

ولكن هذه البدائل تكون أقل حيطة، كما عبرعنها الإمام، فإن أعوان الأغنياء وأنصاره يكون في الغالب بدافع الطمع، والارتباط يكون حقيقة للمال لا لصاحب المال ثم يقول عليه السلام: «**أَلَا لَا يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ**

(1) نهج البلاغة، خطبة 23: 54، 55.

القَرَابَةِ، يَرَى بِهَا الخَصَاصَةَ أنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لا يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ، وَلَا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ، وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ؛ وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ المَوَدَّةَ»[1].

فمن خرج عن عشيرته إن كانوا خسروا واحداً فهو قد خسر الجميع، وعن هذه الخطبة يقول الشريف الرضي: «**وما أحسن المعنى الذي أراده** عليه السلام . . **فإن الممسك خيره عن عشيرته إنما يمسك نفع يد واحدة، فإذا احتاج إلى نصرتهم واضطر إلى مرافدتهم، قعدواعن نصره، وتثاقلوا عن صوته، فمنع ترافد الأيدي الكثيرة وتناهض الأقدام الجمة**»[2].

على أن ذكر الإمام عليه السلام للعشيرة في خطبه والحث على التمسك بها، لا يراد منه الدافع القرابي ورابط الدم فحسب، لأن ذلك مما يعيه العربي (ابن العشيرة) وهو متمسك به أصلاً، ولكن ما يرمي إليه الإمام عليه السلام ضرورة أخرى، وهي الفاعلية الكبيرة لنسق العشيرة في التأثر والتأثير، على مجريات الأحداث التي يمر بها المجتمع الإسلامي آنذاك، فأراد الإمام عليه السلام أن يوجد موازنة اجتماعية، خاصة مع من يعارض الدولة الإسلامية، وتلك المعارضة تمثلها جبهة الشام التي يقودها (معاوية) إذ استغل القبيلة والعشيرة استغلالاً سيئاً، بل كان ذلك أساس تحركه في مجابهة الدولة، عبر استقطاب الناس إليه، وجلب تأييدهم وموالاتهم له، وطلب نصرتهم في كل تحرك وعمل يقوم به ضد السلطة، أو أي مجال اجتماعي آخر فأراد الإمام عليه السلام الحد من استغلال

(1) المصدر نفسه، خطبة 23: 55.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 1: 383، 384.

(العشيرة) من جانب واحد - جبهة الشام - فجاء خطاب الإمام عليه السلام متناغماً مع ثقافة المجتمع الذي يتمسك بتراثه، فإن ذلك أولى من إهماله، وإن استثمار العشيرة، طريق أشار إليه القرآن الكريم، عندما أراد النبي أن يصدع برسالته، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(1).

ومما يدل على معرفة الإمام عليه السلام بأنساق المجتمع ونزعاته قوله عندما استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين: «**إن الناس يظنون إنك تكره الحرب كراهية الموت، وإن من الناس من يظن! أنك في شك من قتال أهل الشام**»(2)، لم يعترض الإمام عليه السلام بالزجر والشدة، لعلمه أن ذلك من نزعاتهم الفحولية، وأنهم لا يفقهون من الحرب إلا إنها غنيمة أو هزيمة، فرد عليهم بطريقة أخرى تبين لهم أبعاد تأخره في القتال، فقال: «**أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلَّ ذلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَوَ اللهِ مَا أُبَالِي دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: شَكّاً في أَهْلِ الشَّامِ! فَوَ اللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلى ضَوْئِي فهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلالِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا**»(3).

ففي النص مضامين عالية تكشف عن حرص الإمام عليه السلام على أصحابه وأعدائه في وقت واحد، فأصحابه غلبهم شكهم وظنهم على تيقنهم بقائدهم، فاستعجلوا الحكم، وأعداؤه غارقون في ضلالتهم وآثامهم وإصرارهم على ذلك، أما الإمام فقال: «**لقد ضربت هذا الأمر**

(1) سورة الشعراء، الآية: 214.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 4: 17.
(3) نهج البلاغة، خطبة 55: 95.

ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعني إلا القتال، أو أن أعصي الله ورسوله، ولكني أستأني بالقوم عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفة، فإن رسول الله ﷺ قال لي يوم خيبر: لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس»[1]، وهذه المفاهيم لم يدركها أغلب المسلمين، لذا ظنوا بالإمام عليه السلام أنه يكره القتال، أو انه على شك من أمره، وغاب عنهم أن الغاية من المواجهة هي إثبات الحق وهداية الناس.

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 4: 17.

المبحث الثاني: ثقافة المجتمع وأثرها في النسق

مدخل

إن لثقافة المجتمع ومعرفة مستوياتها أثره البالغ في خطب الإمام عليه السلام إذ كانت تصدر عن وعي تام بتلك الثقافة، فالإمام عليه السلام ولد في بيئة عربية خالصة، واستمد ثقافته منها فضلاً عن ثقافته الإسلامية، فقد نشأ وترعرع في البيئة القرشية، صاحبة الأمجاد الأدبية، وملتقى فحول الشعراء، ففي مكة كانت ملتقياتهم ونواديهم ومحافلهم، يرتادونها ويتبارون بما لديهم من بضاعة الشعر والخطابة، مما جعل قريش «**أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسلسها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً وإبانة عما في النفس**»[1].

كما أن الإمام عليه السلام ينتمي إلى بيت هو من أعلى بيوت مكة مكانة في العلم والفصاحة، لذا قال عليه السلام: «**أَلَا إِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْانْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ، وَلَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ، وَإِنَّا لَامَرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ**»[2]، وفضلاً عن امتياز خطب الإمام بجمالها الأدبي، فهي تعكس حالة المجتمع آنذاك وأنساقه

---

(1) دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط7، بيروت 1978: 67.

(2) نهج البلاغة، خطبة 233: 449.

الاجتماعية المؤثرة فيه، من عادات وتقاليد، وما يحيط بالإنسان العربي من ظروف بيئية، ووسائل العيش التي يعتمدها، وطريقة التفكير ودرجاته، ويمكن أن نبحث ذلك عبر محورين، الأول: كلام العرب (ذوقهم الجمالي)، والآخر: العادات والتقاليد وكيف وظفها الإمام عليه السلام في خطابه الاجتماعي.

أولاً: كلام العرب (الذوق الجمالي)

أ - **الشعر**: يمثل الشعر العربي في صدر الإسلام ثقافة ذلك العصر والذي هو امتداد للشعر الجاهلي[1]، فهو ديوانهم وفيه برعوا فحمل أفكارهم وأحاسيسهم ومعتقداتهم وكان الشاعر هو (المثقف) الأول والناطق بإسم القبيلة والمحتفى به.

وان الباحث فيما أنتجه العرب من فنون الشعر وإبداعه يجد أن ذلك نابع من حكمة عالية وعقلية متأملة، تدل على أن «**العقول التي أنتجته كانت على جانب من التحضر**»[2]، وتمتلك أفكاراً فلسفية عن الحياة والقيم الاجتماعية.

ولم يكن الإمام عليه السلام بمعزل عن تلك الثقافة، بل كان من المشجعين للشعر والشعراء وربما أثاب على القول الحسن والأدب اللطيف، كما روي عنه في كتاب العمدة من «**أن إعرابياً وقف على علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها**

(1) ينظر: تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة - مصر، ط1، 2005م، م1: 44.

(2) فصول في اللغة والنقد، نعمة رحيم العزاوي، المكتبة المصرية، بغداد، ط1، 2004: 226.

إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى، وعذرتك، فقال له علي خط حاجتك في الأرض فإني أرى الضر عليك، فكتب الإعرابي على الأرض (إني فقير) فقال علي: يا قنبر ادفع إليه حُلتي الفلانية، فلما مثل بين يديه قال:

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحي ذكر صاحبه كالغيث يحي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

وقال علي: يا قنبر، أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألتك وأما الدنانير فلأدبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **انزلوا الناس منازلهم**»[1]، ولأهمية الشعر يقول الإمام عليه السلام في مورد آخر: «**الشعر ميزان القول ورواه بعضهم: الشعر ميزان القوم**»[2]، ولقد ضمن الإمام عليه السلام خطبه أبياتاً من الشعر، وقد لاحظ الباحث أن هذه الأبيات هي لشعراء جاهليين، وامتازت بقوة سبكها واختزالها للمعاني، وقد أورد أغلبها في الحكمة، وهي تضمر شكوى من المجتمع آنذاك، وكان الإمام عليه السلام يعمد للاستشهاد بالشعر عندما يكون التلميح أفضل في المقام من التصريح، ما كان ذلك في الخطبة الشقشقية

إذ قال عليه السلام: «**فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرتُ وَفي الْعَيْنِ قَذىً، وَفي الحَلْقِ شَجاً أرى تُرَاثي نَهْباً، حَتَّى مَضَى الأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى ابن الخطاب بعده ثم تمثل بقول الاعشى:**

(1) العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط4، 1972م: 29.

(2) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري: 154.

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ»(١)

يقول ابن أبي الحديد معلقاً على استشهاد الإمام عليه السلام بهذا البيت من الشعر: «**شتان بين يومي في الخلافة مع ما انتقض علي من الأمر ومنيت به من انتشار الحيل واضطراب أركان الخلافة، وبين يوم عمر حيث وليها على قاعدة ممهدة وأركان ثابتة، وسكون شامل، فانتظم أمره واطرد حاله وسكنت أيامه**»(2).

وقد يأتي الاستشهاد بالشعر الجاهلي لشهرته بين السامعين وتذوقهم له واستئناسهم به، ليبث الإمام عليه السلام من خلاله عتبه وشكواه، كما في خطبة التحكيم اذقال:

«وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ في هذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخزُونَ رَأْيِي لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى
فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى الْغَدِ»(٣) (٤)

وأخو هوازن هو الشاعر المعروف (دريد بن الصمة) وأبياته مشهورة يتداولها الناس، وأوردها الإمام عليه السلام لما رأى أصحابه وقد أصروا على

(1) نهج البلاغة، خطبة 3: 29.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 1: 229.
(3) ديوان الحماسة، بشرح المرزوقي، تح: أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1967، 2: 813.
(4) نهج البلاغة، خطبة 35: 78.

مخالفته وعدم الأخذ بنصيحته، حتى ارتاب عليه السلام من نفسه، مبالغة لما لقي منهم من الخلاف والعصيان[1].

ولم يكن الإمام عليه السلام دقيقاً في اختياراته من الشعر الجاهلي فحسب، بل كان عليه السلام دقيقاً في نقده له أيضاً، وقد كان يناقش العلماء والأشراف والشعراء في مجالسه، ومن ذلك مجلسه الذي كان يعقده في شهر رمضان، إذ يفطر الناس عنده، وفي ليلة من الليالي حدث اختلاف في أشعر الناس وارتفعت أصواتهم فقال الإمام عليه السلام لأبي الأسود الدؤلي: قل من أشعر الناس، وقد كان أبو الأسود يتعصب لأبي داود الإيادي، فقال أشعرهم الذي يقول:

وقد اغتدي يدافع عن ركني   أحوذي ذي ميعةٍ إضريج[٢]

فقال الإمام عليه السلام موجهاً كلامه للناس: «**كل شعرائكم محسن، لو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة في القول، لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه، وأن يكن أحد فضلهم ليس به، قالوا فمن يا أمير المؤمنين فقال: لو رفعت للقوم غاية فجروا إليها معاً علمنا من السابق منها ولكن إن لم يكن فالذي لم يقل لرغبة ولا رهبة، امرؤ القيس بن حجر فانه كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة**»[3].

فإذا حققنا النظر في هذا النص، نجد أن فيه نضجاً نقدياً يُسجل في

---

(1) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 2: 220. وينظر: النص من القراءة إلى التنظير، د. محمد مفتاح، شركة المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2000م: 40.

(2) الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 16: 259.

(3) المصدر نفسه، 16: 260.

- ينظر العمدة، 1: 94.

- وينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب: 83.

تاريخ النقد الأدبي، بل يؤسس له خطوطه العريضة التي لا بد للناقد من السير في ضوئها، وبذلك يكون الإمام عليه السلام قد أقر مقياساً للنقد أوجزه الدكتور (داود سلوم) بالآتي:

1 - كل شاعر يجيد في شيء من شعره فقد يجيد في فن أو في موضوع أو في قصيدة أو في بيت.

2 - عدم المفاضلة بين شاعر وشاعر مادام العامل الزمني اختلف بينهما.

3 - المفاضلة لا تقوم بينهما مادام الموضوع الذي عالجاه لم يكن واحداً.

4 - الإجادة نتاج حين تتوافر الحرية التي لا يعيقها الخوف ولا يقف في سبيلها الطمع، وأجود أنموذج لهولاء الشعراء أمرؤ القيس(1).

وعلى الرغم من اهتمام الإمام عليه السلام بالشعر إلا انه في الخطب لم يأت به كثيراً ويرى الباحث أن وراء ذلك أسباباً منها:

1 - إن فن الخطابة لا يتطلب ذكر الأشعار دائماً.

2 - إن الإمام عليه السلام بما يمتلكه من لغة شعرية، وقدرة على البيان والفصاحة جعل من خطبه تستغني عن الإكثار من الشعر(2).

3 - إن الإكثار من الخطب والتقليل من الشعر، يراد منه كسر النسق

---

(1) النقد العربي القديم بين الاستقراء والتأليف: 33.
- ينظر: نقد النص الأدبي حتى نهاية العصر الأموي، أطروحة دكتوراه، فاضل ناصر، جامعة الكوفة، 2003م: 201 - 204.

(2) ينظر: حجاجية الصورة الخطابية في الخطابة السياسية لدى الإمام علي عليه السلام، كمال الزماني، عالم الكتب الحديث، اربد - الأردن، ط1، 2012م: 195.

السائد في المجتمع العربي الذي كان يتخذ الشعر أساساً في خطاباته، لذا استبدل الإمام عليه السلام بالشعر الاستشهاد بالآيات القرآنية، لتكون هي الثقافة السائدة.

4 - إن خطب الإمام عليه السلام عامة تهدف إلى إصلاح المجتمع، وتنسجم مع الواقع، بينما الشعر يعبر في الغالب عن تجارب شخصية ويدخل فيه الخيال والتصورات البعيدة التي تحتاج إلى التأمل والتفكر فيها طويلاً حتى تفهم.

ب - النثر العربي

1 - الخطابة: لم تكن أمة العرب أمة شاعرة فحسب، بل عرفت أنواعاً أخرى من الأدب، كالخطب والرسائل والأمثال والكتب والمعاهدات وكان العرب يحضرون خطباءهم في المحافل وساحات الجدال والمفاخرة والمناظرة، فهم يصحبوهم للرد على خصومهم، وكان لهم أثر في النفوس لما يمتلكون من قوة حجة وسحر بيان، حتى أوردوا في بعض خطبائهم أمثالاً شاعت بينهم، وحفظتها كتب التاريخ والأدب كقولهم: «**أخطب من قس**»[1] و«**أخطب من سحبان**»[2]، وإنما ذكروا سحبان، لقدرته على الخطابة حتى قال مفتخراً:

لقد علم الحي اليمانون أنني إذا قلت أما بعد إني خطيبها

وقد استشهد - على الرغم من علو كعبه في الخطابة - بالشعر، مما

(1) البيان والتبيين، الجاحظ: 42، 43.

(2) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمد شكري الآلوسي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2009م، م3: 157. وينظر: حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام، د. سعيد حسين منصور، دار القلم، الكويت، ط1، 1981م: 10.

يدل على امتزاج الخطابة بالشعر، وأن لكليهما شأناً عند العرب، فقد احتفظوا بخطاباتهم وفهمهم لمناظريهم، فلهم في المعاني وابتكارها باع طويل وقد «**أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم**»[1].

وبين أيدينا خطب الإمام عليه السلام تفصح عن أهمية الخطابة ومكانتها في النفوس فـ «**هذا كتاب نهج البلاغة قد استودع من خطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ما هو قبس من نور الكلام الإلهي، وشمس تضيء بفصاحة المنطق النبوي**»[2]، قد ألقاها الإمام عليه السلام في محافل عديدة، وجاءت على موضوعات شتى لتسجل جانباً من واقع وتاريخ المجتمع في ذلك الوقت وتكشف عن أنساقه وخباياه، فإن هذا التنوع في الخطب والعدد الوفير منها لم يكن ليأتي لولا إدراك الإمام عليه السلام أن ذلك ضرورة تمس حياة المجتمع وأنها خير وسيلة في توجيهه وتثقيفه، وقد حققت غرضها بأن جمعت بين ثقافة المجتمع الذي ورث الفصاحة والبلاغة من بيئته وبين فصاحة القرآن الكريم الذي أعجزهم من الإتيان بمثله. فكان الإمام عليه السلام بينهما سيد الفصحاء وإمام البلغاء وفي كلامه قيل: «**دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة**»[3]، إذ تمكن عليه السلام من لغة العرب وصاغها صياغة متميزة، فتداول الناس خطبه وحفظوها بأكملها، وظلت عالقة في الأذهان وتناقلوها مشافهة جيل بعد جيل حتى شاع التدوين وانتشرت الكتابة فكتبوها واحتفظوا بها.

---

(1) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: 4، ينظر كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري: 197.

(2) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمد شكري الالوسي، م3: 181.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 1: 67.

2 - الأمثال:

وهو أدب نثري تميز به العرب منذ عصور قديمة[1]، وهو شاهد على ثقافتهم وحكمتهم كما يقول ابن سلّام (ت 224 هـ): «**الأمثال هي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ بها حاجاتها في المنطق بكتابة غير تصريح، فيجتمع لها بذلك خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن الشبيه**»[2]، ولأن الحكمة هي أحدى أسس المنهج الخطابي عند الإمام عليه السلام فقد ضمن خطبه كثيراً من الأمثال العربية السائدة، والحكم المتداولة ليستعين بها على إيصال المعنى، ومن ذلك ورود هذا المثل في إحدى خطبه «**لأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ!**»[3].

فهذه الجملة فيها تناص لمثل جاهلي ذكره الميداني (ت 518هـ): «**يخرج الحق من خاصرة الباطل**»[4]، وهو من الأمثال المتداولة قديماً عند العرب، وفي خطبة أخرى يحث فيها أصحابه على الجهاد قائلاً: «**وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ، فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَأ**»[5]، فوظف المثل العربي (**أَيَادِيَ سَبَأ**) لوصف حالة المخاطبين، وهو مثل جاهلي يضرب للجماعة المتفرقين، وقد أكد هذا

---

(1) ينظر: مجمع الأمثال، أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت518هـ)، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، 1959م، 1: 6.

(2) ينظر: الأمثال العربية، دراسة تحليلية، محمد توفيق أبو علي، دار النقاش، ط1، 1988م: 36.

(3) نهج البلاغة، خطبة 33: 74.

(4) ينظر: المثل في نهج البلاغة، دراسة تحليلية فنية، عبد الهادي عبد الرحمن: 14 - 20.

(5) نهج البلاغة، خطبة 97: 177.

المعنى القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[1]، فالآية تتحدث عن أهل سبأ وحضارتهم.

ولم يقف الإمام عليه السلام على الأمثال التي كانت متداولة بين الناس، بل استطاع بما يمتلكه من قدرة وموهبة على ابتكار أمثال جديدة، تداولها الناس بعده ومنها قوله عليه السلام لمن بايعه ثم نكث بيعته وهو الزبير: «**عَرَفْتَني بَالحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالعِرَاقِ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا**»[2]، وهذا المثل يصفه الشريف الرضي بأنه: «**أول من سمعت منه هذه الكلمة**»[3] «**مَا عَدَا مِمَّا بَدَا**».

ومن كلامه عليه السلام الذي راح يضرب مثلاً قوله وهو يصف حال أصحابه وقد تقاعسوا عن النهوض بوجه عدوهم، وعدم دفاعهم عن حقهم: «**وَإِلَّا رَكِبْنَا أَعْجَازَ الْابِلِ**»[4]، يقول الشريف الرضي: «**هذا القول من لطيف الكلام وفصيحه، ومعناه إن لم نعط حقنا كنا أذلاء، وذلك أن الرديف يركب أعجاز الإبل**»[5]، فمن خلال هذا النص نجد أن تكثيف المعنى في كلمة (أعجاز) استطاعت أن توصلنا إلى فهم المراد من دون عناء؛ لأن العربي يعرف أن من يركب على العجز هو الرديف الذي يتسم بالذلة والمهانة[6].

فدلت خطب الإمام عليه السلام على مجاراتها للنسق الثقافي في المجتمع

(1) سورة سبأ، الآية: 19.
(2) نهج البلاغة، خطبة 31: 69.
(3) المصدر نفسه: 69.
(4) المصدر نفسه.
(5) نهج البلاغة، حكمة 22: 602.
(6) ينظر: المثل في نهج البلاغة، عبد الهادي عبد الرحمن، 74، 79.

بل أضافت تلك الخطب مع ما جاء في رسائله ووصاياه - أمثالاً وحكماً ظلت على ألسنة الناس إلى يومنا هذا.

3 - قصص الأمم الماضية وأخبارها:

لم يكن لدى العربي الجاهلي شعورٌ باستمرار الأحداث التي يعيشها وديمومتها وتفاعلها الداخلي وعلاقتها بحاضره، وإمكانات تأثيرها في المستقبل على النحو الذي يصح أن يسمى وعياً تاريخياً... فقصص الأيام التي يتداولها نادراً ما تملؤها الأحداث الكبرى ذات الشأن السياسي والإنساني وهو ما يعطي التاريخ حقيقته ومعناه، وهي في الغالب قصص وأخبار ساذجة تتحدث عن معارك صغيرة بين مجموعات قبلية، يكسوها الخيال الشعري والنصوص الشعرية المرافقة لها وهجاً وحجماً غير واقعيين[1]، ومع ذلك نجد من العرب من دون أحداثاً مهمة ومثال ذلك قول الشاعر في زهير ابن ابي سلمى يمدح قوم (هرم) قائلاً:

الشعر يحفظ ما أدى الزمان به   والشعر أفخر ما ينبي عن الكرم
لولا مقال زهير في قصائده   ما كنت تعرف جوداً كان في هرمِ[٢]

أما التأريخ عند أمير المؤمنين عليه السلام فهو ما يخدم الرسالة الإنسانية التي جاء بها الإسلام، وأن يكون التاريخ ذا تأثير إيجابي في أخلاقيات المجتمع فكلما حدث في سلوك المسلم أو سلوك الجماعة الإسلامية انحراف عن الأخلاق أو انحراف عن الروح الإسلامية في ممارسة الحياة والتعامل مع الآخرين فإن التاريخ يستعمل إلى جانب الوسائل التربوية

(1) ينظر: حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام (دراسة في نهج البلاغة، محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية، ط4، 1997م، بيروت: 91.

(2) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 3: 209.

الأخرى والتنظيمية لتصحيح النظرة الخاطئة، وتقويم مسار الفرد والمجتمع.

والقرآن الكريم حافل بالشواهد على هذه الحقيقة، فذكر منها شاهداً مميزاً لأنه يتضمن تعبيراً غدا اصطلاحاً إسلامياً في الشأن التأريخي هو مصطلح «أيام الله» الذي يعني الأحداث الكبرى في تاريخ كل أمة سواء أكانت نجاحات كبرى أو نكبات عظمى وانهيارات مأساوية، وقد ورد هذا التعبير - أيام الله - في سياق الآيات الكريمة التي تضمنت بيان تربية وتوجيه نبي الله موسى ابن عمران سلام الله عليه لبني إسرائيل وهدايتهم إلى الإيمان الصحيح ورفع مستوى إدراكهم من حالة الجهالة والبدائية والمادية إلى المستوى الإيماني والحضاري، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

وورد ذكر هذا المصطلح في خطبة للإمام عليه السلام جاء فيها: «..... وَمَا بَرِحَ لله - عَزَّتْ آلاؤهُ - فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الأسماع والأبصار والأفئدة، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْادِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، فَكَانُوا كَذلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ»[2].

فذكر أولئك الذين يذكرون بأيام الله أنهم كأدلة على الخير، و(أدلة)

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 5.

(2) نهج البلاغة، خطبة 222: 431، 432.

جمع (دليل) إشارة إلى ما كان سائداً في الأسفار قديماً فلم تكن الطرق مشخصة، لذا كانت القوافل تحمل معها عارفين بالطريق حتى لا يضلون قصدهم. ويطلق عليهم (أدلة)، وهولاء الأولياء في الحياة الدنيا كأدلة الطريق الذين يهدون قافلة البشرية من الضلال وينقذونهم من الهلكة[1]، فما كان يقصد إليه الإمام عليه السلام هو الاعتبار بقصص الماضين، وجعلها وسيلة لفهم الدين والتحلي بأخلاقه، والنظر في عواقب تلك الأمم، لا أن تكون أحاديث عابرة، ومن خطبه في ذلك قال عليه السلام: «**واحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلَاتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الأَعْمَالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ. فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شأنَهُمْ، وَزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُم مِنَ الإجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلإِلْفَةِ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا. وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ وَأَوْهَنَ مُتْنَهُمْ، مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الأَيْدِي**»[2].

فيكشف كلام الإمام عليه السلام حال المجتمع الذي يخاطبه من أنه بعيد عن التفكر والتدبر بأحوال التاريخ، كما انه مجتمع يعيش الفرقة وعدم الألفة، وأن قلوبهم شتى، والنفوس مدبرة بعضها عن بعض، وتخاذلهم عن نصرة الحق سمة بارزة فيهم، إذ لو لم يكونوا كذلك لما تكرر من الإمام عليه السلام ذلك، ثم يذكر لهم عليه السلام عاقبة حالهم لو لم يأخذوا بالنصيحة ولم يعتبروا بمن قبلهم، فقال: «**وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ**

---

(1) ينظر، شرح نهج البلاغة، الشيرازي، 8: 261.

(2) نهج البلاغة، خطبة 192: 373.

الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمحِيصِ وَالْبَلَاءِ؟ أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً؟! اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُم سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ»[1].

وهنا الإمام عليه السلام يذكر بالتاريخ القريب، وهو أول مجيء الإسلام، وكيف تحمل المؤمنون الأوائل أعباء الرسالة، وتعرضهم لأنواع البلاء، وكان عليه السلام من أولئك المضحين بل أولهم وذكر (الفراعنة) ويريد بهم المشركين، إذ هو اسم جنس يدخل فيه كل ظالم ومستبد[2]، ثم يعطي الإمام عليه السلام نتيجة ذلك فيقول: «**حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالِاحْتِمالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ الْبَلَاءِ فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً، وأَئِمَّةً أَعْلَاماً**»[3]، بسبب إخلاصهم لله تعالى وإيمانهم به لا عن طمع أو إكراه كما هو حال زمن الخطاب، من أصحابه المتخاذلين، واختلاف نواياهم فقال: «**فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتَتِ الألفة، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالأَفْئِدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ وَبَقِي قَصَصَ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ**»[4].

فالإمام عليه السلام لا يريد بكلامه أقواماً سالفة، بل كل ما حدث به يصح على من يخاطبهم، وينطبق عليهم، وقد صرح بذلك في بعض من خطبه

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 191: 373.

(2) ينظر: أصول الاستبداد العربي، زهير فريد مبارك، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2010م: 13.

(3) نهج البلاغة: 373.

(4) المصدر نفسه، خطبة 191: 374.

قائلاً: «فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عليهم السلام، فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الأَمْثَالِ... فَالأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلَاءِ أَزْلٍ وإطباق جَهْلٍ! مِنْ بَنَاتٍ مَؤُودَةٍ وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ»[1]، فمن عرف منهم التاريخ، عرف إلى أي الفريقين ينتمي (الخير أو الشر)، ومن لم يعرفه فقد أشار الإمام عليه السلام إليه.

ثانياً: العادات والتقاليد

إن العبارات التي وردت في خطب نهج البلاغة التي أشارت إلى عادات المجتمع وتقاليده هي في الواقع من مخترعات الجاهلية فالخطب من هذه الناحية أسهمت في حفظها والتعرف عليها فيما بعد، إذ كانت تنقل مشافهة، فتم حفظها من خلال حفظ الناس لتلك الخطب، فكان نهج البلاغة سجلاً يستعان به لمعرفة تاريخ القبائل العربية قبل الإسلام وعصر الرسالة[2]. إلا أن الإمام عليه السلام أقر من تلك العادات والتقاليد ما أقره الإسلام، وما هو منسجم معه، وصحح ما يمكن تصحيحه منها، واستبدل بعضها بمفاهيم جديدة، وأخرى رفضها ومنع العمل بها لأنها تخالف ما جاء به الإسلام.

أ - عادات وتقاليد إيجابية

لقد تمسك العرب بالعديد من الصفات الحميدة التي أشاد بها الإسلام فيما بعد وأقرها وندب إليها ومنها[3]:

(1) المصدر نفسه: 374.

(2) ينظر: نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي، أطروحة دكتوراه، نعمة دهش: 178.

(3) ينظر: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بشير رمضان، وجمال هاشم، دار المدار

1 - الكرم:

وهي من أبرز عادات العرب في حياتهم الاجتماعية وقد خصها الإمام عليه السلام في خطبه ومنها قوله عليه السلام: «**فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الأَسِيرَ وَالْعَانِيَ، وَلْيُعْطِ مَنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ؛ فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ اللهُ**»(1).

فوجه الإمام عليه السلام المجتمع ولاسيما من كان له مال، توجيهاً إسلامياً، فنسب المال لله تعالى، وجعل هذه الخصال مشتركة بين الدنيا والآخرة، لا أن تكون لغايات دنيوية فحسب وكما هو سائد عند العرب، ثم ذكر أصنافاً من الناس لينفقوا المال ويكون ذلك سبباً في تكافل المجتمع، وزيادة في الألفة والمحبة بين أفراده، وهو في الوقت نفسه يحمل نقداً لمن ينفق المال في غير محله، «**فقد حفلت الدنيا بالأفراد المتكالبين على الدنيا ممن تحكموا بثروات المجتمع، وقد أغدقوها على المتحلقين من الأشرار من حولهم وبطانتهم، وقد ولوا ظهورهم بالمرة عن معاناة المحرومين، وآلام المساكين**»(2)، لذا كان ذلك من أشد الأسباب في تفرق الناس عن بعضهم، ووقوع الفتن فيما بينهم.

2 - الشجاعة

وهي من الصفات التي امتاز بها العرب، فكانوا لا يبالون بالموت دفاعاً عن القبيلة، أو ذباً عن الحريم وصوناً لهن من المهانة وذل السبي،

الإسلامي، ط2، طرابلس - ليبيا - 2004 م: 41.

وينظر: صورة العادات والتقاليد الجاهلية، محمد توفيق، 2: 67.

(1) نهج البلاغة، خطبة 142: 250.

(2) شرح نهج البلاغة، الشيرازي، : 372.

وأيدهم الإمام عليه السلام في ذلك، وقد ذكر الشجاعة في موارد عديدة، منها قوله مفتخراً عندما هدد بالحرب: «**فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ، وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ البَاطِلِ، وَنَاصراً لِلْحَقِّ! وَمِنَ العَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ! وَأَنْ أصْبِرَ لِلْجِلادِ! هَبِلَتْهُمُ الهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالحَرْبِ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ! وَإِنّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبّي، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِيني**»(1).

وقد جرى الإمام عليه السلام على طريقة العرب في الافتخار، إلا أنه فارقهم بالغايات، فالإمام عليه السلام مع قوته التي لا يشك بها أحد، وقدرته على أعدائه وتيقنه من أنه على حق إلا أنه، يفضل النصح على القتال، طمعاً في أن يهتدي به أحد لذا قال: «**فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ**»، وقد تكرر هذا المعنى في خطبه عليه السلام كما تكرر اقتران ذكر الشجاعة بذكر الله سبحانه منها قوله: «**فَقُمْتُ بِالأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا وَتَطَلَّعْتُ حِينَ نَقَبُوا، ونَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا، وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً، وَأَعْلَاهُمْ فَوْتاً فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا، كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ، وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ. لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ، وَلَا لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ، الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا لله أَمْرَهُ**»(2).

فتظهر الشجاعة في المواقف التي تتطلب إقداماً، ويتخاذل فيها الأبطال، وإنما يطلب النصر لا لمجرد الغلبة بل لتحقيق العدل بين الناس لذا قال: «**الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ**»، وكان ما يلازم الشجاعة عند العرب افتخارهم بها

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 22: 53.

(2) المصدر نفسه خطبة 192: 378.

وبالأبطال من قبائلهم ليرفعوا منزلة القبيلة أو العشيرة كي تكتسب احتراماً وتعظيماً من القبائل الأخرى[1]، فاستعمل الإمام عليه السلام هذا المعنى لاستنهاض أصحابه في الحرب، فمن خطبة له يجمع فيها المدح والذم وهو يحدثهم في بعض أيام (صفين) قائلاً: «**وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ، وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ، تَحُوزُكُمُ الْجُفَاةُ الطَّغَامُ وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَيَآفِيخُ الشَّرَفِ، وَالأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَالسَّنَامُ الأَعْظَمُ، وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ؛ حَسّاً بالنِّصَالِ، وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ، تَرْكَبُ أُولاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ، تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا، وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا!**»[2].

فالكلام يحوي مفردات تشكل صورة ماثلة في أذهان العرب تثير فيهم الحمية والشجاعة فالكلمات (جولتكم، الجفاة الطغام، لهاميم العرب، الأنف المقدم، السنام الأعظم، النصال، الرماح، الابل الهيم، تذاد عن مواردها) لها وقعها في نفوس العرب، وقد استعملها الإمام عليه السلام لتقويتهم، وشد أزرهم، فهم يأنسون لسماع مثل هذا الخطاب[3].

ب - عادات وتقاليد سلبية

1 - التنجيم والإخبار بالغيب:

وهي ثقافة رائجة في المجتمع الجاهلي، وبقيت رواسبها بعد

(1) ينظر: عبقرية الامام علي عليه السلام، عباس محمود العقاد، دار المعارف، مصر، ط5، 1981م: 12.

(2) نهج البلاغة، خطبة 107: 194، 195.

(3) ينظر: نقد الشعر، قدامة بن جعفر: 65.

وينظر: العمدة في محاسن الشعر ونقده، ابن رشيق 2: 132.

الإسلام ومن ذلك ما حصل للإمام عليه السلام عندما عزم على المسير إلى مقاتلة الخوارج فاعترضه أحد أصحابه قائلاً: «**إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت، خشيت ألا تظفر بمرادك، من طريق علم النجوم**»[1]، فرد عليه الإمام عليه السلام: «**أَتَزْعَمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ؟ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ، وَاسْتَغْنَى عَنِ الاِسْتِعَانَةِ بِاللهِ عزّ وجلّ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ، وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لأَنَّكَ - بِزَعْمِكَ - أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ، وَأَمِنَ الضُّرَّ!**»[2].

ففي رد الإمام عليه السلام لمن اعترضه إبطال لتلك المعتقدات التي كانت متمكنة من نفوس معتقديها، إذ كانت هذه الحادثة مع خليفة المسلمين، وفي موقف يحدد مصير الإسلام، إلا أن الإمام عليه السلام أبطلها من طريقين الأول: رده مباشرةً، وتحديه لما حذر منه، إذ قال الإمام عليه السلام: «**سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ**»[3]، والثاني إقباله على الناس ليحذرهم من هذا الاعتقاد قائلاً: «**أَيُّهَا النَّاسُ: إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ، إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ، والْمُنَجَّمُ كَالْكَاهِنِ وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ! وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ! سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ**»[4]، فميز الإمام عليه السلام بين علم الفلك والتنجيم، فأقر الأول لإمكان الاستدلال عليه، ومنع الثاني لأنه رجم بالغيب.

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 79: 117.

(2) نهج البلاغة، خطبة 79: 117.

(3) المصدر نفسه، خطبة 79: 117.

(4) المصدر نفسه، خطبة 79: 117.

ويضمر الكلام النزعة التي عليها الناس من الانقياد إلى الجهل، واستعبادهم من قبل بعض الذين ورثوا التعالي والتكبر والتحكم بمصير الناس إذ قال الإمام عليه السلام لمن اعترضه «**وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ**».

وفي خطبة أخرى ينفي فيها الإمام عليه السلام علمه بالغيب، عندما قال له أحد أصحابه: «**لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب! فضحك عليه السلام، وقال للرجل - وكان كلبياً: يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ، وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[1]**، فَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً؛ فَهذَا عَلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَمَا سِوَى ذلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي**»[2]، إن ضحك الإمام عليه السلام عندما قال له أخو كلب: «**لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب**» ليس بدافع السخرية، أو الغرور، بل بدافع الفرح والسرور ليكشف الإمام عليه السلام عن كنه هذا الموضوع - علم الغيب - أمام الجميع، وأن ضحكه من تعجبه في أن يكون مثل هذا الأمر خفي على الناس من أن علم الغيب مختص بالله سبحانه وهو علم ذاتي، وقد سمعوا بالقرآن وتلوا آياته، قال تعالى:

(1) سورة لقمان، الآية: 34.
(2) نهج البلاغة، خطبة 128: 235.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[1]، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[2].

ويكشف النص جهل الناس بعلم الغيب، أو تفسيرهم الخاطئ له، بسبب ما ورثوه من مفاهيم جاهلية، ويقصد الإمام عليه السلام من تفسير ذلك بآيات من القرآن هو إحالة الناس إلى كتاب الله تعالى الذي بين أيديهم ليتدبروا آياته، وأن الإمام عليه السلام يعلم من أمور الغيب ما علمه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإذن الله سبحانه، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[3]. ويضمر كلام الإمام عليه السلام التباس الأمر على الناس[4]، وجهلهم أيضاً بمنزلة الإمام عليه السلام الحقيقية، والتي ضللتها الأحداث التي أعقبت وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي خص الإمام عليه السلام بعلوم جمة، كان منها اطلاعه على ما أطلعه الله عليه لذا قال عليه السلام: «**عِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم فَعَلَّمَنِيهِ**».

2 - الموروثات الجاهلية

لم يتخلص العرب تماماً من موروثاتهم الجاهلية، من عصبية قبلية، أو اعتقادات فاسدة، وقد عانى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنصاره على الرسالة الإسلامية من تغيير تلك المعتقدات وإزالتها من النفوس، وهي على أصناف شتى، فمنهم من أنكر الخالق والبعث والإعادة، وقالوا ما قال

---

(1) سورة النمل، الآية: 65.
(2) سورة الأنعام، الآية: 59.
(3) سورة الجن، الآيتان: 26، 27.
(4) ينظر: صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة، حسن علي القبنجي، مؤسسة احياء التراث الشيعي، النجف الاشرف، ط1، 1436هـ، 1: 320.

القرآن الكريم عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[1].

فجعلوا الجامع لهم الطبع والمهلك الدهر، ومنهم من اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث، وهم الذين أخبر عنهم القرآن بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[2] ومنهم من عبد الأصنام إشراكاً في عبادة الله سبحانه، أو تقرباً إليه كما قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[3]، فظلت الحاجة قائمة إلى تطهير النفوس من دنس تلك العبادات حتى بعد مجيء الإسلام.

وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في كثير من خطبه، ومنها قوله: «**فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ، وَتَلَاحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ، وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَانِدَّ لَكَ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ:** ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[4] [5]، فقول الإمام عليه السلام: (**أَشْهَدُ**)، دلالة واضحة إلى وجود تلك المعتقدات الفاسدة من التشبيه، والإشراك بالله سبحانه، إلا أنه إشراك خفي ناتج عن الجهل بمعرفة الله سبحانه، وعدم تدبر آيات القرآن الكريم، فالمسلم «**لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ**» على معرفة الله حق معرفته «**وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَانِدَّ**» له تعالى، ثم قال عليه السلام: «**كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ**

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 24.
(2) سورة يس، الآية: 78.
(3) سورة الزمر، الآية: 3.
(4) سورة الشعراء، الآيتان: 97، 98.
(5) نهج البلاغة، خطبة 91: 152.

إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَجَزَّأُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّماتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى، بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ»[1]، ومن مجمل كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة يشير إلى أن **«هؤلاء الأفراد الجهال قد أصيبوا بثلاثة انحرافات: الأول: عدم معرفتهم الحقيقية بالله، والثاني: عدم اعتقادهم بوحدانيته، والثالث: أنهم لم يسمعوا آيات القرآن ولم ينفتحوا على تعليمات هذا الكتاب السماوي»**[2]، إن التأكيد على مباحث التوحيد، ورفع الشبهات العقائدية يؤكد حاجة المجتمع آنذاك لها، كما أن انشغال الإمام عليه السلام بتوعية الناس في أغلب خطبه وسائر كلامه، يضمر قلة المتصدين لمثل هذا الأمر، وصعوبة التعرض لهذه العلوم، وفي الوقت نفسه تبين قدرة الإمام عليه السلام العلمية، ووعيه الكامل بالإسلام.

(1) المصدر نفسه، خطبة 91: 172.

(2) شرح نهج البلاغة، الشيرازي، 4: 32.

المبحث الثالث: أثر البيئة في النسق

مدخل

كان للبيئة حضور فاعل في خطب نهج البلاغة بما حوته من ذكر للأماكن والحواضر والبلدان والأرض والسموات والكواكب والأفلاك والجبال والحيوان والنبات والمعادن والجواهر وغيرها من المخلوقات. ولم يكن ذكر البيئة وما يتعلق بها وصفاً مجرداً أو ترفاً أدبياً أو عرضاً جمالياً، بل هو وسيلة من الوسائل التي وظفها الإمام عليه السلام لتوجيه المجتمع وتثقيفه ثقافة إسلامية، مستثمراً صلة الإنسان ببيئته وتفاعله معها إذ إن «**العلاقة بينهما علاقة تأثر وتأثير، فهو يتأثر بكل ما يمثل شروط حياته من عوامل طبيعية واقتصادية واجتماعية وسياسية وأخلاقية، وما فرضته من متطلبات ضرورية، كما أنه يؤثر في تلك الشروط بالتعامل مع تلك المتطلبات بسلسلة من الاستجابات الفعلية التي يعمل بها على إقامة نمط الحياة المتناسب مع تطلعاته وطموحه**»[1].

فالبيئة تؤدي دوراً فاعلاً في ثقافة الإنسان ينعكس سلوكاً في حركته خلال مسيرته الحياتية[2]، ومع استمرار هذا السلوك تترسخ تلك العلاقة لتكون جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الاجتماعية العامة. وعلى الرغم من أن

---

(1) البطولة في الشعر الجاهلي، د. مؤيد اليوزبكي: 45.

(2) ينظر: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، د. عبد الفتاح أحمد يوسف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010م: 53.

توجيه الإمام عليه السلام للمجتمع كان توجيهاً مباشراً وواضحاً، إلا أن تحليل الخطاب يكشف عن أنساق مضمرة كانت لها الفاعلية في إنتاجه.

أولاً: نسق الحواضر والمدن

يرى الباحث من خلال استقراء خطب الإمام عليه السلام بروز حواضر ومدن كان لها النصيب الأوفر في تلك الخطب إذ تكرر الحديث عنها، وظهرت أهميتها من خلال التأكيد عليها، وهي بحسب حركة التاريخ: مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام وقد شهدت هذه المواطن أحداثاً كبرى، واكبت حياة الإمام عليه السلام وخاصة أيام خلافته، وكان لها أكبر الأثر في أنساق المجتمع سلباً وإيجاباً.

1 - مكة

لما كانت مكة حرم الله سبحانه، ومنها انطلقت الدعوة الإسلامية، وفيها بيت الله العتيق إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، فقد تمسك الإمام عليه السلام بقدسية هذا البلد، وحافظ على نسقه الديني، بل أكد على خصوصيته بالعبادة، وإبعاده عن الصراعات السياسية التي حاولت قريش زجه فيها[2]، تماماً كما فعل النبي صلى الله عليه وآله في حياته فوجه الإمام عليه السلام المجتمع إلى أن ينظروا ويتعاملوا مع مكة على انها حرم للعبادة فحسب لوجود بيت الله الحرام الذي حوى الكعبة المشرفة.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 96.

(2) تأريخ بغداد أو مدينة السلام، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، (ت463هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 2004م - 1425هـ.

وعلى هذا الأصل جرت سنة الله سبحانه منذ أن خلق الله آدم فقال عليه السلام: **«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَّوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، إِلَى الآخِرِينَ مِنْ هذا الْعَالَمِ، بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً. ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الأَرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الأَوْدِيَةِ قُطْراً، بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ، وَقُرىً مُنْقَطِعَةٍ، لا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ»**[1].

فهي دعوة للتأمل والتفكر والتجرد من كل شيء إلا من عبادة الله سبحانه، ويريد الإمام عليه السلام من وصفه لمكة أن يمتدحها لا أن يذمها فأرضها وإن كانت مجدبة لا زرع فيها ولا ماء إلا أن القلوب تهوي إليها وذلك من قدرة الله تعالى في مخلوقاته، ثم قال عليه السلام: **«ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عليه السلام وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ، تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ، وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الأَشْجَارِ دَانِيَ الثِّمارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَزُرُوعٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ»**[2]، فذكر العلل التي من أجلها جعلت مكة في وسط الصحراء المقفرة، ثم دعا الله الناس لحج بيته الحرام وليكون قبلة للناس وللتعبد خاصة، وقد يكون من أسباب ذلك هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 192: 368.

(2) نهج البلاغة، 192: 368.

المدينة، إذ أقام دولة الإسلام فيها، وترك مكة مع مالها من بعد تاريخي، وحتى بعد فتحها وإعلان أهلها الإسلام، لم يتخذها ﷺ مركزاً لإدارة الدولة.

ويأتي هذا التأكيد من الإمام عليه السلام على الجانب العبادي، وذلك لإبعاد قريش من التشبث بالدور السياسي الذي كان لها في مكة، وكذلك لمحو الصورة التي كانت في أذهان المجتمع الإسلامي حول أفضلية قريش وأحقيتها بالخلافة لانتسابها إلى مكة، فقطع عليه السلام الصلة بينهما بدواعٍ سياسية حتى في خطابه مع عماله في مكة كما فعل مع عامله هناك (قثم بن العباس) قائلاً له: «**أَمَّا بَعْدُ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ، وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ، وَذَاكِرِ الْعَالِمَ، وَلَا يَكُنْ لَكَ إِلَى النَّاسِ سَفِيرٌ إِلَّا لِسَانُكَ، وَلَا حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهُكَ، وَلَا تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ في أَوَّلِ وِرْدِهَا لَمْ تُحْمَدْ فِي ما بَعْدُ عَلَى قَضَائِهَا... وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾[1] فَالْعَاكِفُ: الْمُقِيمُ بِهِ، وَالْبَادِي: الَّذِي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ. وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ وَالسَّلَامُ**»[2].

فقرن كلامه عليه السلام عن مكة بالعبادة والتفقة ومدارسة العلم ليعطي لهذه المفاهيم زخماً وأولوية للقيام بها من قبل المجتمع الذي لازال حديث عهد بها، وهي بحسب منهج الإسلام دعوة للتحرر من العبودية لغير الله سبحانه، وعدم الخضوع لسلطة القبيلة، أو أي سلطة أخرى

---

(1) سورة الحج، الآية: 25.

(2) نهج البلاغة، كتاب رقم 67: 586.

تخرج عن مفاهيم الإسلام، إذ كانت مكة - متمثلة بقريش - تمثل مركز القرار والتحكم بالمجتمعات الداخلة في نفوذها أيام الجاهلية، وقد ظلت هذه النزعة في نفوس القرشيين حتى بعد مجيء الإسلام، وعلى ذلك شواهد كثيرة، منها على سبيل المثال، عندما وقع الخلاف بين بني هاشم وبني أمية قبل خلافة عثمان ابن عفان، فقام الصحابي عمار بن ياسر وقال: «**أيها الناس إن الله أكرمكم بنبيه، وأعزكم بدينه، فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم! فقال رجل من بني مخزوم لقد عدوت طورك يا بن سمية، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها**»(1). إذ لم يعترض أحد على هذا الكلام، بل كان الناس يستجيبون له، لما ترسخ في نفوسهم من استسلام لقريش. وقد عمل الإمام عليه السلام جاهداً على محو هذه النزعة، وكسر النسق السائد، عبر بث روح التسامح والمساواة بين الناس وعدم التفاضل بينها بغير حق، وقد استشهد بقوله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾(2)، أي من كان من أهل مكة أم من غيرها فهم على حد سواء من التعامل ترسيخاً لهذا المبدأ، ورفض التمايز بين الناس إلا بالتقوى.

2 - المدينة

اختلف الخطاب في المدينة وعنها عما كان في مكة، فبقدر ما أبعد الإمام عليه السلام مكة عن الدور السياسي والإداري للدولة الإسلامية، فقد ركز على دور المدينة وأهميتها في ذلك، فامتدحها، ودعا الناس إلى أن

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 1: 257. وينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. د. جواد علي، انتشارات الشريف الرضي، قم، ط1، 1380هـ، 4: 91، 92.

(2) سورة الحج، الآية: 25.

يقصدوها لأنها عاصمة الإسلام. ومنطلقاً لمفاهيمه والتي شيد بنيانها الرسول ﷺ، وقد كان الإمام عليه السلام دائم التذكير بها ففي خطبة له قال عليه السلام: «**هِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ عَلا بِهَا ذِكْرُهُ، وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ. أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلافِيَةٍ أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْـمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ، وَبَيَّنَ بِهِ الأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ فَـ (مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الاسْلامِ دِيناً) تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ**»[1]. فكان الخطاب إيجابياً وتربوياً يظهر مكانة المدينة في نفس الإمام عليه السلام، وحرصه على التمسك بما سنه الرسول ﷺ فيها من سنن الإسلام، حفاظاً على وحدة المسلمين مستثمراً اجتماع الناس على بيعته وفيهم الأنصار والمهاجرون.

3 - البصرة

إن ما تضمره نصوص الخطب التي وجهها الإمام عليه السلام إلى مجتمع البصرة وحديثه عن الوقائع التي جرت على أرضها، هو أن مجتمعها يعاني الضعف من ناحيتين:

أ - **الضعف العقائدي**: ويمثله المخالفون للإمام عليه السلام، ويكشفه قوله عليه السلام في ذم البصرة: «**كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ رَغَا فَأَجَبْتُم، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلاَقُكُمْ دِقَاقٌ وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، وَدِيْنُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ الْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ**»[2].

إذ تمكن أصحاب الجمل من استمالة أهل البصرة إليهم بيسر ومن

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 161: 286.

(2) نهج البلاغة، خطبة 13: 41.

غير معاناة فجعلوهم ينقضون عهدهم لولاتهم، وفي ذلك نقض لبيعة الإمام عليه السلام في الخلافة، فهم ليس لهم موقف ثابت، إذ تخلوا عن نصرة أصحاب الجمل أيضاً، فهربوا عندما انتصر الإمام عليه السلام في تلك الحرب، وتمكن من اعدائه الناكثين، يقول ابن أبي الحديد في شرح قوله عليه السلام: «وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ» «**يصفهم بالغدر، يقول: عهدكم وذمتكم لا يوثق بها، بل هي وإن كانت في الصورة عهداً وذمة، فإنها في المعنى خلاف وعداوة**»[1].

وأن أطباعهم هذه تجعل المرء يفر منهم، فلولا الاضطرار والحرب لما وصل إليها الإمام عليه السلام وما عرف أهلها وما خالطهم، وأنه ليغبط البعيد عنهم وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد: «**ثم وصف المقيم بين أظهرهم بأنه مرتهن بذنبه، لأنه إما أن يشاركهم في الذنوب أو يراها فلا ينكرها**»[2].

وفي نص آخر يقول عليه السلام: «**أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَاءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ وَأُكْلَةٌ لآكِلٍ، وَفَرِيسَةٌ لِصَائِدٍ**»[3]، فهم ذوو عقول سفيهة، عرضة لكل ما يملى عليها حقاً كان أو باطلاً، وفي تنكير الإمام عليه السلام (للنابل، والآكل والصائد) دلالة على إنهم عرضة لكل صائد، وفريسة لكل مفترس.

ب - **الضعف المادي أو العسكري**: ويمثله الموالون للإمام عليه السلام من أهل البصرة ويكشفه قوله عليه السلام عند قدوم طلحة والزبير إلى البصرة:

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 1: 318.

(2) المصدر نفسه 1: 318.

(3) نهج البلاغة، خطبة 13: 42.

«**فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً وَطَائِفَةً غَدْراً. فَوَ اللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذٰلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ. دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!**»(1).

فدل كلام الإمام عليه السلام على أن أهل البصرة المنكرين لدعوى أصحاب الجمل كثيرون إلا أنهم لم يقدروا على مواجهة أصحاب الجمل وذلك لضعف عدتهم وعدم استعدادهم للقتال فقتل منهم بعدد الجيش الذي دخل البصرة، وقد يفسر ذلك بالدخول المفاجئ لجيش أصحاب الجمل، إذ وجدوا هذا البلد غافلاً عما يجري في بلاد المسلمين الأخرى من فتنة قتل الخليفة عثمان، وما استتبعه من تناحر بين المسلمين أنفسهم فاستسهلوا دخول البصرة، وأرادوها منطلقاً لحربهم ضد الإمام عليه السلام وقد تكرر في الخطب ذكر (طلحة والزبير) وذمهما تصريحاً أو ضمناً، ولعل أعظم ما قيل فيهما تصريحاً قوله عليه السلام: «**فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله كَمَا تُجَرُّ الْامَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، . . .**»(2).

---

(1) المصدر نفسه، خطبة 172: 310، 311.

(2) المصدر نفسه، خطبة 172: 310. وينظر: مناقب آل أبي طالب، أبي طالب محمد بن علي بن شهر آشوب، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط1، 2009م، 1: 381.

ويضمر ذلك عظم خطرهما على الإسلام برمته، إذ استغلا مكانتهما التي جاءتهما من مصاحبتهما للنبي ﷺ من قبل في تحريف الأمور ليحققا مآرب لهما على حساب الإسلام والمسلمين عامتهم وخاصتهم، فبلغ ذلك إلى التغرير بحرمة رسول الله ﷺ ليلوذا بها ويتخذاها ستاراً لمقاصدهما، وقد كشف الإمام عليه السلام في أكثر من خطبة سوء نيتهما، ومنها قوله عليه السلام: «**كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لَا يَمُتَّانِ إِلَى اللهِ بِحَبْلٍ، وَلَا يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هذَا نَفْسَ هذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هذَا عَلَى هذَا، قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ...**»[1].

وأن مخاطبتهما بصيغة الجمع «**أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ**» إشارة إلى أن وراء كل منهما أتباع كثيرون، وقد فرقا المسلمين أحزاباً، كما يكشف الكلام تخاذل المسلمين في التصدي لهما، لذا قال عليه السلام معاتباً: «**فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! قَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ، وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ. واللهِ لَا أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ، وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ، ثُمَّ لَا يَعْتَبِرُ!**»[2]. ويضمر كلام الإمام عليه السلام اتضاح أمر الناكثين بمخالفتهم سنن الإسلام، فبعض عرفهم وبعض ضلل بهم، إلا أن من عرفهم لم ينكر عليهم بقول أو فعل، فتصدى الإمام عليه السلام لمقاتلتهم، وعرض بهم في خطبه.

4 - الكوفة

اتخذ الخطاب في الكوفة نسقين مختلفين هما: المدح، والذم أو

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 148: 258.

(2) المصدر نفسه، خطبة 148: 259.

الشكوى وذلك بحسب مواقف أهلها من الوقائع التي جرت في خلافة الإمام عليه السلام، وقد كان التأثير الكبير والمباشر بسبب واقعتي (الجمل في البصرة) و(صفين في الشام) فأحسنوا في الأولى فمدحهم الإمام عليه السلام، وأساءوا في الثانية فذمهم، حتى صار ذلك مثالاً يستشهد به، وسمة بارزة من سمات أهل الكوفة في عصرالإسلام الأول و«**ما أحسن قول أبي العيناء وقد قال له المتوكل**: إلى متى تمدح الناس وتهجوهم! فقال: ما أحسنوا وأساءوا وهذا أمير المؤمنين عليه السلام وهو سيد البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يمدح الكوفة وأهلها عقيب الانتصار على أصحاب الجمل مدحاً ليس باليسير ولا بالمستصغر، ويقول للكوفة عند نظره إليها: «**أهلاً بك وبأهلك! ما أرادك جبار بكيد إلا قصمه الله**»[1]، ويثني عليها وعلى أهلها حسب ذمه للبصرة وعيبه لها ودعائه عليها وعلى أهلها، فلما خذله أهل الكوفة يوم التحكيم، وتقاعدوا عن نصره على أهل الشام، وخرج منهم الخوارج، ومرق منهم المرّاق، ثم استنفرهم بعد فلم ينفروا، واستصرخهم فلم يصرخوا، ورأى منهم دلائل الوهن، وأمارات الفشل، انقلب ذلك المدح ذماً؛ وذلك الثناء استزادة وتقريعاً وتهجيناً»[2].

وكان ذلك من الإمام عليه السلام مساوقاً لمنهج القرآن الكريم في المدح والذم، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك، ففي القرآن الكريم «أثنى على الأنصار لما نهضوا، وذمهم لما قعدوا في غزاة تبوك فقال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3] الآيات إلى أن ﷺ، فقال: «وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا. . .»

(1) نهج البلاغة، خطبة 47: 88.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 2: 211، 212.
(3) سورة التوبة، الآية: 81.

أي عن رسول الله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾[1] [2].

ومما ورد عن الإمام عليه السلام في مدح أهل الكوفة قوله: «**وَجَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ**»[3]، فقد كان ذلك بعد فتح البصرة، وموقف أهل الكوفة مع الإمام عليه السلام في نصرته ضد أصحاب الجمل، مما شجع ذلك على اتخاذ الكوفة عاصمة للخلافة. فقد كانت - فضلاً عن موقفها المؤيد - بعيدة عن الخلافات والفتن التي أثيرت في مكة والمدينة، إلا أنه عليه السلام لم يخف تخوفه من انجرار أهل الكوفة وراء تلك الخلافات، وقد جند لها معاوية كل الطاقات، إذ أدرك خطر هذا المصر عليه.

فقال الإمام عليه السلام أول وصوله: «**أما بعد يا أهل الكوفة، فإن لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدلوا وتغيروا. دعوتكم إلى الحق فأجبتم وبدأتم بالمنكر فغيرتم. ألا إن فضلكم فيما بينكم وبين الله الأحكام والقسم. فأنتم أسوة من أجابكم ودخلتم فيما دخلتم فيه... ألا إن أخوف ما أخاف عليكم إتباع الهوى، وطول الأمل... عليكم بتقوى الله وطاعة من أطاع الله من أهل بيت نبيكم، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المتحلين المدعين المقابلين إلينا... ألا أنه قد قعد عن نصرتي منكم رجال فأنا عليهم عاتب ذارٍ. فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا؛ ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة**»[4].

---

(1) سورة التوبة، الآية: 118.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 2: 212.

(3) نهج البلاغة، كتاب رقم 2: 460.

(4) وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري التميمي، اعتنى بجمعه وتصحيحه وضبطه: حسين علي قصفة، دار المحجة البيضاء، بيروت، 1429 هـ/ 2008م: 4.

فهذا المدح من الإمام عليه السلام يشوبه حذر من قادم الأيام، وقد ذكر الإمام عليه السلام جمعاً ممن قعد عن نصرته. وكما كان متوقعاً، لم يبق أهل الكوفة على صفائهم وولائهم للإمام عليه السلام، فلم يدعهم معاوية من دون أن يفتنهم ويؤلبهم ضده، وقد ساعد على ذلك أمران: **الأول**: استعمال معاوية لمناصريه في الكوفة في إشاعة الفتن، أو استمالة بعض الوجوه ترهيباً وترغيباً، **والثاني**: اشتباه الأمور على أهل الكوفة، ومن ذلك التشكيك بحرب الإمام عليه السلام مع الناكثين، فقد سأل بعضهم، والإمام عليه السلام يخطب على منبر الكوفة فقال: «**يا أمير المؤمنين، أرأيت القتلى حول عائشة والزبير وطلحة، بم قتلوا؟ قال: «قتلوا شيعتي وعمالي في عصابة من المسلمين قالوا: لا ننكث كما نكثتم، ولا نغدر كما غدرتم، فوثبوا عليهم فقتلوهم فسألتهم أن يدفعوا إلي قتلة إخواني أقتلهم بهم، ثم كتاب الله حكم بيني وبينهم، فأبوا علي، فقاتلوني وفي أعناقهم بيعتي، ودماء قريب من ألف رجل من شيعتي، فقتلتهم بهم، أفي شكٍ أنت من ذلك؟ قال: قد كنت في شك، فأما الآن فقد عرفت واستبان لي خطأ القوم، وأنك أنت المهدي المصيب**»[1].

إلا أن الشبهات ازدادت وأصبح حال الكوفة كحالة المدينة يوم اجتمع الناس على بيعة الإمام عليه السلام ثم نكثوها، فهيمن هذا النسق على المجتمع الإسلامي آنذاك وبدأت ضلالة الناس تميل بهم إلى جانب معاوية، ففي إحدى خطب الإمام عليه السلام في الكوفة حيث كان يحرض الناس ويأمرهم بالمسير إلى صفين لقتال أهل الشام فبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم قال: «**سيروا إلى أعداء [الله. سيروا إلى أعداء] السنن والقرآن.**

(1) المصدر نفسه: 5.

سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار[1]**، فقام رجل من بني فزارة يقال له أربد فقال: أتريد أن تسير إلى أخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك، كما سرت إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم كلا، ها الله إذاً لا نفعل ذلك..»**[2]، فمثل هذا حال أهل الكوفة وتحول موقفهم «وعاشوا حالة كبيرة من الفساد أواخر خلافة الإمام عليه السلام إثر ازدياد الثروات وانتقال الثقافة الفاسدة من بعض البلدان المجاورة للبلاد الإسلامية والمشاكل التي خلفتها فترة الخلافة في المجتمع الإسلامي وفي مقدمتها التفاخر والتعصب القبلي والنعرات الجاهلية»[3].

وتغير لذلك خطاب الإمام عليه السلام الموجه لأهل الكوفة ويستبدل بالمدح الذم قائلاً: «**مَا هِيَ إِلَّا الكُوفَةُ، أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا إنْ لَمْ تَكُوني إِلَّا أَنْتِ، تَهُبُّ أَعَاصِيرُك، فَقَبَّحَكِ اللهُ!... وَاللهِ لأَظُنُّ هؤُلاءِ القَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِماعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ في الحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ في البَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ الأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلَاحِهِمْ في بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ... اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّوني، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُوني، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ.**

هُنَالِكَ، لَوْ دَعَوْتَ، أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الحَمِيم»[٤]

(1) وقعة صفين: 94.

(2) المصدر نفسه: 94.

(3) شرح نهج البلاغة الشيرازي، 7: 263، 264.

(4) نهج البلاغة، خطبة 25: 57، 58.

ودل كلام الإمام عليه السلام على كثرة جيشه، ولكن دون جدوى منهم، إذ لا يدفعون باطلاً، ولا يقيمون حقاً، قال الشريف الرضي: «**أقول الأرمية جمع رمي، وهو السحاب والحميم: وقت الصيف، وإنما حض الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولاً، وأسرع خفوقاً، لأنه لا ماء فيه، وإنما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لا يكون في الأكثر إلا زمان الشتاء؛ وإنما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا والإغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله: «هُنَالِكَ، لَوْ دَعَوْتَ، أَتَاكَ مِنْهُمْ**»[1]، فاجتمعت عدة أمور أدت إلى تقاعس أهل الكوفة كان من أهمها دخول الشبهات على عدد كبير منهم، وبعضهم سئم القتال، وبعض كان مبغضاً للإمام عليه السلام فلما رأوا طريقاً للخذلان أسرعوا إليه.

5 - الشام

تكرر في خطب الإمام عليه السلام حديثه عن اجتماع أهل الشام حول معاوية، ووحدة كلمتهم معه، ونصرتهم له في جميع المواقف مع أنه على باطل لا نحرافه عن مسيرة الدولة الإسلامية المتمثلة بالخلافة، ومع شيوع ذلك في البلاد الإسلامية إلا أن أهل الشام ظلوا بعيدين عن معرفة حقيقة معاوية الذي لم يجد صعوبة في تضليلهم فهم كما وصفهم الإمام عليه السلام: «**جُفَاةٌ طَغَامٌ، وَعَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِّعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّؤا الدَّارَ وَالإِيمَانَ**»[2].

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، 1: 409.
(2) نهج البلاغة، خطبه 238: 453.

فمجتمع الشام هجين، وفظ غليظ، رديء الأخلاق، ويضمر كلام الإمام عليه السلام انسجامهم مع معاوية واتفاقهم معه من جهة الانحراف، والذي رسخ ذلك بينهم طول مكثه معهم **«وعامل الزمن في مصلحة الانحراف، فكلما مضى على الانحراف يوم دون أن يوضع له حد ودون أن يقوم، يزداد رسوخاً وتمكناً ويستوعب مساحة جديدة من المجتمع، ويكون لدى الناس مزيد من قناعات في صالحه بينما تزداد النخبة عجزاً وعزلة، وتفقد مزيداً من مواقعها»**[1]، وقد استعمل معاوية فضلاً عن انسجامه مع أهل الشام رجالاً من قريش: يعينوه على تضليل الناس، وكان أبرزهم عمرو بن العاص، مما دعا الإمام عليه السلام أن يتناوله في كثير من خطبه قائلاً: **«عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لأهل الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ: أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِماً. أَمَا - وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ - إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ وَيَخُونُ الْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ الآل فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سُبَّتَهُ أَمَا واللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً»**[2].

فالإمام عليه السلام وإن كان يتحدث عن شخص بعينه (عمرو بن العاص)، إلا أنه يريد وراء ذلك أمراً أهم وأخطر وهو التعريض بمعاوية وأهل الشام، إذ ذكر عليه السلام الكذب ومخالفة الوعد والبخل والإلحاف وخيانة

---

(1) حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام: محمد مهدي شمس الدين: 176.

(2) نهج البلاغة، خطبة 84: 136، 135.

العهد وقطع الأرحام والفرار من الحرب ونسيان الآخرة والرشا وترك الدين، وهي كلها من مساوئ الأخلاق والصفات الذميمة فإذا كان هذا حال من ينوب عن معاوية في النظر إلى أمور الناس فكيف يكون حال معاوية وأهل الشام؟.

كما أن اختيار الإمام عليه السلام لعمرو بن العاص في خطبه اختيارٌ دقيق إذ كانت مواقفه في التخاذل والجبن معروفة ومشهورة، فمن خلاله تعرف سائر أحوال معاوية وأهل الشام، كما أن في ذكر حاله ووصف أعماله درساً تربوياً وأخلاقياً، كان الإمام عليه السلام قد دعا أصحابه إليه، خاصة مع أهل الشام عندما سمع أصحابه يسبونهم فقال عليه السلام: «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به»[1]. وهو بهذا الكلام يكشف عن صبره وثقته بنفسه، وهو في نفس الوقت يكشف عن عجز عدوه وخديعته للناس.

ثانياً: الاستشهاد بالمخلوقات

1 - الحيوان:

أثرت البيئة الصحراوية التي عاش فيها الإنسان العربي في حياته، إذ كانت حياة طبيعية بسيطة، خالية من أي تعقيد فانسجم مع ما حوله من مخلوقات، وخاصة الحيوانات التي كان اعتماده عليها في كثير من تدبير

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 206: 406 - 407.

شؤون حياته[1]، كالنقل والزراعة والحراسة... الخ، كما إن خلقة الحيوان وما أودع الله سبحانه فيه من مزايا، أثارت انتباه الإنسان العربي وأعجب بها بما «أعطى - الله سبحانه - كثيراً منها من الحس اللطيف، والصنعة البديعة ومن غير تأديب وتثقيف ومن غير تقويم وتلقين، ومن غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها، وبمقدار قوى فطرتها من البديهة والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لايقدر عليه حذاق رجال الرأي وفلاسفة علماء البشر بيد ولا آلة»[2].

ويرى الجاحظ أن في الحيوان مزايا يعجز الإنسان عن الوصول إليها مما دعاه ذلك إلى أن يؤلف كتاباً ضخماً اسماه (الحيوان) وقد سبقه علماء عرب في التأليف عن بعض الحيوانات كالإبل والخيل والطير والغنم، ومن أولئك العلماء: أبو حاتم السجستاني (ت248) والأصمعي (ت416)، وأبو عبيدة (ت209) وأبو الحسن الأخفش (ت215)[3].

وفي خطب نهج البلاغة وردت الألفاظ التي استعملها العرب للحيوان - أسمائه وصفاته - في (188) خطبة، وهو عدد كبير يزيد على النصف من مجموع الخطب البالغ عددها (243) خطبة وقد ورد (49) صنفاً من أصناف الحيوان موزعة على تلك الخطب، وقد خص الإمام عليه السلام الطاووس في خطبة كاملة، والنحلة والجراد في خطبة أخرى، فقال في الطاووس: «**وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ، الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ وَذَنَبٍ**

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس 1984: 305.

(2) كتاب الحيوان، أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 2010 م: 39.

(3) المصدر السابق، مقدمة المحقق: عبد السلام محمد هارون: 10.

أَطَالَ مَسْحَبَهُ. إِذَا دَرَجَ إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ، وَسَمَا بِهِ مُطِلاًّ عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ. . .»[1].

وإنما ذكر الطاووس لندرة وجوده بين الناس وهم يتشوقون لسماع المخلوقات التي لم يرونها، فجعل عليه السلام ذلك سبباً في بيان قدرة الله تعالى، كما أن في تعجب الطاووس وتبختره «**يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ**» وباقي الصفات التي ذكرها عليه السلام يضمر أن الإنسان قد يعجب بنفسه ويصيبه الغرور والتكبر فإن ذلك لا يليق إلا بالله سبحانه، الذي خلقه، وخلق ما هو أعظم وأجمل من الإنسان.

وأما ذكره للنملة والجراد فلدقة خلقها فقال: «**انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصَبَتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وُرُودِهَا لِصَدَرِهَا. . .**»[2].

وهو بيان آخر لقدرة الله سبحانه ومن ورائه دعوة إلى الناس أن يتفكروا بتلك القدرة والعظمة، وعلى الإنسان أن يعتبر بهذه المخلوقات العجيبة فيستعمر الأرض بالجد والعمل، وأن يحذر تقلبات الأحوال، ويتزود للآخرة من دنياه. ثم قال: «**وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ، يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ**

(1) نهج البلاغة، خطبة 165: 295.

(2) المصدر نفسه، خطبة 185: 339.

ذَبَّهَا وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِم، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا وَتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لَا يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً»[1].

وهذه أيضاً من العجائب التي لا بد للإنسان أن يتفكر فيها، ويعترف بضعفه أمام قدرة الله تعالى، الذي هو قادر على أن يبعث الجرادة التي «**خَلْقُهَا كُلُّهُ لَا يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً**»[2] فتضر الزراع بزرعهم فتهزمهم في دارهم وهم «**لا يستطيعون ذبها، ولو أجلبو بجمعهم**» فقال عليه السلام: «﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[3]، **ويعفر له خداً ووجهاً**»[4].

وأكثر ما استعمل في الخطب من الفاظ الحيوان هي ما اختص بـ (الإِبِلِ)، فهي تعد رمزاً من رموز البيئة العربية القديمة، فقد وضعوا لها أسماء كثيرة، ولها عندهم صفات ومعانٍ سطروها في أشعارهم وأمثالهم، وقد دعا القرآن الكريم إلى التفكر والتأمل في هذا المخلوق العجيب، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[5]، وقد استعار الإمام عليه السلام ألفاظها في الغالب للذم، فشبه بها أصحابه في حيرتهم وتحيره بهم فقال: «**يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ: صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلَامٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ! تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ الإبل غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ**»[6].

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 185: 341.
(2) المصدر نفسه، خطبة 185: 341.
(3) سورة الرعد، الآية: 15.
(4) نهج البلاغة، خطبة 185: 341.
(5) سورة الغاشية، الآية: 17.
(6) نهج البلاغة، خطبة 97: 177.

فهو عليه السلام كلما أصلح لهم أمراً أفسدوا عليه آخر، وكثر هذا المعنى في الخطب قال: «**مَا أَنْتُمْ لي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالي وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ وَلَا زَوَافِرُ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ. مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِن آخَرَ**»[1]، فهم على حال واحدة لا ينفع معهم نصح ولا إرشاد.

ويضمر كلام الإمام عليه السلام من هذا الاستعمال، عدم مبالاتهم بالدين وقلة اهتمامهم به فأراد تنبيههم عن طريق ما يهتمون به - الإبل - عما يغفلون عنه من أمور دينهم، كما استعمل (الخيل) لذلك، فمن خطبة له يكني بها ضلالتهم، قوله: «**أَلَا وإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ**»[2]، يريد إسراعهم إلى الشر، فهم يعرفون سرعة الخيل، ولكن استعملها الإمام عليه السلام على غير عادتهم، فذمهم بما يعد عندهم من رموز الفخر، وتكرر هذا المعنى فقال لما بويع بالمدينة وقد أخبر الناس بما تؤول إليه أحوالهم: «**وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً، وَلا كَذَبْتُ كِذْبَةً، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهذا المَقام وَهذَا اليَوْمِ، أَلَا وَإِنَّ الخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُها، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ في النَّارِ**»[3].

فهم يدركون هذه المعاني فتقحم الخيل، وخلع لجامها، تؤدي إلى عواقب وخيمة فكذلك هم لم يثبتوا على مبدأ، ولم يركنوا إلى ركن وثيق، تركوا أنفسهم عرضة للأهواء، بابتعادهم عن الحق، ويريد الإمام عليه السلام نفسه. وفي خطبة أخرى يقول: «**والناس على أربعة**

(1) المصدر نفسه، خطبة 34: 75، 76.
(2) نهج البلاغة، خطبة 10: 39.
(3) المصدر نفسه، خطبة 16: 44.

أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه، وكلالة حده، ونضيف وفره، ومنهم المصلت لسيفه والمعلن بشره، والمجلب بخيله ورجله، قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يفرعه ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ومما لك عند الله عوضا.. ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة... ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطاع سببه»[1].

واستعمل الإمام عليه السلام الطير للمدح، أو للافتخار فقال: «**وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحا ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير**»[2] فأراد أحقيته بالخلافة، والطير يمثل الرفعة والعلو، ومع ذلك فهو اعلى منه، ويضمر الكلام تفرده بمزايا وصفات لا يحملها غيره، فكيف لا يكون هو الخليفة. وقد يستعمل لوازم الطير في المدح كما هو قوله عندما خاطب الناس محذراً من فتنة بني أمية «**راية ضلالة قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها، تكيلكم بصاعها، وتخبطكم بباعها. قائدها خارج من الملة، قائم على الضلة، فلا يبقى يومئذ منكم الا ثفالة كثفالة القدر أو نفاضة كنفاضة العكم، تعرككم عرك الأديم وتدوسكم دوس الحصيد وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الطير الحبة البطينة من بين هزيل الحب**»[3].

فيضمر عدم بقاء الناس على إيمانهم إلا هو وثلة من أصحابه. ومن جميل خطبه جمعه الذم والمدح في عبارة واحدة، ويذكر الأسد

(1) المصدر نفسه، خطبة32: 69، 70.

(2) المصدر نفسه، خطبة 3: 28.

(3) نهج البلاغة، خطبة 108: 197. وينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، الدكتور جابر أحمد عصفور - دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت - 1983 م: 268.

والمعزى، وهي المرة الوحيدة التي ذكرت في الخطب وقد علم، ما للأسد من رمزية الشجاعة على سائر المخلوقات فقال وهو يبين سبب طلبه للحكم ويصف الإمام الحق: «**أيتها النفوس المختلفة، والقلوب المشتتة، الشاهدة أبلاغهم والغائبة عنهم عقولهم، أظاركم على الحق وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد! هيهات أن أطلع بكم سرار العدل، أو أقيم إعوجاج الحق اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك**»[1].

فالمنافسة على الحكم والسعي للدنيا لا للدين ومحاولة هدم وطمس معالمه والفساد والظلم وتعطيل الحدود وكل ما يخالف تعاليم الإسلام، كل ذلك كان وراء إقصائه من مكانه عليه السلام، وهو لم يزل ثابتاً قوياً، لا يظهر إنكساره أو ضعفه أو اكتراثه بالحكم، بل يرى أن الخسارة على الناس إذ لم يتخذوه إماماً، فما يريده إقامة الدين، وإصلاح ما فسد من أمور المسلمين، ورفع الظلم عنهم لذلك قال: «**وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإقامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الخائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة**»[2].

---

(1) المصدر نفسه، خطبة 131: 237، 238.

(2) نهج البلاغة، خطبة 131: 238.

فالكرم والعلم وسعة الصدر والشجاعة والنزاهة والعدل والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، صفات الحاكم الذي يريده الإمام عليه السلام للمسلمين وهي متوفرة فيه وهم يعلمون ذلك إذ لم يحدث أنه تخلف عن واحدة منها، ومن جهة أخرى يكشف استشهاد الإمام عليه السلام بالكثير من أطباع الحيوان على كثرة المتغيرات في المجتمع الذي يخاطبه واختلاف أمزجة الناس، وتصارعهم فيما بينهم وجهلهم وقلة تفاعلهم مع الدين وأحكامه السمحة.

2 - النبات:

لم يكن استعمال الألفاظ المختصة بالنبات كثيراً في الخطب فهي لم تتجاوز (20) مرة[1] ذكرت سريعاً كما في الخطبة التي كانت تتحدث عن الأنبياء فذكر في زهد نبي الله عيسى عليه السلام: «**وكان إدامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه...**»[2] فذكر الفاكهة والريحان ضمن جملة من عدة جمل متقاربة في المعنى تضمر تشبه الإمام عليه السلام بطريقة عيش الأنبياء عليهم السلام في الحياة الدنيا، وهي عيشة الفقراء ببساطتها وعدم التكلف، وعدم الجري وراء الشهوات.

وقد ذكر عليه السلام النبات في خطبة تحدث فيها عن الأرض وبداية خلق المخلوقات فقال: «**فلما ألقت السحاب برك بوانيها، وبعاع ما استقلت به من العبء المحمول عليها، أخرج به من هوامد الارض النبات، ومن**

(1) المصدر نفسه، فهرس النبات، د. صبحي الصالح: 801.

(2) المصدر نفسه، خطبة 160: 283.

زعر الجبال الأعشاب فهي تبهج بزينة رياضها، وتزدهي بما البسته من ربط أزاهيرها. . . »[1].

فكلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة ظاهر وواضح إذ يتحدث عن قدرة الله، سبحانه، يريد ربط الأسباب بمسبباتها الطبيعية.

ومن هذا الاستشهاد القليل بالنبات يمكن أن نتعرف على المضمرات التي كانت سبباً في عدم ذكر الإمام عليه السلام للنبات كثيراً في الخطب وهي:

1 - إن للطبيعة الصحراوية في الجزيرة العربية أثرها في تفاعلات الإنسان معها[2]، فلم يكن النبات جزءاً من طبيعتهم لذا قل ذكرهم له. وتفاعلهم مع من يتحدث به لذا ورد قليلا في خطاب الإمام عليه السلام.

2 - إن في النبات دلالات على صور الحياة الاجتماعية كالاستقرار والأمان والهدوء والسكينة، وهذا مالم نجده في المجتمع الذي كان يخاطبه الإمام عليه السلام فقد عاش في فترة مليئة بالحروب والاضطرابات والتقلبات وتغير مستمر ومتسارع بالمواقف. مما يوجب خطاباً مباشراً مع السامعين خالياً من التأملات البعيدة.

3 - معرفة الإمام عليه السلام بحال المخاطبين، وطريقة تفكيرهم الساذجة وميلهم للغلظة والخشونة وإنهم يفضلون سماع الخطب ذات المشاهد الحسية الحافلة بالصراعات والقوة فيقدمون منطق الحس على منطق العقل.

---

(1) المصدر نفسه، خطبة 91: 164.

(2) ينظر: نظرية الأدب، وستين دارين، ترجمة: محي الدين صبحي، دمشق، 1973م: 241.

3 - السموات والأرض

إن أبرز ما نلحظه في خطب الإمام عليه السلام عند ذكره للسماوات والأرض هو دعوته إلى التفكر في مخلوقات الله سبحانه، وقدرته العظيمة، فقد وردت ما يقرب من (70) خطبة، يذكر فيها الجبال والبحار والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، وهو ينحو في ذلك منحى القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾[1].

ويأتي التأكيد على تلك الظواهر الطبيعية لأن الناس كانوا بحاجة إلى معرفة كثير من المفاهيم الإسلامية التي قد تختلط مع مفاهيم تلك الظواهر التي ورثوها من أسلافهم في الجاهلية وهي مفاهيم خاطئة وتصورات ظنية عن تلك المخلوقات، واتخذت خطب الإمام عليه السلام في ذلك نسقين رئيسين:

الأول: جعل تلك المخلوقات والتفكر فيها مقدمة لمعرفة الخالق، وإبعاد الناس عن تلك العقائد الفاسدة التي كانوا يعتقدون بها كالتنجيم، وإيمانهم بالخرافات، أو عبادة الشمس والقمر لذا كان تناول الإمام عليه السلام مقيداً بحدودها، ومبيناً حقائقها الكونية إذ وصفها كما هي ومن ذلك قوله: «**وَكَانَ مِنِ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ يَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ [وَأَرْسَى**

---

(1) سورة الغاشية، الآيات: 17 - 21.

أَرْضاً] يَحْمِلُهَا الْاخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ... وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا وَنُشُوزَ مُتُونِهَا وَأَطْوَادِهَا فَأَرْسَاهَا في مَرَاسِيهَا وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِها، فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا... ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[1] [2].

فإن البحث عن أصل وجود هذه المخلوقات يدور في خلجات الناس وتفكيرهم، ومن خلال ربط بعضها مع البعض، وعلاقة كل مخلوق مع غيره ثم علاقتها بالإنسان يمكن أن يتيسر معرفة الخالق ومن ثم الإيمان به.

الثاني: الاستعانة بتلك المخلوقات العظيمة لمعرفة دور الإنسان في الحياة وما يراد منه، وبيان حجمه، وكيفية أداء ما عليه من واجبات اتجاه مجتمعه ونفسه. ففي حديث الإمام عليه السلام عن الأخلاق يأتي على ذكر المخلوقات لكي يبرز عظمة الأخلاق من خلال ذلك فمن خطبة له عليه السلام يقول: «**ثم أداء الأمانة، فقد خاب من ليس من أهلها. إنها عرضت على السماوات المبنية والأرضين المدحوة، والجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول ولا أعرض، ولا أعلى ولا أعظم منها، ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لامتنعن، ولكن أشفقن من العقوبة، وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان: إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**»[3]. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[4].

---

(1) سورة النازعات، الآية: 26.
(2) نهج البلاغة، خطبة 211: 411، 412.
(3) نهج البلاغة، خطبة 199: 400.
(4) سورة الأحزاب، الآية: 72.

فميل الإنسان للمواد الحسية وتعلقه بها، هو الذي دعا الإمام عليه السلام إلى الإتيان بالمحسوسات لينقل عن طريقها المفاهيم الروحية، فنبه على جهل الإنسان وظلمه من خلال تلك الجمادات التي هي أقوى وأعظم منه، ومع ذلك أنها تخشى الأمانة من أن لا تؤديها كما صور ذلك الإمام عليه السلام ومن قبل القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها صفات الله تعالى المتفرد بها والخارجة عن أوهام الناس قال: «**وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ وَلَا كُرُورُ لَفْظَةٍ، وَلَا ازْدِلَافُ رَبْوَةٍ وَلَا انْبِسَاطُ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْكُرُورِ وَالْأُفُولِ، وَتَقْلِيبِ الْأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ، قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَةٍ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنِهَايَاتِ الْأَقْطَارِ وَتَأَثُّلِ الْمَسَاكِنِ، وَتَمَكُّنِ الْأَمَاكِنِ؛ فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ**»[2].

فتصورات الإنسان محدودة وضيقة إذ هو يدرك ما يحيط به، ولا يتسع عقله لمعرفة حقيقة خالق الكون من دون دليل وحجة بالغة، وقد زاد ذلك جهلاً، ما ورثه من شبهات فأراد الإمام عليه السلام أن يصل بالإنسان إلى أقصى غايات المعرفة بالله تعالى وذلك من طريقين:

الأول: إزاحة الأوهام والأفكار المحدودة، والنظرة الضيقة التي

---

(1) سورة الحشر، الآية: 21.

(2) نهج البلاغة، خطبة 290: 291.

يحملها الناس تجاه الخالق كالتجسيم والتشبيه بالمخلوقات أو حده تعالى بزمان أو مكان.

والثاني: الاستدلال على الخالق من خلال مخلوقاته.

وكثيراً ما يجمع الإمام عليه السلام بين أنموذجين أحدهما يتعلق بالإنسان والآخر بالمخلوقات، ففي خطبة يذكر فيها الذهب والفضة، ويذكر معهما الحكمة من ابتعاد الأنبياء عليهم السلام عنهما في الدنيا فقال: «**وَلَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ. . . ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طَيْرَ السَّماءِ وَوُحُوشَ الْارَضِينَ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الْانْبَاءُ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتِ الْاسْمَاءُ مَعَانِيَهَا، وَلكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيما تَرَى الْاعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَا الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنىً، وَخَصَاصَةٍ تَمْلَا الْابْصَارَ وَالْاسْمَاعَ أَذىً**»[1].

فأراد عليه السلام إظهار خطر التعلق بالدنيا على إيمان الإنسان، من خلال ذكر الجزء وإرادة الكل فذكر (الذهب) إذ هو أوضح المصاديق لمغريات الحياة الدنيا، وخطر ذلك أن يؤدي التعلق بتلك المغريات من اتخاذها عبادة أو تمكنها من النفس فتقل العزيمة، وتصبح تلك الأحجار أقوى من الإنسان. وفي المقابل ذكر الإمام أنموذج الإنسان المتمثل بالأنبياء عليهم السلام، فكانوا حجة على سائر الناس في قدرتهم على إظهار قوتهم وعزمهم في طاعة الله سبحانه وعبادته حق عبادة، وأن يكون الإنسان هو الذي يتصرف في المخلوقات، لا أن تتصرف المخلوقات فيه.

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 192: 367.

الخاتمة والنتائج

الخاتمة

بحثت في هذه الدراسة موضوعة (الأنساق الثقافية في خطب نهج البلاغة) مستنطقاً المخبوء تحت أغطيتها اللغوية والبلاغية والجمالية وذلك عبر الأدوات الإجرائية للنقد الثقافي، ومسايرة نهجه في النظر إلى النص، بعد سعيي إلى المقاربة بين الحدود والمفاهيم للثقافة بشكل عام، وللنقد الثقافي والأنساق الثقافية بشكل خاص، عبر المدونتين العربية والغربية، ومن ثم فاعلية الأنساق في الثقافة العربية من خلال استقراء خطب نهج البلاغة، في سياقها الديني والسياسي والاجتماعي، ثم معرفة مدى أثر تلك الأنساق في إنتاج النص، ليقدم الباحث ثمار بحثه التي كان أهمها ما يلي:

1 - النسق الثقافي: عبارة عن تمازج النسق مع الثقافة في سبيل إنتاج نوع من المواضعات المختلفة التي يتم تداولها في ثقافة ما، لتؤدي إلى علائق غير منظورة ومهيمنة في سياق الخطاب والنص.

2 - إن خطب نهج البلاغة باختلاف مقاماتها وأنواعها تحمل نسقاً ثقافياً عاماً. حتى تلك التي يتحدث بها الإمام عليه السلام عن نفسه.

3 - رصدت الدراسة من خلال استقراء خطب نهج البلاغة أنساقاً ظاهرة ومضمرة مهيمنة ومتحكمة في الثقافة العربية، والتي كان للإمام عليه السلام دور كبير في صناعاتها وترجمتها بما ينسجم وثقافته الإسلامية، إذ كان أبرز ما يميز خطابه عليه السلام: هو موازنته بين ما يحمله

من فكر إسلامي، وعلم غزير، وبين مستويات ثقافة المخاطبين. وبعد استقراء الخطب وجدنا أن هناك ثلاثة أنساق رئيسة هيمنت على الخطاب وهي: -

أولاً: النسق الديني، وفيه عرضنا لأثر القرآن الكريم في النسق سواء كان من جهة الشكل أو من جهة المضمون، وكيف استطاع الإمام عليه السلام أن ينسج خطاباً ذا أنساق جمالية مميزة، كان للقرآن الكريم أثرٌ واضحٌ فيها، بدءاً من استغلال طاقة الحرف وتكراره انتهاءً بالجملة أو الجمل وتركيبها، كما كان لسيرة الأنبياء عليهم السلام وخاصةً النبي محمد صلى الله عليه وآله أثرها الثقافي في إنتاج النص، إذ تبرز من خطب الإمام عليه السلام عظمة الخالق سبحانه وتعالى، ومنزلة النبوة في نفوس العارفين.

وإذا كان شرط الأنساق الثقافية هو تشكلها من ثنائية الظاهر والمضمر، فان ظاهر النسق الديني وجماله الشكلي في خطب نهج البلاغة يضمر جمالاً آخر مخبوءاً تحت ذلك الجمال أو الشكل وهو إثبات الإمام عليه السلام الحق لنفسه بأنه خير من اهتدى وامن بالله ورسوله صلى الله عليه وآله ، وأفضل من وعى تعاليم الإسلام وعمل بها ليس على نفسه فحسب، بل سعى لإيصال ذلك الوعي، وحث المتلقي على العمل به.

ثانياً: النسق السياسي، وكشفت الدراسة في هذا النسق عن الواقع السياسي للدولة الإسلامية آنذاك ودوره في إنتاج الخطاب، خاصة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ، والحاجة إلى سلطة تقوم مقامه، فكشفت خطب تلك المرحلة عن النزعة الذاتية وعودة الأنساق الجاهلية المتمثلة بالعصبية والقبلية والقرابة النسبية إلى الظهور من جديد كما تميز خطاب هذه المرحلة ببث الشكوى من الرعية بما يضمر أحوالاً سياسية خطرة ساعدت

على تفكك الصف الإسلامي وشاعت فيه المعارضات للسلطة والتمرد عليها ومحاولة العودة إلى سلطة القبيلة والاحتكام إليها.

ثالثاً: النسق الاجتماعي، وتعرضت الدراسة فيه إلى الخطب الكاشفة عن العوامل المؤثرة في المجتمع من نسق قرابي أو الانتماء للقبيلة أو العشيرة، وقد فرق الإمام عليه السلام بينهما فمدح العشيرة، وذم القبيلة، إذ رأى في الأولى ما ينسجم والأهداف الإسلامية، وفي الثانية خطورتها على الإسلام، الأمر الذي يكشف عن امتلاك الداعين إلى القبلية الجاهلية لأدوات السيطرة على المجتمع والتأثير في ثقافته.

كما وردت في خطب نهج البلاغة نصوص عديدة ومتنوعة كشفت عن الأثر البيئي في الحياة الاجتماعية، وأظهرت العبارات المكثفة تفاعل الإنسان العربي مع ما يحيط به من مخلوقات تفاعلا روحياً وفكرياً وعقائدياً، وفي الوقت نفسه تضمر تلك النصوص فهم الإنسان العربي المحدود لما يحيط به من مخلوقات الطبيعة عبر تعامله الساذج معها، والسبب في ذلك يعود إلى ما يحمله العربي من موروثات خاطئة وتصورات بعيدة عن حقيقة تلك الطبيعة وما فيها من مخلوقات، وما حولها من ظواهر كونية، مما دعا الإمام عليه السلام إلى أن يفصل القول فيها ويوردها في جل خطبه، إذ يندر ان نجد خطبة تخلو من ذكر السموات والأرض، أو الليل والنهار، أو الحيوان والنبات، او الجبال والبحار... الخ، حتى أصبح ذلك نسقا عاما في الخطب ومن خلاله نستدل على أمرين:

الأول: ابتعاد المجتمع آنذاك عن الثقافة الإسلامية التامة، وعدم تدبر آيات القرآن الكريم والأخذ بعلومه لذا كان أكثر ما دعا إليه

الإمام عليه السلام في خطابه الاجتماعي هو التنبه من الغفلة وإعمال الفكر من خلال التدبر في آيات الله سبحانه، والنظر في مخلوقاته العجيبة.

الثاني: استثمار الإمام عليه السلام تفاعل المجتمع مع البيئة في توجيهه وتثقيفه بالثقافة الإسلامية والانتقال به من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية والفكرية، ليكون ذلك سببا في وعي الفرد المسلم بعقيدته، واعتزازه بدينه الذي يهديه إلى سبل الخير ليصبح إنسانا فاعلا ومنفعلا في مجتمع يسوده الخير.

والحمد لله رب العالمين

Abstract:

The cultural criticism has appeared recently in the Arabic and Western world. It is interested in the effective factors in producing the literery text and the surrounding environment; political, social, cultural, relegions factors in addition to habits and customs. This type of criticism includes also (cultural styles) which I made it as a title of my research applying its measures on the speech of Nahj Al-balagha. f Immam Ali and I called it (the cultural styles in Nahj Al-balagha).

I discussed first the meaing of (culture) in term and language and how it moved from the Western culture to the Arabic culture. Then I explained the cultural studies which have been a reason for cultural criticism appearance across the rising of these studies through two schools: the first in Britain (Bermingham Institute) and the second in Germany (francfort school).

then I discussed (the cultural criticism) defining and causes that led to its development and the opinions of Arabs and we stern. then I concluded the prefoce by defining (the cultural styles) and its role in the text and I mentioned that it has two divisions: apparent and interior with focus on interior styles After the preface I discussed the cultural styles in Nahj Al-balagha and I found that Imam Ali dealt with three styled relegions, political and social.

the relegions one Was influenced by holly Guran from two sides: the form and beauty of Guran and the content of Guran. Other influence was by the prophet's approaches which in fluencedin Nahj Al-balagha, especially the life of prophet Mohammad who brought him up since childhood. the political styles focused on the

opinion of Imam Ali about policy and the form of power afler the death of the prophet and then during his rule and how he treated people, army and opposition. the social styles concentrated on relation systems, family, tribe and its rule in the society. Imam Ali attacked and criticized the regressive rule of the tribe which

based on keeping control over others and treated them injustly. How ever, Imam Ali praised the tribe when it would be one of the One's strength in society.

I concluded my research explaining the effect and influence of invironment on the society and how the speech of Imam Ali contains environmental features like plants, animal, planets, stars and mountains where Arabs were able to borrow the features of nature and animals in their similie in prose and poetry. I found that I mam's specch in Nahj Al-balagha is full of these styles and closely related to the social reality with focus on the Islamic approach which Imam Ali tried to show and display in the society.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- الإتقان في علوم القرآن، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت911هـ)، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2007م.
- الأثر القرآني في نهج البلاغة (دراسة في الشكل والمضمون)، د. عباس علي حسين الفحام، العتبة العلوية المقدسة، العراق - النجف الأشرف، 2011م.
- أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام، الخوارج والشيعة، يوليوس فلهوزن، تر: عبد الرحمن بدوي، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، 1968م.
- الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داوود الدينوري (ت282هـ)، تحقيق عبد المنعم عامر، المكتبة الحيدرية، قم، ط2، 1379هـ.
- أدب الكاتب، عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، تحقيق: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1988م.
- أساس البلاغة، محمود جار الله الزمخشري (538هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 2001م،
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي (ت463هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 2002م.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ابن

أثير، (ت630هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط3، 2007م.

- أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2001م.
- الإسلام والرأي الآخر - تجربة الإمام علي عليه السلام أنموذجاً - ، حسن السعيد، ط1، 2003م.
- الإسلام من وجهة نظر الاناسة، كليفورد غيرتس، ترجمة: أبو بكر باقادر، دار المنتخب العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1993م.
- أسلوب الاستفهام في القرآن، عبد الكريم محمود يوسف، دارالمؤلف، دمشق، ط1، 2000م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (852هـ) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط3، 2005م.
- أصول الاستبداد العربي، زهير فريد مبارك، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.
- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني(ت403هـ)، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2، 2008م
- الأعلام - قاموس تراجم -، خير الدين الزركلي، دار العلم الملايين. بيروت - لبنان، ط17، 2007م.
- أعلام الهداية - الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين - ، لجنة التأليف مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ، قم، ط3، 1427هـ ق.

- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق د. احسان عباس واخرين، دار صادر، بيروت، ط3، 2008م.
- ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات أبي حيان التوحيدي د. طيبة صالح الشذر، مطابع الأهرام - مصر، 1989م.
- اليوت، د. فائق متى، دار المعارف - القاهرة، ط2، 1991.
- أمالي المرتضى - غرر الفوائد ودرر القلائد -، الشريف المرتضى علي بن الحسين (ت436هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، منشورات طليعة النور، قم، ط1، 1425هـ.
- الإمام علي عليه السلام في رؤية النهج ورواية التاريخ، د. إبراهيم بيضون، النجف الأشرف، العتبة العلوية المقدسة، ط2، 2012م.
- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت276هـ)، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ، بيروت، لاط، 1418هـ - 1997م.
- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي (ت414هـ)، صححه وضبطه: أحمد أمين، وأحمد الزين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1939م.
- الأمثال العربية والعصر الجاهلي - دراسة تحليلية - ، محمد توفيق أبو علي، دار النقاش، ط1، 1988م.
- الانثربولوجيا الاجتماعية، د. عاطف وصفي، دار النهضة العربية للنشر والطباعة، بيروت، ط3، 1981م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني(ت739)، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 2007م.

- البداية والنهاية، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي (ت774هـ) تحقيق: علي محمد معوض، وأحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 2005م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين أبو عبد الله الزركشي (ت794هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ، ط2، 2005م.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمد شكري الالوسي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2009م.
- البيان والتبيين. أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، دار التاريخ، ط2، 2002م.
- تأريخ ابن خلدون، المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن، ت808ه - 1406م، دار الكتب العلمية بيروت، 2006م - 1427هـ.
- تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، عماد الدين أبو الفداء (ت732)، تحقيق: محمود أيوب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط1، 1997م
- تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي - شوقي ضيف، ذو القربى، قم - إيران، ط2، 1427هـ.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة - مصر، ط1، 2005م.
- تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي، صائب عبد الحميد، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، الجمهورية الإسلامية - قم المقدسة. ط2، 2005م.
- تأريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1964م.

- تأريخ بغداد أو مدينة السلام، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، (ت463هـ). تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 2004م - 1425هـ - تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بشير رمضان، وجمال هاشم، دارالمدار الإسلامي، طرابلس - ليبيا، ط2، 2004م.
- تاريخ الدولة العربية منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الاموية، عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، لا ط، 1406هـ - 1986م.
- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، إحياء التراث العربي بيروت - . لبنان، ط1، 2008م.
- تاريخ العرب في عصر الجاهلية. د. عبد العزيز سالم، دار النهضة، بيروت لبنان.
- التاريخ الكبير، ابو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، (ت256هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2001م.
- تأريخ مختصر الدول، غريغوريوس الملطي بن العبري، دار الأفاق العربية، مصر 1421هـ - 2001م.
- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، (ت292هـ)، دار الاعتصام للطباعة والنشر، قم المقدسة، ط2، 1425هـ.
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس 1984: 305.
- التحقيق في كلمات القرآن، المصطفوي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان. ط3، 2009م.

- التحليل الثقافي، ميشيل فوكو واخرون، ترجمة: أحمد مصطفى واخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008م.
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، 1979.
- التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان - الأردن، ط5، 2007م.
- تفسير الأمثل، ناصر مكارم شيرازي، الأميرة للطباعة والنشر بيروت - لبنان، ط2، 2009م.
- تفسير القرآن، عبد الله شبر، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1، 2006م.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، محمد بن عمربن الحسين الرازي دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط3، 2009م.
- تفسير الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري، (ت538هـ/)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط2، 2001م.
- تمثيلات الآخر - صورة السود في المتخيل العربي الوسيط. نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
- الثقافة السياسية الإسلامية، هاشم الموسوي، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، ط1، 1421هـ.
- الثقافة (التفسيرالانثروبولوجي)، ادم كوبر، ترجمة: راجي فتحي، مراجعة: د. ليلى الموسوي، عالم المعرفة، الكويت، العدد 349، 2008م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت710هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط5، 2009م.
- جماليات التحليل الثقافي، يوسف عليمات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004م.

- جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري (ت395هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، المؤسسة العربي الجديدة، القاهرة.
- حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي عليه السلام. كمال الزماني، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، أربد - الأردن، ط1، 2012م.
- حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام - دراسة في نهج البلاغة - محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية، بيروت، ط4، 1997م.
- حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام، د. سعيد حسين منصور، دار القلم، الكويت، ط1، 1981م.
- الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، حسين مؤنس، عالم المعرفة، 1978م.
- حقوق الإنسان عند الإمام علي عليه السلام، غسان السعد، العتبة العلوية المقدسة، العراق - النجف الأشرف. ط2، 2010م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبي نعيم أحمد بن عبد الله الاصفهاني (ت43هـ) تحقيق: سعيد سعد الدين الاسكندراني، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1، 2001م.
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 2010م.
- الخروج من التيه، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، العدد 298 الكويت2003م.
- الخوارج، تاريخهم، فرقهم، وعقائدهم، أحمد عوض ابو الشباب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م - 1426هـ.

- الخوارج في العصر الأموي، نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، أدبهم، نايف معروف، دار الطليعة، بيروت، لاط، لات.
- دراسات في فقه اللغة - د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين - بيروت، ط7، 1978.
- دراسات في مصطلح السياسة عند العرب، أحمد عبد العلام، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1977م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، تأليف عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، 2007م.
- ديوان الأدب، إسحاق بن إبراهيم الفارابي، (ت350 هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد مختار عمر، القاهرة، 1974.
- ديوان الحماسة، بشرح المرزوقي، تحقيق: أحمد امين، لجنة التاليف والترجمة، القاهرة، 1967م.
- رائد الثقافة العامة - كوزيليوس هيرشبرغ، ترجمة: يوسف نجم، دار الكتاب العربي - بيروت، 1963م.
- سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، أبو الفوز محمد أمين البغدادي تحقيق: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط4، 2009م.
- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجي الحلبي، (ت466 هـ)، تح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي وأولاده، مصر، 1969م.
- سلسلة في رحاب نهج البلاغة، الشقشقية دراسة موضوعية، عبد الرسول الغفاري، العتبة العلوية المقدسة، العراق - النجف الأشرف، 2011م.
- سيرة الأئمة الاثني عشر، هاشم معروف الحسني، تحقيق: مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، مطبعة ثامن الحجج عليه السلام، قم، ط1، 1428هـ ق.

- سيرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، هاشم الميلاني العتبة العلوية المقدسة، العراق - النجف الاشرف، 2011م.
- السيرة النبوية لابن هشام، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط1، 2004م.
- الشخصية العربية ومقاربتها الثقافية، أ. د قيس النوري، دار ومكتبة البصائر، بيروت - لبنان، ط1، 2012م.
- شرح نهج البلاغة، الشيخ مكارم الشيرازي، دار جواد الأئمة عليهم السلام بيروت - لبنان، ط2، 2009م.
- شرح نهج البلاغة، د. صبحي الصالح، أنوار الهدى، ايران - قم، ط4 1431هـ.
- شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي (ت656هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، أنوار الهدى، ايران - قم، ط1، 1439هـ.
- شرح نهج البلاغة، محمد عبدة، ذوي القربى، قم، ط1، 1384هـ.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 2000م.
- الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت - لبنان، ط3، 2010م.
- صوت الإمام عليه السلام في نهج البلاغة، حسن علي القبنجي النجفي، مؤسسة إحياء التراث الشيعي، النجف الأشرف، ط1، 1426هـ.
- الصوت اللغوي في القرآن، الدكتور محمد حسين الصغير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2008م.
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية، محمد توفيق، شركة المطبوعات، بيروت، لبنان، ط3، 2007م.

- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، الدكتور جابر أحمد عصفور - دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت - 1983م.
- الصورة الفنية في المثل القرآني، الدكتور محمد حسين الصغير، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 1992م.
- الطبقات الكبرى، ابن سعد محمد بن مشبع الهاشمي البصري (230هـ)، دراسة وتحقيق: محمدعبد القادرعطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1418هـ/ 1997م.
- الطبيعة والثقافة (سلسلة دفاتر فلسفية)، جمع وترجمة: محمد سبيلا، وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، المغرب، ط1، 1991م.
- عبد الله بن عباس، السيد محمد تقي الحكيم، مكتبة الصدر، قم، ط1، 1423هـ.
- عبقرية الامام علي عليه السلام، عباس محمود العقاد، دار المعارف، مصر، ط5، 1981م.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي، (ت328هـ)، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2006م / 1427هـ.
- العقل السياسي العربي - محدوداته وتجلياته - د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط6، 2007م.
- علم الأصوات اللغوية، مناف الموسوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
- علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير. ترجمة: يؤيل يوسف عزيز، دار أفاق عربية، الاعظمية - بغداد، 1985م.
- علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006م.

- علي والخوارج - تاريخ ودراسة -، مرتضى السيد جعفر العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت، ط1، 1423هـ ق/ 2002م.
- علي سلطة الحق، عزيز السيد جاسم، تحقيق: صادق جعفر الروازق، منشورات الاجتهاد، قم، ط1، 2007م.
- العمدة في محاسن الشعر ونقده، أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط4، 1972م.
- فتح الباري - شرح صحيح البخاري -، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (852هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة دار الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط3، 2000م.
- الفتنة الكبرى، الدكتور طه حسين، طبع دار المعارف، مصر، لاط، 1968م.
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، محمد بن علي بن طباطبا، دار صادر، بيروت، لاط، لا ت.
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري (487هـ) تحقيق: عبد المجيد عابدين وإحسان عباس، دار الأمانة، بيروت، 1971م.
- فصول في اللغة والنقد، نعمة رحيم العزاوي، المكتبة المصرية بغداد، ط1، 2004م.
- الفلسفة والاعتزال في نهج البلاغة، قاسم حبيب جابر، دار ومكتبة البصائر، بيروت لبنان، ط1، 2010م.
- الفلسفة الحديثة، ليبانسكي، جمع وترجمة: محمد سبيلا، وعبدالسلام بنعبد العالي، افريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2002م.
- في حداثة النص الشعري دراسة نقدية، علي جعفر العلاق، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، 2003م.

- في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري، العتبة العلوية المقدسة، النجف، 2011م.
- في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية، مطبعة ستار - قم، ط1، 1427 هـ.
- في الفكر الاجتماعي عند الإمام علي عليه السلام، عبد الرضا عبد الأمير، قم - إيران، ط1، 2005م.
- قاموس المصطلحات الأدبية، د. أميل يعقوب وآخرين، دارالعلم للملايين، بيروت ط1، 1987م.
- قاموس مصطلحات الانثربولوجيا والفلكلور، آيكة هولتكراس، ترجمة: محمد الجوهري، وحسن الشامي، دار المعارف، ط1، 1972م.
- القراءة النسقية - سلطة البنية ووهم المحايثة -، أحمد يوسف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007م.
- الكامل في التاريخ، عز الدين علي ابن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير، (ت630هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دارالمعرفة، بيروت - لبنان، ط2، 2007م.
- كبير الصحابة أبو طالب، د. عبد الرسول الغفاري، العتبة العلوية المقدسة، العراق - النجف الاشرف، 2012م.
- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بـ (سيبويه)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت - لبنان.
- كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر -، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط1، 2006م.
- لسان العرب، ابن منظور، (ت711هـ) تحقيق: أمين محمد عبد

الوهاب، محمد الصادق العبيدي، ، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط3.

- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، د. عبد الفتاح أحمد يوسف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010م.
- مثالب الوزيرين، لأبي حيان التوحيدي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م.
- المثقفون في الحضارة العربية - محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2003م.
- المثقف والسلطة، ادوارد سعيد، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير (ت637هـ)، تحقيق: محمد محي الدين، القاهرة، 1939م.
- المثل في نهج البلاغة، عبد الهادي عبد الرحمن، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 2012 م
- مجمع الأمثال، أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت518هـ)، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، 1959م.
- مدخل إلى علم اجتماع الأدب، د. سعدي ضناوي، دارالفكرالعربي، بيروت ط1، 1994م.
- مدخل إلى علوم نهج البلاغة، الدكتور محسن ياقر الموسوي، دارالعلوم، بيروت، ط1، 2003م.
- مدخل إلى نظرية الأ نساق، نيكلاس لومان، ترجمة: يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، كولونيا - ألمانيا، بغداد، 2010م.
- مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، أ. د حفناوي بعلي، منشورات الاختلاف - الجزائر، ط1، 2007م.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، (ت346هـ)، تحقيق: أمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، لبنان، 1421هـ/ 2000م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي (ت911هـ)، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة، عيسى البابي، مصر.
- المستويات الجمالية في نهج البلاغة، نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد - العراق، ط1، 2008م.
- مسند أحمد بن حنبل، (ت241هـ)، تحقيق: أبي صهيب الكرمي، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط1، 1998م.
- معجم علم الاجتماع، عبد الهادي الجوهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2008م.
- معجم علم السياسات والمؤسسات السياسية، نمي هرميه وآخرون ترجمة: هيثم اللمع، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 2005م.
- معجم القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيرزآبادي رتبه ووثقه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة بيروت - لبنان، ط3، 2008م.
- معجم المصطلحات الأدبية، نواف نصار، دار المعتز، الأردن - عمان، ط1، 2010م.
- معجم مصطلحات علم الاجتماع، جيل فيريول، ترجمة: أنسام محمد الأسعد، دار ومكتبة الهلال - بيروت ـ 2011م.
- المعجم المفصل في اللغة والأدب، د. أميل بديع يعقوب، د. ميشال عاصي، دار العلم للملايين، م1.
- المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، تاليف الياس كلانتري، طهران، دار الأسوة للطباعة والنشر، ط2.

- المعقول واللا معقول في تراثنا الفكري، زكي نجيب محمود، دار الشروق - القاهرة.
- مفاتيح اصطلاحية - معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع - طوني بنيت وآخرين، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1، 1980م.
- المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، د. خليل أحمد خليل، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2 20010م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني أبي القاسم الحسن بن محمد (ت502هـ)، تحقيق: هيثم طعيمي، دارإحياء التراث العربي بيروت، ط 1، 2008م.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. د. جواد علي، انتشارات الشريف الرضي، قم، ط1، 1380هـ.
- مقامات السرد والأنساق الثقافية، عبد الفتاح كليطو، ترجمة: عبد الكريم الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب1983م.
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 2005 م،
- مناقب آل أبي طالب، أبي طالب محمد بن علي بن شهر آشوب، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط1، 2009م.
- مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان، دار الثقافة، القاهرة، 1979م.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج عبد الرحمن أبن الجوزي، (ت579هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، را جعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لاط، لات.
- موسوعة سيرة أهل البيت، تأليف: باقر شريف القرشي، تحقيق مهدي باقر القرشي، دار المعروف، قم - إيران، ط1، 2009م.

- موسوعة الغدير، في الكتاب والسنة والأدب، عبد الحسين أحمد الاميني، دائرة معارف الفقه الإسلامي، قم - إيران، ط4، 2006م.
- الميزان في تفسير القران، محمد حسين الطباطبائي، تحقيق: أياد باقر سلمان، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 2006م.
- النص من القراءة إلى التنظير، د. محمد مفتاح، شركة المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2000م.
- النظام السياسي في الإسلام، أحمد حسين يعقوب، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، ط4، 2006م.
- نظرية الأدب، تيري ايفلتون، ترجمة: ثائر ديب، وزارة الثقافة، دمشق، 1995م.
- نظرية الأدب، وستين داروين ورينيه ويليك، ترجمة: محي الدين صبحي، ، دمشق، 1973م.
- نظرية التنظيم والإدارة في فكر الإمام علي عليه السلام، عيسى مكي عبد الله، مكتبة فخراوي، المنامة مملكة البحرين، ط1، 2009م.
- النظرية الثقافية - وجهات نظر كلاسيكية ومعاصرة، تيم ادواردز، ترجمة: محمد أحمد عبد الله، ط1، 2012م.
- نظرية النص من بنية المعنى إلى سيمائية الدال، حسين خمري، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر - بيروت لبنان، ط1، 2007م.
- النظرية والنقد الثقافي - الكتابة في عالم متغير - واقعها سياقاتها وبناها الشعورية - محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت - لبنان، ط1، 2005م.
- نقد ثقافي أم نقد أدبي، عبد الله الغذامي، وعبد النبي اصطيف، دار الفكر المعاصر، سوريا، ط1، 2004م

- النقد الثقافي - تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، آرثر ايزابرجر ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، القاهرة - مصر ط1، 2003م.
- النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية، د. عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط4، 2008م.
- النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، د. سمير الخليل، دار الجواهري، بغداد، شارع المتنبي، ط1، 2012م.
- النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي - العراق انموذجاً -، عبد الرحمن عبد الله، دار الشؤون الثقافية - بغداد، ط1، 2013م.
- النقد الادبي الحديث في العراق، د. أحمد مطلوب، مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية، مطبعة الجيلاوي، 1968م.
- نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1979م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري(ت733هـ)، تحقيق: الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
- نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب، أبو الفوز محمد أمين البغدادي، تحقيق: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط4، 2009م.
- وقعة صفين، ابن مزاحم نصر المنقري التميمي، اعتنى بجمعه وتصحيحه وضبطه: حسين علي قصفة، دار المحجة البيضاء، بيروت، 1429 هـ/ 2008م.

الأطاريح والرسائل

1 - الأثر الدلالي للقرآن الكريم في نهج البلاغة، أطروحة دكتوراه هادي شندوخ حميد، جامعة البصرة، كلية الآداب، 2008م.

2 - الأنساق الثقافية في كتاب الأغاني، رائد حاكم شرار الكعبي، كلية التربية، جامعة بابل، رسالة ماجستير، 2013م.

3 - البطولة في الشعر الجاهلي، مؤيد اليوزبكي، رسالة ماجستير، كلية الاداب، جامعة الموصل، 1984م.

4 - الخطاب في نهج البلاغة، بنيته وأنماطه ومستوياته - دراسة تحليلية - أطروحة دكتوراه، عبد الحسين عبد الرضا، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2008م.

5 - النقد الثقافي تنظيرا وتطبيقا، عبد الله الغذامي أنموذجا، رسالة ماجستير، أحمد حسون حمادي، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، 2009م.

6 - نقد النص الأدبي حتى نهاية العصر الأموي، أطروحة دكتوراه، فاضل ناصر، جامعة الكوفة، 2003م.

7 - نهج البلاغة - جمعاً وتحقيقاً في ضوء النقد الثقافي -، أحمد عبيس أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة بابل، 2013م.

8 - نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي، أطروحة دكتوراه، نعمة دهش، كلية التربية، ابن رشد، جامعة بغداد، 2011م.

البحوث والدوريات

1 - الثقافة مفهوم متجدد، د. نصر محمد عارف، أستاذ مشارك جامعة جورج تاون - بحث نشر على موقع أسطورة العرب على الانترنيت.

2 - الضغينة في قصيدتي الهجاء والمديح، د. يوسف عليمات، بحث نشر في المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، العدد 3.

3 - مقالة (الثقافة والحضارة)، سلامة موسى، نشرته مجلة الهلال، القاهرة، ديسمبر، 1927م. العدد 52.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني: النسق السياسي

الفصل الثالث: النسق الإجتماعي

المصادر والمراجع

اخراج عبد القادر نجيب كرزي

وبعد ... فقد اهتمت الدراسات الأدبية الحديثة - الغربية والعربية - بموضوع النقد الثقافي الذي يتخذ من انفتاح النص الأدبي على ما هو خارج عنه طريقاً للوصول الى نظريات متطورة في الأدب ، متجاوزاً حدود النقد الأدبي المعروفة. وقد ارتكز النقد الثقافي على ما صار يعرف بـ (الأنساق الثقافية) فهي مادته الأساسية التي يقوم عليها، إذ تنشأ من خلال تأثرها بعدة عوامل ثقافية واجتماعية وسياسية ودينية وعادات وتقاليد.

ولجدة هذا الموضوع ورغبتي الكبيرة في خوض غمار البحث فيه اتخذت من (الأنساق الثقافية) عنواناً لبحثي مطبقاً نظريات النقد الثقافي وإجراءاته على خطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأسميته :

(الأنساق الثقافية في خطب نهج البلاغة) .

المؤلف

ISBN978-614-426-946-6
9 786144 269466 >

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail : almahajja@terra.net.lb
E-mail & FB: info@daralmahaja.com
www.daralmahaja.com